رواية NOVEL
NASIEF FALAK
مكتبة الفكر الجديد
نصيف فلك
قيامة
سطور
مكتبة الفكر الجديد

من كتب
عبير الربيعي

نصيف فلك

قياموت

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

رواية
NOVEL

نصيف فلك

قياموت

مكتبة
الفكر
الجديد

قياموت
نصيف فلك
QYAMOUT
Nasief Falak

الطبعة الأولى: 2015
إصدار دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790 - 07905219996 - email: bal_alame@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار والمؤلف نصيف فلك، حسب قوانين الملكية الفكرية للعام 1988،
ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الطرفين.
First Published by Dar Sutour For Publishing and Distribution
Baghdad - Iraq - Al Mutanbi street - Jadeed Hassan basha Entry
Revised copyright © Dar Sutour And Nasief Falak, The right of the Author of this work has been asserted in accordance with the Copyright, Designs and Patents Act 1988.

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد لسنة 1805/2015

مكتبة الفكر الجديد

(كل خطأ مقصود فلغة الرواية تنحت نفسها)

الى علي السومري

عجبت كيف لا تسعك كل البيوت،مشرد مع سبق الاصرار والترصد، ملعون الزمان والمكان ومع ذلك يسكن العالم في معمورة قلبك.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

شاشة مسدّس

أني ميت ميت، لا يتفقدني أحد ولا يسأل عني ماحود، ومستحيل ان يركض ورائي صديق حافي القلب يثغب وينتحب، أزف خبر وفاتي الى بنات نعش في السماء المتلاطمة، واستبعد من بغداد المنكوبة ان تسمع رثاء جوقة درب التبانة وهي تشيع جنازتي المهيبة التي لا يمشي وراءها أحد ولا تحملها سوى أكف الظلام، كذلك استبعد ان تتلمس قلبها فلا تجد ذاك العاشق الجائي الوحيد امام شباك صدرها المسدود. أموت بعيدا عن الناس والصخب والضجيج، أتوارى وأنزف أخر أنفاسي مثل الطيور الجريحة، لا يرى موتي بشر. أعض لساني حنقا وافضح الجميع واكشف عورة الاولين والاخرين، أفضح كل من لعق بلسانه المشطور،لسانه العربي الفصيح قطرة دم مجهول الهوية، ومن قبض ثمن رأس تدحرج من فوق تلال ظلمات البلاد العالية، أين اهرب وآلاف الرؤوس تتدحرج ورائي، وانا اركض اركض.....

ـ قامت القيامة..انقلبت الدنيا...حل يوم الحشر...

فززني من النوم هذا الكلب بن الكلب بصياحه ونفيره عن يوم القيامة، خرا بصدام توا غفوت وأغمضت عيني بعد حرب طاحنة مع عفاريت

مكتبة الفكر الجديد

الأرق، جيوش على مد البصر من عفاريت الأوس والخزرج يصطفون على باب نومي يطرقونه بسيوفهم: جيش العرش وجيش السماء وجيش الذباحة وجيش العلاسة وجيش الصكاكة وجيش الخلفاء وجيش الحلفاء وجيش الجلفاء، ثم سمعت رنين اسم(جماعات الثقوب السود) الذي بهرني في اختصار وجمع أسماء كل هذه الجيوش في خانة واحدة لشدة التشابه بينها في الدموية والبطش ولا احد يعرف من وضع لهم هذا الاسم،أستبعد ان الخيال الشعبي من صاغ هذا الاسم لأن الجميع يرتعد من رائحة أسمهم.

كنت أعيش محنة النبي نوح وهو يصنع السفينة من طوفان الجيوش اللجب، الذي اكتسح المدن والاحياء والقرى والارياف والقصبات، يطلق علينا نيران الغزوات لتنفتح أبواب الكوارث جميعها على مصارعها حتى صارت المصائب عندنا من الدواجن تعيش معنا نحلبها ونأكل من بيضها وهي تفرخ وتتوالد.

امام المغسلة ورغورة الصابون تغمر وجهي رحت أفكر: هذا المنادي الكلب بن الكلب، الذي فززني من غفوتي القصيرة وقطع علي ملاحم الكوابيس، استيقظت والرؤوس المتدحرجة تركض ورائي، هل هو مجنون بهاجس نهاية العالم ومهووس بيوم القيامة، أم هو عاقل فقد الاحساس بالزمن وساقه الوهم ليوم الحساب، ولكن ليس المنادي هذا وحده فاقد الاحساس بالزمن بل تسعة وتسعين بالمية من الناس تاثهين بالزمن، وتلاحقت صور أمام شاشة عيني المغمضتين بالصابون: الناس يشربون ببسي كولا تحت مكيف (السبلت) ويجلس معهم بلال الحبشي يشرب القهوة،وعندما يحين موعد الآذان يصعد فوق بيتونة السطح يؤذن ويؤشر بيده للشباب وهم يلعبون الدومينه ان يدخلوا للصلاة. الناس يخابرون

مكتبة الفكر الجديد

ابنائهم واحفادهم بهاتف الموبايل عبر المحيط الاطلسي بحر الظلمات،وفي الحديقة الخلفية يجلس شرحبيل بن حسنه يشحذ سيفه وهو يتابع مسلسل لوس انجلس. وهناك مجموعة يتابعون لعبة كرة القدم بين الفريق العراقي والفريق السعودي وحكم المباريات ابو هريرة بينما يبحث مالك بن نويرة عن راسه،الذي وضعه خالد بن الوليد تحت قدر العشاء مشتعلا بالظليمة.

أفرك عيوني بالماء أطرد النعاس وانا اللعن واسب وافشر على المنادي المخبول ابن الخرا، الذي حرمني من نعمة النوم. غسلت وجهي من الصابون وبقايا الكوابيس وانا اسمع(حوراء) زوجتي

تصيح:

ـ شني..تريد تسبح..صارلك ساعة على المغسلة شني؟

واسمع فرقعة الدهن في الطاوة ثم إلقاء بيضتين في الجحيم، يوميا نلقي أجنة الدجاج في أتون الدهن المفرقع ونأكل الاجنة بدون أي احساس بالذنب ولا كأننا ارتكبنا جريمة قتل،لا نسمي أنفسنا مجرمين ونحن نتلمض ونأكل الاطفال.

وفورا سمعت صوت عراك وزيق اطفال في الشارع وهم يلعبون الدعبل، وسمعت هدير سيارة ومكبر صوت ينادي بلا تعب وبلا انقطاع: ملح....شعرية..ملح...شعرية...ملح..

لمحت مظروف رسالة أزرق والماء يقطر من وجهي فكشرت برعب اصفر،لو رأيت وجهي في المرآة لقلت هي تكشيرة موت. وبدون وعي مني خرج صوت يقول:

ـ يا فتاح يا رزاق....الله يستر...

نشفت يدي باطراف القميص ورفعت المظروف الازرق المبلل

مكتبة الفكر الجديد

من الحواف،كان ثقيلا،هنا انخمش قلبي ودوت آلاف الاجراس في سماء رأسي برنين متواصل لا يرحم وطارت عصافير كانت موكرة على أغصان شجرة السدرة وشجيرة السيسبان فوق المغسلة. حملت الرسالة التي تحولت الى شاشة رأيت فيها الكثير من الوجوه المثقوبة رؤوسهم أو صدورهم وبركة دم جافل تحتهم،ربما اشتق اسم(جماعات الثقوب السود) من الثقوب في رأس الضحايا التي انتقلت وانحفرت في جباه القتلة.رأيت كل وجه منهم في الشاشة يحمل بيده رسالة زرقاء تحولت فورا الى شاشة، رأى فيها شخصا يحمل بيده رسالة زرقاء تحولت بدورها الى شاشة وهكذا من باب المندب وحتى رأس الرجاء الصالح.

فتحت الرسالة فسقط بكفي خرطوش أصفر لرصاصة بندقية رشاشة،خرطوشة سوداء الحواف كانت تحوي رصاصة استقرت برأس احدهم ربما. دائما أسمع في الليل قربنا عند ساحة(الطوبى)، الساحة الكبيرة التي يلعبون فيها كرة القدم يوميا في النهار،كل ليلة اسمع رصاصة أو رصاصتين أو صلية قصيرة لرشاش كلاشنكوف. هنا يعرف الجميع بأن عملية اعدام ليلي تجري بشكل مستمر، قتل يومي ولكن في الصباح لم نعثر على جثة أو جثتين إنما نعثر على برك دم لم ينشف بعد، واحيانا كنا نرى جثة والخراطيش الصفر سوداء الحواف منتشرة حولة الجثة، خراطيش مثل هذه التي في يدي الان.والمصيبة الدخانية أني أقلعت عن التدخين قبل شهر فهل أصمد واقاوم أم اتراجع خاصة وان أصابعي تجأر وتتصارخ شوقا الى سيجارة.

قرأت الرسالة بعدما فتحت طياتها الاربعة:

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة الفكر الجديد

ان الذين كفروا سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم ختم الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم غشاوة ولهم عذاب أليم. صدق الله العظيم.

أن الفاسقون الذين لا.....

كانت الورقة طويلة مخططة، هي ورقة دفتر سجل ديون يستعملونه في الدكاكين أو سجل تدوين مواد الحصة التموينية.....ها ها لقد عرفته، عرفت كاتب رسالة التهديد،هو قريب من بيتنا أقتلع الورقة من السجل باستعجال وتهور:

ان وكيل الحصة التموينية(فواز) جارنا مقابل دارنا استلب الوكالة من امرأة مسكينة حسبما تقول الشائعات. يقولون أنه اختطف تلميذا في الابتدائية،هو ابن المرأة الوحيدة صاحبة وكالة الحصة التموينية. هددها أما ان يقتل ابنها أو تتنازل عن الوكالة وتسجلها باسمه،واذا اشتكت عند الشرطة أو سمع أحد بقصة الخطف سوف يقتل أبنها بدون اختطاف، وفعلا تحولت الوكالة اليه وهربت المرأة المسكينة مع ابنها وعرضت دارها للبيع.هكذا تحوم الشائعات حول(فواز) والله أعلم. له أبن أخ مراهق يجلس أحيانا في باب الوكالة، ينتمي لجماعة ثقب أسود تركها وتحول الى خصومهم في ثقب آخر.هذا المراهق اسمه(ستار) لا يحبني،انه كره من أول نظرة وكذلك(نورية)زوجة عمه(فواز) لا تحبني بسبب عدم إعطاء رشوة خوف مثل الاخرين، الذين يتنازلون عن النقص في الكيل وعن بقايا النقود، وتكرهني لأني لا اخشاهم مع تراكمات حقد وحسد ونفور وأسباب اخرى لا اعرفها. هي(نورية) التي حرضت وألبت (ستار) علي، اقتطعت له ورقة من دفتر سجل الحصة التموينية ورمى رسالة التهديد على بيتي.

مكتبة الفكر الجديد

العجيب ان خط الرسالة ليس قبيحا ولا مجعمر مثل رسائل التهديد الاخرى ومثل الشعارات المكتوبة على الحيطان والاسيجة، كما انها قليلة الاخطاء الاملائية والنحوية، وانا أعرف (ستار) لا يقرأ ولا يكتب ولم يدخل المدرسة أصلا فمن كتب له رسالة التهديد، هل عينوا مدون اختصاص لديه شهادة وممارسة وخبرة في كتابة مثل هكذا رسائل؟

لا اعتقد ان لوني انخطف بشدة ولا زاغت عيناي من الرعب لأن زوجتي(حوراء) رأتني أتصرف بشكل طبيعي عندما اعطيتها رسالة التهديد لتقرأها. راقبت وجهها كيف أصفر واحمر وازرق واصفر ثانية، طفرت الدموع من عينيها مفرد وصلي وانتقلت عدوى رعبها الي، ورأيت نفسي كيف يسوقونني في ساعة متأخرة من الليل الى ساحة الطوبى، وهناك سوف تسمع(حوراء) زوجتي والجيران صوت رصاصتين.

أول شيء يطفو على سطح الرعب خارجا من الاعماق هو: الهروب، الهروب بظرف يومين كأقصى حد. نترك البيت ونتحول الى مدينة اخرى، نشيل من مدينة (الحسينية)،هذا هو اسمها الشعبي المعروف والشائع،أما الاسم الرسمي فهو (الزهور) الذي يتندر عليه الناس ويقلبوه الى مدينة القبور. أودع مدينتي السجينة وراء قضبان مافيا العقيدة، ولكن الى أين الهروب وجميع المدن حبلى برسائل التهديد والخراطيش؟

شبعنا من الخوف لحد التجشأ غازات نتنة، أنتخمنا من مائدة الخوف الزاخرة بكل ما لذ وطاب من العذاب حتى صرنا نحن نخوف أنفسنا، سلخنا العمر كله نرتجف، سنين يابو سنين ونحن نرتعد حول مائدة الخوف فتشكل لحمنا وعظمنا ودمنا من زاد الخوف. عيب والله عيب، خزي ان ترعبلني رسالة تهديد وإن امتشق كاتبها المسدس من بين السطور وأطلق على

مكتبة الفكر الجديد

راسي رصاصة يعرفها الجميع. كفى رعبا،سوف أتقيأ كل الخوف، لن أتحول من بيتي ولا أنتقل الى مدينة اخرى أو أشيل وأهرب من بغداد كلها، عيب علي الخوف لحد الموت، بل الموت ولا الخوف. أنا أعرف مثل جميع الجثث المحفوظة بالطب العدلي وجثث مجهولي الهوية، والجثث في المزابل، أعرف أنهم الليلة يعدمونني في ساحة الطوبى ويأخذون الخرطوش ليضعونه في رسالة تهديد لشخص آخر، أعرف مصيري من بقع الدم التي أراها كل صباح. زوجتي حوراء ارتعبت، باكت هوى، أفترستها أنياب الخوف وتخردلت وهي تراني أرفض الهرب وأصر على البقاء في البيت. قلت لها بالحرف الواحد:

ـ هنا موتي.

كتمت سر الرسالة عن أخي(عناد) الذي يسكن لصق بيتي حايط على حايط. أخي عناد بارود سريع الانفعال، يشتعل ويساعد على الاشتعال. ربما يتهور ويهجم على جارنا(فواز) وكيل الحصة التموينية، ويتهم زوجته(نورية) بتدبير مكيدة رسالة التهديد مع ستار أبن اخيه الذي راح يتنقل من جماعة الى جماعة اخرى من الثقوب السود حسب عروض بورصة الغنائم ورقعة النفوذ وآفاق السرقة والقتل، كأنما ستار قد هظم نظرية دارون وحفظها عن ظهر قلب وهو يدخل من حزب ويخرج من حزب، يزن قوى الجيوش في ميادين الوغف لذا اعتنق عقيدة التطور: البقاء للاقوى.

يريد ستار ان يجرب بي نفوذه وسطوته الجديدة على الناس المساكين من أمثالي. أخي عناد ربما يزعق في الشارع ويرعد ويزبد ويحول القضية عشائرية وتكبر وتتوسع، ويصير اسمي على كل لسان، ومع كل هذا العر والجر سوف يقتلوني ليحافظوا على سمعة رصاصتهم بأنها لا تطيش ولا يطلقونها هباء، بل رصاصتهم عليها السلام تصيب ولا تخيب.

مكتبة الفكر الجديد

أحاول تسليك أعصابي وطليها بالحديد حتى اخمد نار رسالة التهديد التهديد، واذا لم يقتلوني سوف أدفنها وكأن شيئا لم يكن. أعتقد ان جماعة الثقب الاسود لو ارادوا قتلي لا يحتاجون الى رسالة تهديد فهم: أما يريدون شراء البيت بأبخس ثمن وأما يريدون السطو وسرقة كل شيء باعتبارها غنائم، أو هم يكرهون شخصا ويريدونه ان يهرب من المنطقة، تلك هي أهم غايات رسائل التهديد، ولكن أغلب من أستلم رسالة تهديد قتلوه. واذا لم يقتلوني أدفن رسالة التهديد وتبرد القضية حتى أعرف كيف أتعامل مع ستار الداروينى ومع نورية الخبيثة واجعلهما يدفعان ثمن رعب البيت. لذلك تناولت البيضتين مع رغيف الخبز واستكان شاي، ولبست قميصي الرمادي وبنطلوني الترابي وخرجت للدوام مثل كل يوم، اخدع نفسي بعدم وجود رسالة تهديد وأتمنى من لب قلبي أن أتحول الى شبح، أرى الجميع ولا يراني أحد. هذا الأمل هو ما جعلني ألبس الثياب الشبحية ذات ألوان ميتة خامدة لا تثير الانتباه. أنا اخصص دائما نوع الثياب عند الخطر، الثياب الباهتة والرملية والترابية التي داومت على لبسها منذ زمن نغولة العقيدة،زمن البعث وصدام، حيث الاعتقالات تجري بين شهيق وزفير لتمثل أمام محكمة زيتونية برمشة عين مدان بتهم على النوايا، ويسوقونك الى قاطع الاعدام على السريع بينما الجلاد لم ينبش أسنانه بعد من بقايا لحم ضحية الامس.

مكتبة الفكر الجديد

نغولة العقيدة

خرجت في هذا الصباح الماكر المحتال، الذي يخدعنا ببرودة الجو ورقة النسيم ثم مباشرة تنقض علينا مخالب الشمس الحارقة فتبكي اجسادنا بدموع العرق، تسيل من الجبين والإبط والنحر والخصيتين. بمعجزة خرجنا سالمين من شهر أب النهاب السلاب ودخلنا في شهر أيلول المشلول،نلبس فوق القميص سترة أو بلوز محتفين بقدوم الشتاء ولكن بعد الساعة العاشرة نحير بالسترة بعدما ننزعها من شدة الحر فنطويها حول اليد اليسرى وكذلك الحال مع البلوز بحيث نسخر ونضحك ونقول: في الصيف نبول من الوراء مثل بول البعير.

لا يخلو قميص من خارطة بول القفا،مبقعة ظهورنا من عرق الحر وبول البعير. الحر والصحراء من أهم اسباب الارهاب،يتحول الكثير منا في الصيف الى مسوخ لا نرتقي ابدا الى مستوى الحيوان، نعيش لمجرد التقاط الهواء والفوز بالشهيق. الصيف مجرم تغص ايامه وساعاته بفحيح الدم، نحن القتلة ونحن الضحايا، نحن الجحيم في الجحيم ولكن عندما يطل الشتاء نتحول الى أشباه بشر، نحس بمذاق الحياة وتراودنا أسئلة الوجود. وها أنا بملابسي الشبحية أسد الباب خلفي مفتوح الصدر للخطر.

مكتبة الفكر الجديد

الحمد لله لم اصادف احدا من الجيران لا (فواز) يجلس على كرسيه أمام باب وكالة الحصة التموينية ولا زوجته(نوريه) تجلس على الارض متجهمة الوجه تشتعل حقدا على الإنس والجن والحيوان والحشرات لا يفلت من لسانها الباشط أي مستطرق أو مار.رأيت أبنهم(صافي) يجلس على كرسي أبيه مشغولا ينظر الى الاطفال وهم يلعبون الدعبل. ولم اصادف(عباس المطيرجي) فوق السطح يهش وينش على طيوره بعصا طويلة في طرفها قطعة قماش كأنه علم القراصنة، والعجيب لم أرى أبنه (ونوس) مجنون الصور وهو يجلس يوميا قرب باب بيتهم يمزق كومة صور. المخبل ونوس يتضور جوعا الى تمزيق الصور ويهيج صارخا اذا لم يعثر على صور يمزقها، غالبا كان يهيم على وجهه مثل البدو طلبا للصور والبوسترات والكارتات وأي ورق فيه رائحة صور. لم يعرف أهله بالتحديد اليوم الاسود الذي فقد فيه ونوس عقله ولا الساعة التي تسلل فيها جنون الصور الى رأس ابنهم حين استيقظوا صباحا فوجدوا جدران البيت خالية من أي صور وتختبئ في الزوايا كوم الصور الممزقة، والعجيب ان الصور المؤطرة والمحمية بالزجاج بقيت في مكانها ولكن بدون صور، بقيت إطارات فارغة.جاب أبوه وأمه ردهات المستشفيات وأروقة العيادات الطبية لعلهم يجدوا علاجا له، وأنهكت اجسادهم وجيوبهم وصفات الاطباء اللامعين لكن ونوس بقي كما هو لا يدخل عيادة طبيب إلا ويتفاجأ الجميع بأن حيطان العيادة قد خلت من الصور والاعلانات والارشادات الطبية فتتجه الانظار الى ونوس الفرحان والمنتشي وهو ينظر الى كوم الصور الممزقة في الزوايا. لا يخرج من مستشفى بدون ان يخلف وراءه ما تحمل الجدران من صور وارشادات طبية. ادهش الجميع ونوس كيف ينسل وينزل الصور ويمزقها

مكتبة الفكر الجديد

بدون ان يشعر به احد ولم يحضوا به يوما متلبسا بجرم التمزيق المشهود.

بعدما عجز الاطباء عن شفاء ونوس المخبل استدار أبوه وانحدر للوراء وسلمه بيد الشيوخ والعرافين والسادة المختصين بعالم الجن وقبائل الشياطين وفنون السحر ومواقيت التلبس وأقانيم الارواح، لكن ونوس تملص من براثنهم بآخر نفس، تملص بجسد معطوب من كثر الكي

والنبش وبرأس مرصع بأقمار تشع بليل شعره البهيم، خرج من بين أيديهم مجنون كامل الدسم، يرتعب ويهرب كلما رأى شخصا يلبس عمامة فيضحك الناس وهم يقولون: الجن بداخله يخاف ويهرب من رجال الدين.

استقر اخيرا يجلس يوميا بمحاذاة باب الحوش مع وجبة صور يمزقها بمرح، حيث يخرج أبوه وأخوته الصغار يجمعون عشرات الصور كل يوم ذخيرة لونوس حتى لا يهيم مثل البدو، وهو يضحك ويزمجر فيهرب منه الاطفال حاملين معهم الصور التي يلعبون بها.

نظرت الى مكان ونوس الخالي وتمنيت ان يمزق جميع الصور في البلاد. أمشي متحديا رسائل التهديد قريبا من منتصف الشارع ولم أسد خشمي من عفونة الزبالة وبرك المجاري في الساحة الصغيرة التي تتوسط البيوت نسميها ساحة الزبالة ثم نصبوا فيها مولدة كهربائية فصار اسمها ساحة المولدة على الرغم من وجود الزبالة وخيس المجاري التي أدمن الجميع على شم نتانتها وما عاد يتضايق منها احد.

الحمد لله لم اصادف احدا من الجيران وانا بطريقي الى الشارع العام، شارع(الجريحي)،لكني صادفت الان(سامر) امام مدرسة (الزعيم)، هذا مسخم الوجه هكذا يسميه أهل المنطقة، وهو فعلا مثل طنبور يخيم

مكتبة الفكر الجديد

على وجهه دخان اسود يكاد ينز بالقطران، يمشي منكس الرأس لا يرد التحية ولا يسلم على احد،منكفئ على نفسه لا يلتفت ولا يرفع رأسه. مر بجانبي مثل فسوة ولم اسد خشمي المترع بعطور المجاري والمزابل وروائح المستنقعات في منطقة الجريخي،التي يلقون بها فطيسة حصان أو بقرة. وها أنا أمر بمحاذاة مستنقع صغير قريبا من شارع الجريخي واصطدمت عيناي بتجمعات صغيرة لناس يتراطنون ويشيرون الى الشارع مع حركات بالأيدي والرؤوس واشارات للسماء.اقتربت منهم فتصاعد الضجيج والهمهمة، لم أرى أي سيارة مرت في الشارع لا ذهابا ولا ايابا،رأيت جماعة صغيرة أمام جامع نبي ايوب ذي القبة الخضراء وازداد عجبي من اختفاء سيارات الجيب (الواز) التي تسرح وتمرح في الشارع بلا منافس. اقتربت أكثر فصدمني المنظر البشع للشارع: حفر وطين وتراب رطب على امتداد الطريق ذهابا وايابا، منظر غير معقول محير يصعب على العين استيعابه. لمحت بائع الثلج الذي يعرفني من شكلي واعرفه من خلال مناداته الساخرة المرحة في بيع الثلج بطريقة ما يجعل الناس يشترون منه ويضحكون على مهازل الحر والصيف والسياسية.

سألته بلهفة وحيرة:

ـ يمعود..ريحني.. ماذا حصل؟

أجاب بائع الثلج بمرارة قاتلة:

ـ سرقوا الشوارع...لم يبقى شيء إلا وسرقوه..واليوم جاء دور الشوارع..اليوم غبشه سرقوها وبقيت حائرا كيف أبيع الثلج؟

سألته بنفس تلك المرارة:

ـ ولكن كيف...كيف سرقوا الشوارع؟

مكتبة الفكر الجديد

رد علي وهو يشير الى الشارع بألم مكتوم وغضب دفين:

ـ غبشه جاء مسلحون من جماعات الثقوب السود بزي اسود ولثام اسود حتى سلاحهم اسود..جاءوا مع شفلات وسيارات حمل كبيرة... قطعوا إسفلت الشارع الى اجزاء.. حملوها وانطلقوا.

ماذا ينفعهم إسفلت ميت لا يباع ولا يشترى، كيف يمكنهم إعادته للحياة ثانية؟ يقول المسحلون من جماعات الثقوب السود: أنهم يريدون تبليط الشارع بشكل أفضل. ولكن يبدو انه سيبقى كما هو حتى تمطر السماوات اسفلت.

عاد بائع الثلج يسخر ويتهكم وهو يقول:

ـ تاه الناس حين اختفت الشوارع وضاعت أمكنة المخابز والافران والدكاكين والاسواق...وأنا ضيعت الطريق فلا اعرف كيف أبيع الثلج وكيف أرجع للبيت والشوارع مسروقة..حتى أني ضيعت أفران(العروبة) التي أبصق عليها من بعيد لأني أشم جيفة البعث في كل صمونة..خاصة يوم سمعت صاحب الفرن يصف الناس بالجبن لأنهم لم يقاتلوا الجنود الاميركان...كانت حجة كل البعثيين اسمهم الجديد (نغولة العقيدة) الذي صاغه لهم الخيال الشعبي كانت حجة نغولة العقيدة الاولى: لماذا لم تحاربوا المحتل؟ ولا يقولون الدافع الخفي: لماذا لم تدافعوا عن صدام حسين والبعث؟

بصق بائع الثلج نحو أفران(العروبة) وقال:

ـ أنا كنت رفيق بعثي...ولكني شعرت برأسي يمتلأ بالخرا يوما بعد يوم...حينها قلت لنفسي: أهرب للناصرية قبل ان تصير بالوعة..لكن المصيبة العورة: خلصنا من نغولة العقيدة بالالفين وثلاثة حتى جاءنا

مكتبة الفكر الجديد

جماعات الثقوب السود...تدري..اليوم أكثر الناس يرجعون لبيوتهم... يرجعون مثل جيش مهزوم مكسور...المساكين خرجوا للعمل فتاهوا بعد سرقة الشوارع..لا يعرفون مكان دوائرهم الحكومية وأماكن عملهم... تدري..بصقتي راحت حرامات..ضيعت وين مكان أفران العروبة.....

تركني بائع الثلج وهو يدردم ويسب ويلعن ويفشر، أختفى وهو يدخل زقاق مصور بنت الشناشيل.

وأنا عاندت وركبت رأسي ولم أرجع للبيت مثل بقية الناس، فضلت التيه على العودة المهزومة المنكسرة لأن هذا هو مراد جماعات الثقوب السود، مراد الجيوش الزاحفة على جلد حياتنا، أنهم يحتقرون العمل ومن يذهب للعمل والدوام في دوائر الدولة والمدارس. عاندت وعبرت الحفر والطين والتراب المنبوش من شارع الجريحي المسروق ذهابا وايابا،كما عاندت رسالة التهديد وها أنا قد تجاوزت جامع نبي أيوب.أمشي باتجاه غريزي ربما يوصلني الى شارع (المكاتب) حيث سيارات (باب المعظم)،وكم اخشى أن يكون هو الاخر قد سرقوه. ربما أنا امشي الان بأتجاه السوق(الزغير) وسط شارع المكاتب،ومن هناك سوف اصعد الى باب المعظم.

أمشي وازخ عرقا في صباح أيلول الماكر، الذي يرينا البرد ويطعمنا الحر. أمشي وطبول رسالة التهديد تقرع في رأسي وتدوي في قلبي، اليوم أقترنت حادثة سرقة الشوارع برسالة التهديد. والان تجاوزت اعدادية(الخنساء) للبنات،التي شهدت معارك ضارية بين أهالي البنات وبين شباب ومراهقين تصرخ برؤوسهم الحيامن المنوية.

أمشي وتمرّ بي الحمير فرادى وجماعات وهي تعرج، ويسيل من مفاصلها

مكتبة الفكر الجديد

الدم والصديد، بعضها مسلوخ الجلد حيث تُقام في جروحها مهرجانات ذباب. سمعتُ نهيقا يفطر القلب بغموض وجعه وسرّ انطلاقه، كلما أسمع النهيق أشعر بفجيعتي. لو انتبه المؤرخون والعلماء للأسرار الكامنة في النهيق لتوصلوا إلى القول:

إنّ نهيق الحمار يلخص مأساة شعب من سومر إلى بغداد برعم.

سمعتُ دويّ انفجار قريب خمنتُ مكانه حسب خبرتي الميدانية مع كثرة وتنوع الانفجارات اليومية؛إذ ربما وصل عدد السيارات المفخخة نصف مليون سيارة، وعدد العبوات الناسفة أكثر من مليون فكيف لا نصير خبراء رغم أنوفنا، التي غدت خبيرة هي الأخرى في تمييز نوع الدخان. ولاحظتُ ردة فعل الناس عند سماعهم الانفجار القريب جدا من السوق (الزغير)، لم يركض أحد صوب مكان الحادث ولا اهتزّ أي شخص من قوة الصدمة، رأيت الذي كان يصلّح إطارة سيارة رفع رأسه لحظة الانفجار ثم عاد لعمله، والذي يركب دراجة هوائية رأيته يتوقف لحظة ثم عاد يسير، حتى النساء الواقفات في باب بيوتهنّ وقرب بائع الخضار والفواكه. لم أسمع منهنّ نشغة مصيبة وقعت توا ولا سمعتُ صرخة مفجوعة، فربما يكون الابن أو الأخ أو الزوج قريبا من مكان الانفجار.رأيت الأطفال والصبية فقط من ركض صوب السوق (الزغير)،ربما كانت مدينة (الحسينية) لها حصة الأسد من الانفجارات. والمفارقة المثيولوجية أن الكثير من الناس يقسمون بأغلظ الأيمان أنهم شاهدوا عزرائيل في أكثر من مكان في بغداد وحتى أنّ بعضهم سأله عن موعد يوم القيامة.

وبعد مرور عشر دقائق على الانفجار عاد كل شيء كما كان،وبدا في رأسي شريط فيلم يعلق ويروي الأحداث: أشخاص معلقون بحبال

مكتبة الفكر الجديد

المشانق في باب الشرقي، أول حفلة إعدام علني أمام أهل بغداد، يقول (نغولة العقيدة) عن المعدومين جواسيس. ثم تبين فيما بعد أنهم تجار في الشورجة حذروا الناس من سرطان نغولة العقيدة. وفعلا شنّت السلطة حملات اعتقالات وإعدامات طالت الآلاف من الشيوعيين والمتدينين ومن يكره نغولة العقيدة. صور حرب وتطاير أشلاء ودبابات تدوس على أطفال، وصوت الراوي يقول:

دبّ السرطان في مفاصل البلاد، وانتشرت أورام في المجتمع وفي شوارع المدن، ورم في البيوت وراح الزوج يخاف من زوجته وأبنائه، سرطان في الروح مع صور غزو واحتلال الكويت وتحليق طائرات من وسط البحار وزخات صواريخ عابرة للقارات فوق رؤوس الجيش الذي انهار ورمى السلاح، جنود بالآلاف يركضون في سباق للنجاة والطائرات تنفخ عليهم نارا. صور أطفال يبيعون كليتهم يحملون معه قناني الدم والماء المقطر وآباؤهم يقتلعون أبواب وشبابيك البيت يبيعونها لشراء كيس طحين، إنه الحصار وتفاقم وباء السرطان حتى صار الجميع ضدّ الجميع، وكان الأمل الساذج في القضاء على السرطان من خلال بتر الورم، بتر نغولة العقيدة وقائدهم الفذ، وهذا ماحدث بمشرط طبيب أمريكي ملوث سنة الألفين وثلاثة، لكن الجرح تقيّح وخرجَ منه: جماعات الثقوب السود. تسلموا السلطة وها نحن ذاهبون إلى يوم الشر العظيم. لقد نضجنا للمحنة الكبرى، وعندنا استعداد لابتلاع أي كارثة عظمى. وصلنا الآن إلى حافة الهول حيث يجلس شعب من أطفال ونساء وشباب وشيوخ على جرف نهرين ينتظرون سقوطا آخر، سقوط: جماعات الثقوب السود، بمعجزة جديدة.

مكتبة الفكر الجديد

انتهى الفيلم وانقطع صوت الراوي بزعيق منبه سيارة، توقفتُ مرعوبا من الدّهس، ورأيت نفسي أقف على بعد أمتار من شارع المكاتب، تنفستُ بارتياح وصحت بصوت مسموع: الحمد لله لم يسرقوا شوارع المكاتب. نظرتُ للناس ورأيتهم لا علاقة لهم بالناس، كل منشغل بنفسه بينما يحترق وينهار كل شيء من حولهم، وهنا نبت في قلبي سؤال أسود: هل يستحق البشر بقاء العالم؟ كل مافي الطبيعة يستحق البقاء من هواء وماء ونبات وحيوان وحشرات إلا البشر؛ فهم الوحيدون لا يستحقون الحياة، ولكن: مافائدة بقاء جميع الكائنات بدون البشر؟ هربت الأسئلة حين أقبلت سيارة (كيا) والسائق يؤشر لباب المعظم.

مكتبة الفكر الجديد

سوق القيامة

جلست في خانة سيارة (الكيا) الاخيرة كالعادة لمواصلة بث الأسئلة على شاشة عقلي لأن البث انقطع وهربت الأسئلة من غول السيارة؛ ربما أمسك بأعظم سؤال في حياتي، سؤال يقودني لمعرفة وفهم سرّ الوجود والغاية من الخلق، يعني: لماذا نولد ونعيش ونموت، وماذا وراء الموت، فإذا كان العدم لماذا انوجدنا أصلا، وإذا كان الحساب والجنة والنار فمن أخذ رأينا بالمجيء للدنيا؟ وهنا سوف نحاسب الخالق قبل يوم الحساب...

انقطعت سيول أفكاري وتساؤلاتي بهجوم رائحة كاسحة؛ هذا خشمي المتعود على روائح المزابل والخيس والمجاري لم يحتمل طغيان نتانة هذه الرائحة التي تسللت إلى بطني ورحت أهوع على وشك الزواع، رائحة دمرت كياني حالما صعد ثلاثة مراهقين إلى السيارة، انكمش بقية الركاب وطغى وجودهم المنفر على الجوّ. جلس اثنان منهم قربي في الخانة الأخيرة والثالث في كرسي الوسط. تكوّمت عليّ الرائحة بثقلها العطن وكثافة النتن. كل من يشمها ينقلب إلى حجر مثل عيون الميدوزا. ياجماعة، هي رائحة لاتشبه أي مرحاض قذر ولا أي بالوعة طافحة مكشوفة الأحشاء، حتى خراء الكلب أهون من فظاعتها، لا تشبه أي رائحة عدا الفطيسة

مكتبة الفكر الجديد

والجثة. هل يحمل هؤلاء المراهقون الثلاثة فطايس في أجسداهم؟ اختنقت وطفرت عيوني للخارج فالرائحة لا تطاق وهي تنز وتفوح من المراهقين الثلاثة. هل أنزل لأن قلبي انخمش ورحت أسعل وأنا أشم تفسخ جثث كثيرة تعطّ من أجسادهم؟ ربما أموت إذا لم أنزل أو يغمى عليّ. العجيب في هذه رائحة إمكانية لمسها أثناء ما تسيل في الهواء كصديد يتفجر من ثقوب جثة من شدة الحر، وها أنا أتنفس الهواء الموبوء.

في البدء راودني الشك بمكان (مطعم الأمير) الذي صعد منه المراهقون الثلاثة، فربما كانت هناك جثث مغطاة يريدون نقلها إلى الطب العدلي. لكني الآن غادرت مطعم الأمير وصار وراءنا بعيدا، ثم عبرت السيارة سيطرة الجسر والرائحة تزداد كثافة وهيمنة، وبلا تفكير مددت يدي وفتحت نافذة السيارة إلى النهاية فتدفق هواء بارد من بساتين الراشدية ونحن فوق الجسر، طرد هواء الأشجار والأعشاب جيش النتانة المدجج بأسلحة فتاكة. كان المراهقون صامتين مثل مقابر بعكس طبيعة أغلب المراهقين الذين يملؤون الجو بالضجيج والزعيق بمزاحهم الصاخب. لكن هؤلاء الثلاثة طامسون في مستنقع أنفسهم حتى سرت عدوى صمتهم الخانق على ركاب السيارة وخيم على الجميع بضمنهم السائق وهو يتململ مختنقا بسيول الرائحة غير المرئية.

بين لحظة وأخرى أسترق النظر إلى المراهق الملاصق لي. فرأيت بروفيل وجهه الخالي من أي طفولة أو مراهقة أو شباب؛ وجهه يحمل ملامح رجل مفترس خرج توا من مناخ جريمة وها هو يتضور جوعا لطريدة أخرى. ثم لمحت وجه المراهق الآخر الجالس جنبه،رأيته أصهب مسلوخ البشرة بأنف مقشر كأنه حية لحظة نزع جلدها، العجيب أنه وسيم الملامح لكن

مكتبة الفكر الجديد

بدون ذرة جمال، هي وسامة بشعة يتوجها شعر أحمر مرفوع للأعلى كشوك القنفذ. أما الثالث الذي يجلس أمامي في خانة الوسط فلا أرى منه سوى القذال الأسود الطويل الذي يغطي علبته وياقة قميصه الجوزي. أيقنت بأن صمتهم القذر وتلك الوجوه المقفرة الخالية من الرحمة لم ينحتها القدر من فراغ، ولم يستيقظ أي إنسان في الصباح ليجد نفسه ذباحا قبيحا دموي الملامح. قدرت مع نفسي كم هم مخيفون يتحاشاهم البطل والمتهور؛ هل هم من إحدى جماعات الثقوب السود؟ لذلك كنت منسحبا ملموما ألتصق بجدار السيارة، أجلس محشورا داخل نفسي لا أريد أن يمسني المراهق الجالس جنبي حتى ولو بالملابس، تركت بيني وبينه فراغ بمساحة الكف. صار الطريق لباب المعظم أطول من كل يوم، طريق رحت أحسبه لحظة لحظة وفضاء السيارة غارق بنتانة مغلقة وصمت قذر ورعب غامض. ابتعد باب المعظم إلى عرعر وأنا أتمتم بلا صوت ورذاذ: الله يستر من هذا اليوم.

لم أرتعب من رسالة التهديد بشدة فهي طقس يومي تزاوله جماعات الثقوب السود بخشوع وتقوى، كما إنها ليست الرسالة الأولى ولن تكون الأخيرة، كما لم تنشب في قلبي مخالب القلق حين رأيت شوارع (الجريخي) المسروقة؛ فالبلاد تعصف بها سرقات لم تخطر على بال الجن والعفاريت، لكن هؤلاء المراهقين الثلاثة استولوا على الهواء والسيارة وقبضوا على قلوبنا لدرجة أننا لم نستطع نطق كلمة:

نازل عيني نازل..

ونكون خارج السيارة وخارج دائرة الهلع المكتوم وخارج حدود النتانة الجائرة. الآن بدأ الهواء المتدفق عليّ من نافذة السيارة يسخن من

مكتبة الفكر الجديد

شدة طغيان الشمس وأفراخها من أمثال المراهقين الثلاثة، وبدأ العرق ينزّ خاصة وأنا مُضطر للبقاء في سيارة تنفث النتن وهي منطلقة بسرعة جنونية في رحاب جهنم. سمعت رنين هاتف موبايل بنغمة نشيد أسود يهجم على السامعين ويعضهم من صيوان الأذن، نشيد يتفايض من كلماته عصير الحقد المركز على أنغام لحن رصاص سكران بالدم. سمعت نشيدا مسعورا ولمحت المراهق الجالس جنب لصيقي يجاوب بصوت مطاط معاد كأنه يتعمد تقليد رجال العصابات في الأفلام، سمعته يقول نحن في بوب الشام..اي..اي.. بعد نصف ساعة نصل باب المعظم، ثم أقفل جهاز الموبايل ورجع إلى بالوعة الصمت. بلحظة قررت أن لا أذهب اليوم للدوام في دائرة النشاط المدرسي التابع لوزارة التربية، ولا أحضر التمارين على مسرحيتي (حليب أسود) التي كتبتها عن الماضي الذي يأكل ويشرب معنا، كنت أحضر التمارين بصفة خبير لغوي يصحح الأخطاء أثناء الحوار بين الممثلين الموظفين لكني اهتم بجمال العبارة أكثر من النحو والاعراب، لقد كرهت المسرح والمسرحية والتمثيل والإخراج بسبب قذارة الإدارة وبسبب المسوخ الذين لا يحسبون أنفسهم على الموظفين ولا على الفنانين. إذا حاسبتهم على أنهم فنانون يقولون لك إنهم مجرد موظفين، وإذا حاسبتهم على أنهم موظفون يقولون لك إنهم فنانون. تلك معضلة المسوخ. هنا عندنا لا يوجد فن بل وظيفة تعطيهم رواتب ويترقبون العلاوات والترفيع لا تنقية الضمير من الشوائب والتلوث. لماذا يجهد الموظف نفسه في تقمص الشخصية ولعب الدور بأجمل وأتقن مايكون والوضع الأمني والسياسي في تدهور وانحطاط سريع ومستمر، كما إن المجتمع انقلب فجأة وصار متدينا برمشة عين، صار يحتقر الفنون والآداب تقربا إلى الله.

مكتبة الفكر الجديد

ومثلما عاندت الهلع ومزقت رسالة التهديد ورميت خرطوشة الرصاصة في الزبالة، وعاندت الخوف وعدم الاستسلام للصوص الذين سرقوا شوارع (الجريخي) قررت المضي للأمام بلاشوارع فلن تتوقف غريزة الحياة مهما فعلوا. هكذا لم أنزل في تقاطع (جامع النداء) ولم أذهب إلى دائرة النشاط المدرسي حيث الـ (بروفة) على مسرحية (حليب أسود) التي كتبتها خصيصا للمشاركة في المهرجان المسرحي لوزارة التربية.

وصلنا باب المعظم ونزلنا تحت المجسر الذي مضت عليه ثماني سنوات ولم يكتمل هذا الجسر المكنى بجسر (الحراميه) إذ سوف يكتمل ويتم افتتاحه بيوم وفاة آخر لص. تناوب عليه أفتك اللصوص من جماعات الثقوب السود أصحاب النفوذ عالي المستوى في الدولة، كل مقاول لص يخمط ما تيسر من الملايين ويسافر للخارج فيستبدلونه بمقاول لص آخر ويخمط ويسافر، هكذا تقام عندنا المشاريع العملاقة من خلال السرقات العملاقة.

قررت مراقبة المراهقين بكل ما امتع به من بسالة رعونة ومن باع في الطيش خاصة بعدما رأيتهم عن كثب بتلك الوجوه الضارية والطافحة بالشر. المراهق الأصهب أصغرهم والعجيب هو من يقودهم برغم أن المراهق طويل الشعر الأسود له وجه مخيف، وجه أصفر مخضر وعيون ذئبية متربصة وفي ذقنه لحية سوداء قصيرة متناثرة على جانبي وجهه بلا شوارب. ياربي: من نحت له هذا الوجه الغادر والصارم، وكأن هذا العالم عدوه وكل شيء يهدده لذلك وجهه مستنفر للقتال ومتحفز للجريمة. المثير في وجوههم الثقب الأسود الذي يحمله ثلاثتهم في الجبين.

أعرف من تجارب كثيرة أني أرعن وخبل عندما قررت متابعة المراهقين

مكتبة الفكر الجديد

الثلاثة، أعرف عن خبرة حين ركبت رأسي أعدو به وأقوده إلى الهاوية، أنا الحكيم بمعاداة نفسي والمحنك الذي يحفر لنفسه ويسقط في البلايا، أنا البارع في توريط نفسي. وها أنا الحكيم الأرعن أمشي وراء خطر المراهقين الذين لم يدخلوا سوق باب المعظم بل عبروا إلى الجهة الأخرى حيث محلات المواد الإنشائية المطلة على الشارع العام، تتكوم أمامها أكياس الإسمنت والبورك والجص ونماذج من الطابوق. دخل المراهقون في زقاق ضيق في منطقة (الفضل) وأنا أترك مسافة ليست قصيرة بيني وبينهم كي لا أثير انتباههم،تسللت وراءهم إلى الزقاق الراكد الساكن الميت فلطمتني ذات الرائحة النتنة التي شممتها عند المراهقين، وصكّ أذني ذات الصمت القذر. رحت أتعثر بخطواتي مغموما لئلا يكون الزقاق مسدودا: ها.. أين اختفوا؟.. أين ذابوا؟ بمجرد استدارة الزقاق ودخولي تلاشوا.هنا أدركت حجم الورطة، شعر المراهقون الثلاثة بمراقبتي لهم فهم ليسوا ثولان ولا أغبياء، لذلك كمنوا خلف حائط أو باب وسوف ينقضون علي حال مروري. لم ارجع، كيف أرجع بمنتصف طريق رعونتي ولا أكمل مشوار الورطة ودرب عنادي. انطلقت أمشي بسرعة كمن يركض، يا ألله كم خشيت أن يكون الزقاق مسدودا وتكتمل فصول محنتي في أزقة منطقة (الفضل) الكثيرة. الآن أركض مشيا أداري ارتباكي وعماي فاصطدمت بامرأة تلبس عباءة سوداء، هي الأخرى مستعجلة ومتوترة لأنها أطلقت صرخة مبتورة خافتة إثر سقوط شيء ملفوف بصحف، سقط من تحت عباءتها وانفتحت الصحف وإذا هو زند أبيض مقطوع من الكتف لامرأة، يد كاملة بكل زينتها وحلتها، الأصابع فيها ثلاثة خواتم ذهب وأساور لمعان المعصم. بارتباك وسرعة غطت المرأة الزند بالعباءة ولفته من جديد

مكتبة الفكر الجديد

بتلك الصحف، ثم انطلقت بخفة وهمة وأنا متجمد الدم بعدما طار عقلي مني وارتكس قلبي تحت قدمي، اقشعر جلدي في البدء لمنظر الزند والدم المتيبس عند حافة القطع، بعدها انكمشت فروة رأسي وكادت أن تتمزق. جمدت في مكاني متبلدا مخطوفا لا أعرف أين أنا وماذا أفعل: هل أركض للأمام أم أرجع للوراء أم أظل ثابتا هنا مسطورا أنتظر منيتي على طبق من التماسيح؟

تجمدت وعيناي تطارد المرأة التي وقفت أمام باب وراحت تطرقه بإلحاح وفجأة خرج المراهق الأصهب ومعه أبو سكسوكة بلا شوارب، تناوش الأخير الزند الملفوف بالصحف ودخلت المرأة، ثم لاحظت المراهق الأصهب رمقني باحتقار ولامبالاة، هكذا فسرت أنا تلك النظرات من بعيد. وبكل قوتي اقتلعت نفسي وانشلت قدمي من وحل التجمد وركضت. ركضت فعلا في حقل ألغام الزقاق الذي يفوح بالنتانة والصمت القذر بدون أي التفاتة لا أدري هل يطاردني أحد أم لا حتى خرجت للشارع العام فتوقفت أمشي. عبرت الشارع الرئيسي الممتد من باب المعظم إلى شارع (فلسطين) ثم مدينة الثورة(الصدر). انسللت إلى شارع فرعي يؤدي إلى سوق باب المعظم وأنا ألهث وأسترد أنفاسي لطرد الرائحة النتنة العالقة في خشمي، وأنفض ملابسي من الصمت القذر. سمعت من بعيد صياح الباعة وهم ينادون على بضاعتهم: أنواع الخضار والفواكه واللحوم والأسماك والدجاج. ماذا أسمع؟ ورغم إني بعيد لكني تلقفت كلمات غريبة تختلط في نداء الباعة، هل توهمت أذني رنين الكلمات الغريبة؟

ها أنا أدخل السوق وسخا مُلوثا متلبكا من مخلفات زقاق المراهقين

مكتبة الفكر الجديد

الثلاثة، هبّت عليّ روائح الفواكه والخضار تغسلني وتطهرني مسامة بعد مسامة، كل عطر راح ضوعه يكنس أروقة جسدي من زبالة المراهقين والزقاق، كل عطر يزيل النتن ويحل محله حتى غدوت جزءا من الطبيعة، شعرت بأني ذرة نظيفة وفعالة في هذا الكون. استحممت بالعطور الأخاذة والروائح المسكرة للفواكه والخضار من جانبي السوق، لكني تلعثمت من سماع كلمات عجيبة وغريبة تنطلق من أفواه الباعة وهم يصيحون: طماطة حمرا ريانه تسند روحك بيوم القيامه.. بصل.. بصل يطرد عنك حيايا القبر والصل. وسمعت آخر ينادي: خيار.. خيار لا مفر من يوم العقاب ولا أعذار.. باذنجان أسود يفتح عليك يوم الحساب الأبيض..

وأسمع بائعا يحمل بكفيه صم باميا وصم فاصولياء خضراء وهو يصيح: أكلو اشترو باميا وفاصوليا قبل القيامه اشبعو.. يجيبه بائع آخر: تعالو.. تعالو هنا قبل الحساب عطر نفسك بالتين والزيتون. وبائع آخر ينادي: دجاج ذبح.. دجاج الكفيل قبل الرحيل.. دجاج العقبة.. دجاج المراد يوم القيامة لا ماء ولا زاد.

وبائع يحمل سمك بيده يصيح: سمك بني يوم لا ينفع أنس ولا جني.. سمك شبوط وجري سمك سلفر وكاريبي يوم القيامة لا يعرفني أخي ولا حبيبي...

وهذا يلعب بالتفاح والبرتقال وينادي: تفاح وبرتقال وموز اليوم يوم الامتحان لو خساره لو فوز.

ماذا أسمع يا ناس ياعالم، هل أكذب أذني وأصدق عقلي، هل حقيقي ما أسمعه ياجماعة.. اشلون؟ اشلون أصدق ما أسمع؟ هل حدث أمر جلل قاهر وأنا لا أدري؟ يبدو من نغمة ورنين صياح الباعة ومناداتهم أنهم لا

مكتبة الفكر الجديد

يسخرون ولا يستهزئون. سمعتهم يصيحون بمنتهى الجدية والإصرار والمُثابرة.

واصلت المشي وسط غابة من العطر والروائح وصيحات يوم القيامة ويوم الحساب بذات النبرة والطبقة الصوتية لصيحات الخيار والطماطه واللوبياء والباميه. صار الباعة لايفرقون بين نبات الدنيا ونبات الآخرة. فالباذنجان يختلط مع قيام الساعة، والتين يتماهى مع يوم القيامة، والتفاح مع يوم الحساب. هبطت السموات السبع إلى تراب الأرضين السبع، اختلط الغيب مع البصل والميتافيزيقيا مع الفجل وصار البرزخ يعطّ بالثوم.

ياجماعة، إنّ باعة السوق آخر من يهتم بماوراء الطبيعة ويوم الحساب والقيامة، ها أنا أرى المستحيلات تتناطط على رأسي مثل الضفادع، إذا كان باعة السوق ينادون على بضاعتهم الأرضية وعلى بضاعة السماء بصياح وعياط كأنهم في سوق عكاظ فماذا يفعل الصحفيون والكتاب والمثقفون؟ ماذا يفعل رجال الدين والشيوخ والسادة وأساتذة الجامعات والكليات الدينية والعقائدية والشرائع؟

وصلت قريبا من مقهى (قبو البصل) وتذكرت المثقفين وأنا في حيرة مما أرى وما أسمع لذلك ساقني الفضول لمعرفة رأي الكتاب والصحفيين وعشاق الأدب والمثقفين في سوق القيامة. جلست قريبا من باب المقهى وأوصيت على استكان شاي مع قنينة ماء معقم. لاحظت أن لا أحد يعرفني من رواد المقهى ولا أحد قال لي (الله بالخير) تلك الجملة العراقية الشائعة والشهيرة خاصة لو أردت أن تفتح باب حوار أو حديث. نعمة كبرى أن لايعرفك أحد، نعمة لا يقدرها أحد مثل نعمة الأمان الذي فقدناه نهائيا.

مكتبة الفكر الجديد

قلت مع نفسي أقلد البدو: المجهولية عطية ما وراها جزية. فعلا، سعادة لا مثيل لها حين تمشي في الشوارع ولا يعرفك أحد. حين تجلس في النوادي والمقاهي والمطاعم مجهولا من الجميع تلك أمنية تشبه أمنية التشبّح، يعني أن تكون شبحا لايراك الجميع، سعادة حين تحيا وتموت ولايعرفك أحد كالطيور.

الجلوس في المقهى أفضل مافعلت طوال هذا اليوم الأكَشر، جلست بعد مشوار الرعب الأسود برغم أن المقهى يفور من الحر وأنا أشرب الشاي لأقنع نفسي بضرورة تعادل درجة الحرارة في الخارج مع درجة حرارتي في الداخل، توازن غضب. كما رأيت رواد المقهى لا تنز منهم قطرة عرق واحدة، عجيب كيف يتكيفون بداخل منقلة الواقع حتى الجحيم صار عندهم أمر واقع لا فائدة من التمرد عليه والشكوى منه، وها أنا أسمع أحدهم وهو شاعر مغمور لعب في كلمات المثل الصيني وهو يضحك ويقول: بدل أن تلعن الجحيم أشعل سيجارة.

كنت أعرف الكثير من الكتاب والصحفيين والأدباء والمثقفين من خلال الصحف والمواقع الألكترونية ثم الفيسبوك، أنا أعرفهم عن كثب وهم لا يعرفونني لا من قريب ولا من بعيد، وأسأل نفسي دائما ذات السؤال الأسود الزيتوني الذي يبقى شاخا برأسي دون جواد حتى صار مفارقة بعد ما بعد الحداثة وأبقى لحد اليوم أسأل:

أليس عجيبا أنّ أغلب المثقفين والكتاب والصحفيين كانوا مع سلطة نغولة العقيدة ضد الضحايا، وبعد سقوطهم بالألفين وثلاثة توزعوا على الصحف والجرايد الجديدة حتى انتهوا اليوم بوقوف أغلبهم ضد الضحايا الجدد ومع الجلاد القديم وجماعات الثقوب السود.

مكتبة الفكر الجديد

مع كل رشفة شاي تلتقط أذني مفردات فاقعة عن علامات الساعة وأنصاف جمل وقطوف عبارات كلها تندرج في خانة يوم القيامة واقتراب العقاب وإعلان لحظة الحساب، حتى أنّ كاتب قصة قصيرة جدا جدا جدا نهض من رقدته السرمدية بشعره الرمادي الكثيف وقامته القصيرة مثل قصصه وراح يقول وقد بانت أسنانه المثلمة: ربما القيامة غدا.. لا يستبعد أحد انقلاب الدنيا ونحن رأينا كل شيء في هذا الزمان...

دوّى انفجار قريب وقدرته من شدة الصوت أنه في منطقة (الصدرية). رفع الجميع رؤوسهم لحظة الانفجار ثم عادوا مواصلة الحديث والحوار وكأن شيئا لم يكن حتى أن القاص لاذ بالصمت وعاد إلى سرمديته. أنا على يقين بأن المراهقين الثلاثة وامرأة الزند ذهبوا فورا إلى موقع الانفجار قبل الشرطة وقوات الأمن وسيارات الإسعاف والإطفاء. لصوص الجثث دائما يسبقون الجميع لإفراغ جيوب القتلى والجرحى وانتزاع الخواتم والساعات والقلائد والأساور وأسنان الذهب إن وجدت بفم رأس مقطوع. ثم يأتي بعض من أفلتوا من الانمساخ وبقي ضميرهم يعاند المخدرات، بعض من بقي لديه طاقة حب في قلبه ولم ينمسخ مع الجميع ويصير مواطنا مشلول الضمير أعمى القلب، هؤلاء يرمون أنفسهم وسط النار والدخان والدم بحثا عن الأحياء وإنقاذ الجرحى، لكنهم يختلطون مع لصوص الجثث الذين يوهمون الناس بأنهم لا يسرقون الأشلاء والجرحى بل ينقذون من بقي حيا ويعزلون الميت كما يضعون الأشلاء في كوم تأتي بعدها عربات وطشوت تحملها خارج الدخان والحرائق. وأنا لا أعرف نفسي حتى هذه اللحظة: هل مع الكثرة الممسوخين الذين انشلت ضمائرهم بسكتة دماغ الواقع وعميت قلوبهم من كثرة رؤية الجثث والأشلاء والدم، أم أنا

مكتبة الفكر الجديد

من القلة النادرة جدا ممن يسبح عكس تيار مخدارت الواقع، ويحفظ قلبه بمتاريس الحب؟

انتبهت إلى بعض المثقفين الذين يجلسون على حافة العالم عند طرف القنفة في أقصى زاوية الحايط. لاحظتهم متباعدين كأنهم متخاصمون مع الدنيا الجحود التي لا تعرف خطر شأنهم ولا تقدر وزن وجودهم في الحياة. رأيت كل واحد منهم ينعزل ويغرق في صومعة نفسه لا يشاركون البقية المنتشين بحفلة يوم القيامة وحوارات اقتراب الساعة والحساب، ربما المثقفون الصومعية يفكرون بمقاضاة الله واتهامه بتدمير الكون وقتل الحياة لو حل فعلا يوم القيامة، ولكن من سيكون القاضي الذي يُحاكم الله، إبليس؟

قطع تفكيري صاحب مقهى (قبو البصل) وقطع حبال الحوار والتأمل للزبائن وهو يقول بصوت مخنوق وملامح مخطوفة: فجر اليوم داهمتني رؤيا أحدثت عندي زلزالا عقليا وانعطافة في وعي الثقافة وفي ثقافة الوعي، ولأول مرة تفتحت عيوني بعد غشاوة عمر طويل بأثر هذه الرؤيا: جاء من أقصى الصحراء ساحر كثعبان يسعى،يحمل بيده قارورة مملوءة بمسحوق جنون القيامة، توجه إلى منابع دجلة والفرات ورش المسحوق، ثم تسلل إلى معامل تصفية الماء ورش مسحوق جنون القيامة. كذلك رش المسحوق في جميع بلدان الشرق الأوسط، رشها في منابع الأنهار والجداول والسواقي وأحواض تصفية الماء في بلدان الدول العربية والإسلامية بحيث أفرغ قارورة مسحوق جنون القيامة في أفغانستان وباكستان وإيران، وفي تونس والجزائر. والآن بدأ مفعوله عندنا هنا، لذلك سيكون اسم المقهى (القيامة الآن) بدل (قبو البصل).

مكتبة الفكر الجديد

صفق بعض الزبائن وضجت المقهى بالجدل والنقاش حتى بين المثقفين الصومعية، وأنا دمرتني رائحة الدخان واهتاج دمي وفمي ويدي إلى السيجارة التي أحتاجها الآن أكثر من جنة الدنيا والآخرة، لكني عاندت نفسي ولا أريد أن أفرط بشهر من ترك التدخين والعودة صاغرا ذليلا أسجد للسيجارة.

اختنقت من الحر ودخان الناركيلة والسجائر ودخان يوم القيامة. خرجت من المقهى ودخلت السوق الذي مايزال عامرا بكل ما لذ وطاب من خضار وفواكه الدنيا والآخرة، الباعة يصيحون بأعلى أصواتهم وبذات الوتيرة عن الزاد الأرضي والزاد الغيبي حتى إنّي هززت رأسي أسفا من هذا الخلط حين أجد القيامة جنب سمك البني الذي يلبط مذبوحا من شدة الاختناق فالماء قليل والهواء نادر، خطية السمك يذهب قبلنا للجحيم حين يشوى بالنار ويأكلوه أهل الجنة. كما وجدت يوم الحساب مع الطرشي،والبرزخ مع اللبن والجبن. هكذا توحي الصيحات ومنادات الباعة على بضاعتهم المرئية وغير المرئية.

وما أدهشني ونفرزني عدم دعشة الناس من صيحات الباعة،وعدم استغرابهم وكأنهم يسمعون نداءات القيامة والحساب منذ بدء الخليقة،ربما العيب بي والخطأ عندي فأنا الوحيد الذي يستغرب من عدم استغرابهم،هل أنا الوحيد الناجي من وباء جنون القيامة،وكيف نجوت وأنا مثلهم أشرب الماء حسب رؤيا صاحب مقهى(قبو البصل)؟

خرجت من سوق باب المعظم وأنا أعط بعطر يوم القيامة وبدخان جحيم الحساب. اكتشفت اليوم وانا بين الناس: أني النشاز الوحيد في المقهى وفي السوق وربما في الشارع وفي مدينتي الحسينية وفي بغداد والبلاد

مكتبة الفكر الجديد

والعالم. اكتشفت أن أفدح المخاطر هو خطر التكيف: التكيف مع الخطأ داخل العائلة، والتكيف مع مجتمع همجي،والتكيف مع كوارث الواقع من سيارات مفخخة وعبوات ناسفة،التكيف مع القتل مع النزيف اليومي والتكيف مع فساد السياسين ورجال الدين وفساد الناس. التكيف هو الوباء والمرض،هو العيش بداخل جثة. ان تعريف معنى المسخ هو التكيف.

سمعت وراثي ضجة صراخ وعويل يشق السماء، التفت فرأيت امرأة كبيرة ترتدي السواد وسط الوحل تثغب ويتحلق عليها الناس. اقتربت أدس نفسي بين الاجساد والصخب والضجيج، أسمع نثار جمل وعبارات وكلمات تخترق رأسي من أذن لأذن، ولما حاولت جمعها ولصقها من بعضها البعض انهارت المعاني كلها، ثم رأيت(راهي) أحد الموظفين الممثلين في مسرحية(حليب أسود) وكان يعرف تلك المرأة المنكوبة اليقطر منها الوحل فهو يشتري منها الخضار كل يوم.أخذني بعيدا عن النواح ولغط الناس وهو يسرد لي قصتها: هي بائعة خضار أرملة، قتل زوجها في الحرب العراقية الايرانية واستحوذ أهل الزوج على منحة (الشهيد) وعلى قطعة الارض والسيارة، ثمن الموت في جبهات القتال. بقيت الارملة تعيل اولادها الصغار منذ الحرب وحتى هذه اللحظة. صباح اليوم جاءها شاب في جبينه ثقب أسود يحمل علبة كارتون وقال لها:

أوصاني ابنك (جعفر) أن أوصل هذه العلبة لك ولما يعزل السوق يأتي ويأخذها.

عندما خف زحام الناس المتسوقين وقعت عيون الأم الأرملة على العلبة الكارتونية وساقها الفضول إلى فتحها وترى ما تحتوي، ترددت في

مكتبة الفكر الجديد

فتحها فقد يؤنبها ابناها (جعفر) الذي يبيع الشاي قرب كلية الآداب في باب المعظم. الآن فتحت العلبة غير مكترثة لتأنيب ابنها.نشغت وانقطع نفسها وتجمدت عيناها وهي ترى رأس (جعفر) في علبة الكارتون ينظر إليها بعينين دامعتين يواسيها ويعتذر منها ويعزيها..

انتقل (راهي) مباشرة وبدون وقفة صمت من الأرملة المفجوعة إلى عدم حضوري اليوم (بروفة) مسرحية (حليب أسود)، وقال إن المخرج (بلاسم) لم يحضر أيضا وألغيت التمارين وخرجنا من دائرة النشاط المدرسي. ثم راح يثرثر بكلام لم أسمع منه أي شيء فقد غبت عنه وعن باب المعظم والعالم وأنا أتخيل الأم المنكوبة لحظة فتح العلبة وكيف أطل عليها رأس ابنها المذبوح، تذكرت وجوها كثيرة ابتلعتها الانفجارات وفوهات الكواتم وصناديق سيارات الخطف. اختلطت عليّ الوجوه التي راحت تتداخل في شريط فيلم حياتنا الدموي مفتوح النهاية إلى الأبد. صحوت على صوت سائقي السيارات وهم ينادون (حسينية..حسينية) حيث وجدت نفسي قرب سيارات الكيا خط (الحسينية) ولم أجد (راهي) الذي غادرني لا أعرف متى وكيف، استغل صفنتي وغيابي عما حولي وانسل في الزحام ربما صعد في سيارات (الحسينية) إلى بيته فهو الآخر من مدينتي قرب السوق (الزغير). وأنا لا ألومه ولا أعتب عليه بتركي وحيدا في لجة المأساة، لديه أسباب كثيرة للنفور من صحبتي لأني دائما لا أسكت في السيارة إذا سمعت أحد ركاب سيارة الكوستر والكيا يسب ويفشر على الحكام الذي جاؤوا بعد الألفين وثلاثة.. أتمالخ بالنقاش ضد من يمدح نغولة العقيدة وضد من يمدح جماعات الثقوب السود، أنا ضد النظام السابق وضد النظام اللاحق، دائما أقول لهم: الخرا أخو البول. أو أخرس

مكتبة الفكر الجديد

من يمدح ومن يذم بالقول: حطموا تمثال قائد نغولة العقيدة وتشظى إلى قطع دكتاتوريات صغيرة هي التي تحكمنا الآن.

أدخل في وطيس النقاش ومعمعة الجدل في سيارة (الكوستر) أو (الكيا) أو في المقاهي وإذا كان (راهي) معي فهو يقرص بزندي أو بفخذي حتى أسكت، ثم يهمس لي إذا لم أسكت فسوف ينزل. المسكين يخاف لئلا يطلع هؤلاء من الذباحة أو الصكاكة وأكون مثل الذي يتناقش مع سيف أو مسدس. (راهي) يعترف صراحة بأنه جبان وخواف ويقول لي: عائلتي يأكلون فلافل وأنا حي ماذا سيأكلون إذا مت؟ ويردد المثل الغاشم: يمعود أدفعهه بكَصبه. ثم يقول: أنت ما وراءك فقط المصايب، أما الرؤساء وأصحاب النفوذ والأقوياء فوراءهم الحبايب.ثم يواصل قوله: أنا لا صديق لي غير نفسي ولا أطمح أن أصير قواد ضمائر وأفتح ملهى للعقول والقلوب، أنا أستخدم كل مواهبي وطاقتي حتى أبقى حيا أتنفس.. وليخسأ الخاسؤون كما يقول السيد الفطيس حفظه الله ورعاه.

مكتبة الفكر الجديد

قناص الفرقان

الحياة عندنا لا تسير إلا بوقود الدم. وها أنا أصعد في سيارة (الكيا) إلى مدينتي (الحسينية)،استطلعت وجوه الركاب لئلا يكون المراهقون الثلاثة بينهم فربما يسرقون الأحياء إذا لم يعثروا على جثث، ولكن هيهات انقطاع تدفق الجثث خاصة وأن الناس يؤكدون أنهم شاهدوا عزرائيل عينا بعين تحت عمارة الرصافي يشتري حذاء جلد أسود بدون قيطان وأخذوا رقم هاتفه الموبايل كي يتصلوا به لمعرفة مواعيد انفجار السيارات المفخخة والعبوات الناسفة. سمعت أحد الركاب خلفي يقول: الله.. ما أجمل يوم قيامة.. الكل سواسية ينتظرون مصيرهم.

أعتقد أن حركة السير البطيئة والقاتلة مع اشتداد الحر والدخان هي التي دفعت هذا الراكب للتغزل بيوم القيامة، كما أجزم أن أغلب الناس يتمنّون الآن قيام الساعة لشدة الرعب من السيارات المفخخة التي ستنفجر أمامنا أو خلفنا أو أن السائق انتحاري يقودنا إلى الحتف الموعود، أو أن عبوة ناسفة مزروعة هناك وسط الشارع تنتظر مرورنا فوقها لتنفجر ونتحول إلى أشلاء أو جثث في ثلاجات الطب العدلي، أو تنبع سيطرة

مكتبة الفكر الجديد

وهمية وتعترض السيارات ليقتادوا الناس حسب مزاجهم الطائفي. هنا، لا تمر ساعة بلا قتل أو دم.

الزمن يمشي ونحن واقفون طامسون في اختناقات تقاطع شارع المغرب، حيث تداخل السيارات مع بعضها البعض شيء لا يُصدق ومستحيل أن يحدث مرة أخرى لو تم إعادة ترتيبه، مثل النهر الذي يستحيل السباحة فيه مرتين، وكذلك نهر الزمن. الساعة الثالثة ظهرا يبدأ الناس الهروب لبيوتهم ولا يخلصون من قذائف الهاون ومن القناصين ومن الغزوات الليلية لجماعات الثقوب السود. الحياة عندنا تسير بوقود الدم.

بالكاد وصلنا جسر (صليخ) الغاص والمختنق بمئات السيارات الواقفة أو التي تتحرك شبر واحد وتقف، والدخان يسخم وجوهنا ويسمم ما تبقى من نسمة هواء. الجسر يهوع لكنه لا يتقيأ سيارة واحدة تنطلق للبيت. رأيت ثلاثة شرطة مرور يركضون هنا وهناك، عند منتصف الجسر بقمصانهم البيض المسودة من فسو السيارات. المساكين واحد يركض ويقف أمام سيارة بيضاء دفع رباعي، يتوسل بسائقها أن لا يتحرك لكي يحاول الشرطي الآخر زحزحة سيارة أخرى ليفك طوق الاختناق. بينما الشرطي الثالث رافعا كلتا يديه أمام حشد يجعر ويزأر محاولا الانطلاق فورما تحين أي فرصة. يركضون إلى هذا السائق وذاك، لكن الاستهتار سيد الأخلاق هنا، وهو الرد المتغطرس والساخط على هؤلاء شرطة المرور. طبعا لا يوجد شجاع مستهتر ومع ذلك يبقى الاستهتار الجبان سمة حياتنا اليومية حيث دائما القوي المسلح يفترس الضعيف الأعزل. فجأة سقط شرطي مرور يقف أمام سيارتنا، سقط على وجهه، فحسبت أول الأمر أنها حالة إغماء من الإجهاد والإرهاق وتنفس الدخان السام، ثم رأينا

مكتبة الفكر الجديد

الدم ينز من صدغه. رأيت بعض الناس الواقفين فوق جسر (صليخ) ركضوا واختبؤوا خلف السيارات وهم يشيرون بسباباتهم صوب جامع (الفرقان). يبدو أن الناس يعرفون جهة إطلاق النار من تكرار حوادث القتل في هذا المكان، سمعت أحد الواقفين خلف سيارتنا يصيح ويشير إلى حشفة منارة جامع الفرقان حيث القناص، بعدها رأيت الكثير من الناس يصرخون ويومئون بدون سابق اتفاق إلى جهة قناص الفرقان.

اكتشفت بعدها أن الجميع يعرف صيت وشهرة مكان القناص في منطقة (الصليخ) الذي اتخذ من حشفة منارة جامع الفرقان مرصدا ستراتيجيا لقنص الناس حسب بوصلة مزاجه العقائدي ونزقه الجهادي كواحد من جماعات الثقوب السود؛ إذ لا يمر يوم بدون ضحية لشخص مستطرق ساهي لا يعرف ولم يسمع بقناص الفرقان الذي كان يترصده ليفتح رأسه وقلبه حتى يسبر دينه وطائفته، بعدها يضغط على الزناد كي تتناثر عقيدة الضحية في الهواء مع الدم وبقايا الدماغ، عندها يقول القناص لنفسه: الله أكبر.. هذا عدو مرشح آخر سقط.

صار عندنا بديهيا: أن أكثر الأماكن إثارة للرعب والهلع هي الجوامع، فيها يتم تصنيع العبوات الناسفة وتفخيخ السيارات، وخلف المحراب والمنبر السجن وغرف التعذيب تتوسطها باحة واسعة للذبح يتم فيها تصوير عملية الذبح بعد قراءة آيات من القرآن وبيان المجاهدين.

بقي الشرطي نائما والدم يتراكض هاربا إلى جهة مجهولة، كذلك هرب زميلاه الشرطيان الآخران لئلا يفر الدم من الجسد، وهرب الناس المشاة الذين نزلوا من السيارات الواقفة،الذين فضلوا الذهاب مشيا إلى بيوتهم. لم ألاحظ لصوص الجثث يتكومون فوق شرطي المرور الميت ليسرقوا مسدسه

مكتبة الفكر الجديد

ومحفظته وساعته وخاتمه وما تيسر من حاجات في جيوبه. تقدم أربعة من ركاب سيارة واقفة ورفعوا الجثة إلى الرصيف ثم رجعوا إلى سياراتهم لأن بقية السيارات الجاثمة بلا حراك، التي يغص بها جسر (الصليخ) تفرقت إلى جميع الجهات بدون تفكير بعد سقوط شرطي المرور برصاصة قناص الفرقان، وكانت سيارتنا ضمن هذا الهيجان فعبرت الجسر إلى شارع (أبي طالب) حيث منطقة حي أور ومدينة الشعب. شعرت أن السير هنا أقل اختناقا حتى أننا تجاوزنا سيطرة الشعب الرئيسية بدون خسائر في الأرواح والمعدات، طبعا عدا الخسائر النفسية التي صارت عندنا من ترف الكماليات فأين ما تقع نظرات العين ثمة مشكلة ومصدر للعذاب، وهنا خجلت من ذكر كلمة (عذاب) لأننا تجاوزنا العذاب وعبرناه إلى شيء أكبر وأعمق منذ عشرات السنين، لذلك ما عادت اللغة تنفع لوصف حياتنا،لا تستطيع اللغة اللحاق بمصائبنا وكوارثنا وتطورات شقائنا التي راحت تتسابق مع سرعة الضوء.

بقيت اللغة هامدة عاجزة، قاصرة وقديمة، مستحيل أن ترتقي وتصف عتبات بؤسنا.

عندما وصلنا منطقة (بوب الشام) رأينا السيارات تنزل إلى الطرق الترابية، ولما اقتربنا رأينا أثار عبوة ناسفة مفجورة والشارع محفور وشظايا متناثرة فوق التبليط وعلى جانبي الطريق. لم نشاهد بقايا لحم وعظام وآثار دم ورماد سيارة، يبدو أنها انفجرت بدون خسائر بشرية. ياربي رحت أصدق خرافات الشارع التي صنعتها أهوال الصدمات اليومية، حتى استحوذت علي أساطير الفزع وروايات الهلع، الهي استحوذت علي

مكتبة الفكر الجديد

الهواجس الملعونة والتوجس من وقوع كارثة نوعية لا تشبه جميع كوارثنا الأليفة التي مررنا بها وصارت تأكل وتشرب معنا، هل فعلا رحت أصدق أن غدا سيكون يوم القيامة؟

انتبهت بعد عبورنا (بوب الشام) إلى صوت مسجل السيارة، هل أن السائق رفع الصوت وانقض على أذني أم نام الركاب وساد هدوء وسكون فعلا صوت المسجل؟ سمعت سفر الجحيم والسياحة بين طبقات جهنم، حيث القبح سيد الوصف والبشاعة هي الدليل السياحي لمعالم وآثار عذابات الجحيم: سيخ يدخل في فروج النساء، وحيات وأفاع سود تتجول داخلة من الفم وخارجة من الدبر، وهناك قدور عملاقة نسميها (قزان) تغلي وتفور فلهيب البخار وحده يسلخ الجلد، والملائكة الغلاظ يلقون بالناس الخطاة داخل هذه (القزانات)، وتسمع صريخ يشق طبقات السماء.

كم هو مُخزٍ أن يتغنى الناس ويطربون إلى نغمات سعير النار ويترنمون بفحيح الأفاعي وصيء العقارب ودبيب أم أربعة وأربعين وهي تخرج من الأذن اليسرى لتدخل العين اليمنى ثم تنسل إلى فتحة الأنف لتخرج من الأذن اليمنى. وترى كيف يتساقط اللحم عن العظم لأجساد الناس العراة داخل القدور الكبيرة وهول الصراخ والأنين يصكّ أذن الكون.

وقبل وصول سيارة (الكيا) إلى مدخل مدينة (الحسينية) نظرت للركاب النائمين فرأيت آلاف الحشرات تسفو من أجسادهم والعقارب تدخل من ثقب إلى ثقب، والأفاعي تسرح وتمرح ما بين فم ودبر وفرج. كدت أصرخ لولا صيحة أحد الركاب:

نازل عيني نازل.

توقفت سيارة (الكيا) ونزل رجل مسن من الخانة الأخيرة، هنا عدت

مكتبة الفكر الجديد

إلى الحياة الواقعية رجعت من يوم القيامة الذي سيحل غدا أو بعد غد حسب آخر الإشاعات والأقاويل وما يتداوله الناس من أخبار الآخرة. صارت أخبار القيامة تذيعها نشرات الأنباء في الإذاعات والقنوات الفضائية، لقد اختلطت والتحمت أخبار الدنيا والآخرة فلا نستطيع التمييز وفصل مصدر الخبر.

نزلت في تقاطع (مطعم الأمير) ورأيت الناس يتراكضون سريعا صوب بيوتهم، ربما ليودع بعضهم البعض الوداع الأخير لأن يوم القيامة اقترب ودنا وصار أقرب من حبل الوريد حسب آخر نشرة أخبار. صعدت سيارة الجيب (الواز) إلى منطقة الجريخي وهنا قال السائق:

أخوان تره الكروه (٥٠٠) والي ما يعجبه ينزل.

بدون مقدمات ولا سابق إعصار رفع هذا السائق الأجرة إلى الضعف ولم ينطق أي من الركاب معترضا على زيادة الأجرة، ربما مشغولون بدنو يوم القيامة الصاعق الذي لا ريب فيه. سألت السائق عن سبب مضاعفة الأجرة، ولماذا؟ فقال جملة كأنه يعفط لا ينطق، زرقني بعفطة طويلة تحمل بين طياتها سخرية لاذعة:

ما نفع النقود بيوم القيامة؟

سمعت بعض الركاب استحسن الجواب لكني أدخلت السائق في خانة الحلال والحرام وبينت له كيف يستغل الناس الفقراء ويرهق كاهلهم خاصة أن أبناءهم التلاميذ الصغار لايملكون (١٠٠٠) دينار ذهابا وإيابا. ردّ عليّ السائق بسلسلة عفاط طويل: تصليح العطلات للسيارة من الشوارع الخربة ومن كثرة الحفر والمطبات خاصة بعدما سرقوا الشوارع فجر اليوم.

مكتبة الفكر الجديد

المفارقة السوداء المسخمة: رأيت انقلاب الركاب ضدي واصطفافهم مع السائق، عجبهم منطق السائق رغم أني أدافع عنهم. هو يسرقهم وأنا وقفت بوجهه. عندها سكت ولم أنطق بحرف واحد وأنا أستقبل صابرا هجوم الركاب الكاسح، كل واحد منهم نفث عليّ سمّ الضحية بلسان مشطور.

هنا أيقنت بأن الناس يناضلون ضد أنفسهم ويساعدون الجلاد على افتراسهم ويقتلون كل من يدافع عنهم. صورة الجلاد في عقولهم مقدسة.

نزلت أمام جامع النبي أيوب أتعثر بحجارة وحفر وطين الشارع المسروق وأنا أعبر إلى مدرسة (الزعيم) حيث البيت. صادفت (زناد) جاري المتقاعد الذي يبث شكواه كلما رآني عن ضحالة الراتب التقاعدي، له خمسة أولاد كبار عاطلون يعربدون بمشاكل لا تنفض ولا تنتهي إلا بتدخل شرطة الملائكة والجن، والمسكين أبوهم (زناد) يتوسل بالجيران وبالناس المستطرقين أن يتدخلوا حتى لا يتطور الشجار بالأيدي إلى بنادق كلاشنكوف. رأيت (زناد) يحمل لفة أسلاك كهرباء حمراء اللون،وهو يسب ويشتم السارق الذي قطع أسلاك السحب من المولدة الأهلية وبقوا بدون كهرباء. ثم راح يحذرني من سرقة أسلاك السحب لبيتي، وهو يزبد ويرعد ويتوعد بأنه سوف يمسك حرامي الأسلاك.

فتحت باب البيت فوجدته فارغا موحشا لا حس ولا نفس. الكهرباء موجودة، يعني فات اللص أن يسرق أسلاك المولدة، ربما كان مستعجلا لئلا يحظى به أحد ويراه لذلك قطع الأسلاك القريبة من يده وترك البقية ليوم آخر.

فوجئت بغياب (حوراء) زوجتي وانفتحت شبابيك رأسي لكل أنواع الوساوس، هاجت طيور الهواجس والمخاوف وتشظت بالفضاء تطير

مكتبة الفكر الجديد

مشتتة مذعورة إلى جميع الاتجاهات. لكن بوصلة العطش قادتني نحو الثلاجة لشرب الماء، هنا لمحت ورقة ملصقة على باب الثلاجة. انخمش قلبي وزاغت عيناي بالكاد استقرت نظراتي وأعلنت النفير العام لقوات جسدي حتى أتمكن من قراءة رسالة زوجتي:

حبيبي (برعم)، لا يذهب تفكيرك بعيدا وأنت تقرأ رسالتي، لكني مصرة على حمايتك، أريد حمايتك حتى من نفسك، (برعم) أنا معك في كل يوم، معك في أيام المحنة وأيام الجوع والقهر والبطش، وسأبقى معك، وأنا اليوم معك يا حبيبي (برعم) إذا تركت البيت ونجوت بنفسك من جماعات الثقوب السود. أريدك أن تغادر البيت وتترك خلفك الرعب والتهديد والقتل هناك، وتأتي معي للبحث من مكان جديد أكثر أمانا. كنت معك، وغدا أكون ضدك إذا بقيت في البيت، وعاندت وركبت رأسك، حبيبي (برعم) ما فائدة البيت بدونك. زوجتك وحبيبتك حوراء.

رسالة زوجتي قصيرة واضحة وهي تدعوني إليها بعيدا عن التهديد بالقتل، المسكينة تخاف على نفسها بخوفها عليّ، هي لا تريد الانضمام إلى قافلة الأرامل، خمسة ملايين أرملة إرث نظام نغولة العقيدة، لا تريد الالتحاق بقافلة الأرامل التي راحت تنافس قافلة العوانس بعد ثلاث حروب طاحنة: الحرب العراقية الإيرانية، حرب غزو الكويت، وحرب سقوط نغولة العقيدة. والآن دخلنا الحرب الرابعة: حرب جماعات الثقوب السود بقيادة القاعدة وأخواتها السود التي تذبح الأول وتحرق الثاني. بعد السقوط تعاظمت هجرة المجاهدين من الذباحة والانتحاريين إلى بلادنا، إذ لم ينقطع نزيف الدم اليومي بانفجارات السيارات المفخخة والعبوات الناسفة وقذائف الهاون والقناصة والكواتم وغزوات الليالي

مكتبة الفكر الجديد

عندما نستقبل الصباح بجثث مثقوبة الرأس والصدر. هذه هي مفردات حياتنا اليومية طوال هذه السنوات، هذا هو (سيفي) القدر، ولا ندري ما تخبئه حيتان الأيام القادمة.

تضخمت قافلة العوانس وكبرت من شدة النقص الهائل للشباب، هم الآن (لازمين سره) يقفون في طابور المقتولين الذين لم تحن ساعة موتهم بعد. واقفين في صف الضحايا لأن دورهم سيأتي طال أم قصر الوقت، هم يمسكون حبل الموت الطويل كل واحد منهم ينتظر منيته الآتية حتما فالقتل على الجرار.

هكذا قرأت رسالة (حوراء) زوجتي برغم قصرها ووضوحها، هي تسرد محنة بلاد في سطور قليلة، قرأت رسالتها فوجدتها هي الأخرى رسالة تهديد، تشبه تلك الورقة في المظروف الأزرق الذي يحمل خرطوشة.

تذكرت الآن صياح ذاك المخبول صباح اليوم:

ـ قامت القيامة.. انقلبت الدنيا... حل يوم الحشر.

هل يقود هذا المجنون الخبل مركبة القدر، هل تنبأ وعرف قبل الجميع متى ينشب يوم القيامة؟

سمعت طرقا عنيفا ولحوحا على الباب، أدركت فورا أنهم جماعة رسالة التهديد، جماعة الثقب الأسود وهم يؤدون واجبهم المقدس بتنظيف البلاد من الأبرياء، ها هم جاؤوا مستعجلين بمجرد انطفاء النهار وانتشار الظلام، تناولت العوائل طعام العشاء مع مقبلات الرعب والقلق.

جهز نفسك يا (برعم) للقتل، ألبس أجمل ثيابك ومشط شعرك وتعطر، استقبل الموت بأناقة وشكل جميل. جهز نفسك للقتل هناك، لا.. لا ليس بعيدا، ساحة (الطوبى) تبعد عن بيتك خطوات، سوف يسمع العالم كله

مكتبة الفكر الجديد

رصاصتين وتضج السماء بالصريخ والأرض بالعويل والنحيب، عويل يصم الأذن: انهارت ركائز الكون، قتلوا (برعم)، انقلبت الدنيا وانهد العالم، يا ناس قتلوا (برعم)...

طبعا، لا يحدث أي شيء عند قتلي، لا تهتز شعرة من مؤخرة الدنيا ولا يخسر العالم رمشة عين أو نشغى ألم وحسرة، كل شيء يسير مثلما كان، لا يسأل عني أحد ولا يطالب بدمي ماحود، سوف أكون مجرد ضرطة دم في ساحة (الطوبى). ولكن هل أتركهم يجرونني كالخروف، يذبحونني وهم يتضاحكون.انتبهت لعدم سماعي صوت سيارة فهم لا يستطيعون الجهاد بدون سيارة، يبقى محرك السيارة شغالا يجعر حتى يسلفنون ضحيتهم، يقيدون اليدين والقدمين، وكيس الرأس. مجاهدو الثقوب السود لا يمشون أبدا على قدميهم، لا يجيدون القتل بلا سيارات، لكني قريب من ساحة (الطوبى) فلا داعي للسيارة.

صعدت فوق السطح حتى أرى وجوه القتلة، خسارة أموت ولا أطبع في حدقتي ملامح القاتل. نظرت من سياج السطح من خلال أغصان السيسبان والسدرة، أرى من وراء الباب ولا يراني أحد، نظرت مقطوع الأنفاس مفروث القلب: أيباخ... هذا (دخان) صديقي، صديقي...

فتحت له الباب وطعنني بقوله:

ـ القيامة قامت وأنت نايم؟

قلت له فورا:

ـ حتى أنت يا بروتس؟

منذ الصباح إلى هذه اللحظة وطعنات القيامة ملأت جسدي، وها أنت تجهز عليّ بطعنة أخيرة يا بروتس القيامة.

مكتبة الفكر الجديد

هندي الحلاق

اني ميت.. ميت. من أين أفلت والسماء تمطر عليّ رصاص كواتم بلا وميض ولا رعد، وليس عندي مظلة مدرعة ضد الرصاص، وتتفجر تحتي الأرض بالمفخخات وألغام رسائل التهديد حتى صرت عظيم المهارة في مراوغة الثقوب السود التي تشفط وتسرط كواكب خرجت من مدارات العقائد. وها أنا أعانق الليل الذي فارقناه منذ زمن طويل، لمست فروه الأسود الناعم وأنا أقفل باب البيت بسلسلة، مشيت مع (دخان) للتخلص من جو البيت الملبد بغيوم التهديد، أحاول الابتعاد من الجو الخانق بالمشي مع(دخان) تحت قمر كبير ساطع حتى شعرت أن فرو الليل الأسود قد ابيض بأشعة البدر. تخيلت أني سمعت صوت الضوء القمري من خلال السكون المخيم على منطقة (الجريحي)، الشوارع تصوصي مع ساحتها لا أسمع إلا نباح متقطع لكلاب بعيدة، وصليات رصاص تخردل الصمت وتزين أفق المدينة.

تعود الناس على معزوفات الرصاص وإذا مرت ليلة بدون رصاص لا ينام أحد خوفا من كارثة أكبر من التي نرفل فيها، لذا صارت أصوات الرصاص ترنيمة يغفو الجميع على إيقاعها وينامون.

مكتبة الفكر الجديد

نظرت حولي خشية كلب مسعور أو ذئب تائه برغم أنها خشية مستبعدة لكن خيالنا في تصوير الرعب جامح بلا حدود ولا سدود، عندنا قدرة فائقة الإيحاء تقلب البرميل وكومة زبل إلى وحش يتربص. وصلنا ركن الشارع حيث بيت (أبو حسين) الذي تمتد أمامه ساحة (الطوبى) واسعة شاسعة لا يجرؤ البطل الصنديد أن يقطعها ليلا فهي تنبت بأشباح المقتولين غدرا من بين التراب، وانزلق سؤال مثل قطرة دم فوق عقلي: هل تموت روح الجسد فلا تنهض وتأخذ الثأر من القتلة، لا..لا.. لابد ان تنبت أشباح المقتولين غدرا من الترب، معقولة بكل هذه البساطة ينزف الدم ويسيح ويدخل بين طيات التراب ويندثر وكأنه غير موجود ولا جريمة هنا وقعت، معقول؟

ثم نط سؤال جديد وأنا أبحلق في ظلام أبيض: هل القتلة في الليل ملثمون كما في النهار؟

جفل (دخان) وابتعد عني قليلا، اصطك وابتلع لسانه وانقطعت أنفاسه وهو يشير إلى مكان قرب عارضة الحديد (الكول) مكان الهدف لكرة القدم.نظرت للمكان وفزعت، اجتاحتني قشعريرة ورجفة بحيث انكمشت فروة رأسي ونز عرق بارد من قذالي، شعرت بشلال موت بارد ينهمر فوق عمودي الفقري، ولم أستطع بلع ريقي، رأيت كيس طحين أبيض يحوص ويصدر منه أنين مكتوم يثقب الأذن ويطيش اللب. تحفز (دخان) للهرب وراح يبتعد عني يلوذ بأقرب جدار. نحن الاثنان نحدق مصدومين بهذا المنظر الخارق الذي يعبر مستوى العيون والعقول: كيس أبيض يشبه بيضة كبيرة بداخلها كائن محبوس يتملص للخروج لكن لا يعرف كيف ومن أين؟

لو كانت قطط لسمعنا المواء، وكذلك نسمع النباح لو كانت جراء، أي

مكتبة الفكر الجديد

كائن غامض لا يطلق سوى أنين مكتوم يشق الليل، يرفس ببطء وتعب ويحوص للخروج من البيضة؟

صديقي (دخان) ملدوغ مرات ومرات من أفاعي الأقدار وعقارب المصادفات، لذلك تحزم للهرب والإفلات قبل وقوع الفأس بالرأس، أما أنا فقلت مع نفسي: اني ميت.. ميت. ودنوت من (دخان) أشجعه وأشجع نفسي:

ـ يمعود، والله عيب ننهزم، احنا زلم لو زعاطيط.. تعال.. تعال نشوف شنو القضية؟ تعال نصنع قدرنا.. يمعود تره القدر اختارنا من دون كل البشر.. ثم إحنا ميتين ميتين إذا مو اليوم باچر.. يله اخوي دخان خلي نتقرب من الكيس ونشوف سر القمر شنو؟

رد عليّ (دخان) بصوت راجف متقطع:

ـ انت روح اصنع قدرك وآني خليني اهنا منجب ابمكاني.

أقنعته بعد عذاب وجر وعر وتهديد حين أرعبته: قد يرانا واحد من جماعات الثقوب السود ويظن أننا سكارى شاربين خمر ويقتلنا هنا فورا بساحة الإعدامات هذي، ثم سحبت (دخان) واقتربنا من الكيس الأبيض المتموج بحركة وئيدة يائسة، ونسمع من جوفه الأنين الواهن فلولا السكون والصمت المخيم على منطقة(الجريخي) هيهات ان نسمع، ولولا القمر الساكب ضوءا فوق الكيس هيهات أن نرى. وهنا سمعت (دخان) يقتحم قلعة الرعب ويقول:

ـ هي موتة لو موتين؟

وتقدم ورائي صوب الكيس يحثني ويقوي عقدة حبل الإرادة، حالما اقتربنا دبت حركة سريعة للخروج من البيضة، وارتفع صوت الأنين. رأينا فتحة الكيس مشدودة بقيطان حذاء أسود شدا قويا. امتدت يدي

مكتبة الفكر الجديد

ببطء ودقة من يبطل قنبلة موقوتة، شعرت بأيدي البشر جميعهم تمتد مع يدي وامتلأت أذني بأصوات كورال سماوي وحفيف أجنحة ملائكة تحوم فوق ساحة (الطوبى). فتحت قيطان الحذاء الأسود فخرجت يد عارية من رحم الكيس، يد انتهت بكف ضامر رفيع الأصابع، ثم خرج رأس أصلع تنسكب منه خصلات وذؤابات شعر رمادي خاصة من القذال ومن صدغيه. أنا و(دخان) نبحلق مشدوهين مسحورين كأننا نشهد عملية الخلق الأولى وولادة كائن بشري من البيضة.

خرج يزحف على التراب بقايا بشر عاري إلا من لباس داخلي أبيض مهلهل، فورا تذكرت (سميغل) الكائن الممسوخ في فيلم (سيد الخواتم). سأله (دخان) سؤالا فطيرا سخيفا: هل أنت بشر؟

توقف الكائن (سميغل) عن الزحف وصرخ بلا صوت، طبعا لم نلاحظ الجروح والكدمات والأورام وجلده المشطب، ولا رأينا الدم المتيبس على وجهه ومفاصله، لم نلاحظ آيات التعذيب الإعجازية إلا تحت الضوء.

رفعناه وجعلنا جسده بيننا يتوسطنا وحملناه متكئا على أكتافنا، يا ألله يا ربي كم كان خفيفا بخف الريشة، لم ننتبه كيف يتحاشى أن نطخ جروحه ونؤذيه، لا ندري بمكان وجعه وهو لا يقوى على الكلام والصراخ والتأوه، فقط يئن.

قال (دخان): عندنا غرفة خالية لنأخذه لبيتي.

لا يدري أن بيتي كله فارغ لكني لم أعارض اقتراحه فبيتي مراقب من قبل وحوش جماعات الثقوب السود، وإذا جلبته معي للبيت تصير المصيبة مصيبتين، يقتلوننا معا بتشف ومتعة: عصفورين برصاصة واحدة.

بدون تفكير لحظة واحدة بخطورة ما نفعل ولماذا ننقذه ونحن لا نعرف

مكتبة الفكر الجديد

من يكون وأي كارثة سر وراءه؟ كل هذه الأسئلة ما خطرت على بالنا، لأن منظره يكسر قلب الصخر، ثم أن شكله لا يوحي بأي خطر وشر. لم نفكر أبدا بخطأ ما أقدمنا عليه ولا أخذتنا سِنةٌ من الرعونة.

بالكاد وبالشافعات وصلنا بيت (دخان) وفورا دخلنا به للحمام، وهناك كبتنا انهيار الدموع وبقوة أمسكنا أنفسنا من الانخراط بالبكاء والنحيب على ضجيج هذا الجسد المزدحم بالجروح والقروح، أينما نصب الماء الفاتر يقفز من الألم ويكبت صرخة الوجع، جسده كان يبكي لكن روحه تغلق العين والفم وتخفي جمر الدموع. نشفناه بخاولي ناعم وجلبنا قطن طبي ومحلول اليود الأحمر. طلينا جسده وصار أحمر يلمع من الرقبة إلى القدمين كأنه مصاب بالحصبة. هو فعلا طفل أشيب كما وصفه (دخان)، لا يسمع ما نقول، ولا يستطيع الكلام. يعيش داخل صدمة غير منتبه لنفسه وطامس في غيبوبة. كنا نتحاشى التشخيص بمرض فقدان الذاكرة، هذا يعني أننا في ورطة لا سابق ولا مخرج لها.

شرب الماء ورفض تناول أي طعام لكنه راح يتجرع ماء اللبلبي، وحين تعدت الساعة العاشرة انقطع أمل رجوعي للبيت فكل أنواع الوحوش الكاسرة من الملثمين قد احتلت الشوارع، لا داعي للمجازفة والمخاطرة بالذهاب الآن، ثم إن الكلاب سوف تزفني بنباحها إلى البيت فتجلب نحوي الأشباح المسلحين الذين يجوبون الطرقات والأزقة بحثا عن طريدة.

فرشوا لي دوشكَ اسفنج قرب الحائط مع هذا المسكين، كنت أفكر مضطجعا: كيف النوم مع ضجة جروح هذا الكائن المسلوخ. لم أصدق بأن كل هذه الحوادث جرت في يوم واحد ولم ينتهي بعد لأن الساعة لم تتجاوز الثانية عشرة: هل نصبح فعلا على يوم القيامة؟

مكتبة الفكر الجديد

رأسي على المخدة وعقلي يتقافز وخيالي يشحنه بكل مستحيل، تذكرت أن العلماء وضعوا ساعة خاصة تشير عقاربها إلى مصير العالم، أطلقوا عليها (ساعة القيامة) بحيث تصل الكوارث في الأرض أحيانا لدرجة أن تكون عقارب الساعة: بالقيامة إلا خمس دقائق، يعمّ الذعر بين شعوب العالم المتحضر وتخرج مظاهرات مليونية ومسيرات يبات فيها الناس على الأرصفة والساحات والشوارع لإجبار حكوماتهم على تقليل حجم الغازات المنبعثة التي تسمم الهواء، يطالبون بالكف عن تلويث بيتهم: العالم.

هل نحن هنا في بلادنا عندنا ساعة للقيامة تختلف عن تلك الساعة، ماذا يحدث لو تطابقت ساعة القيامة الأرضية مع ساعة القيامة السماوية؟

في الصباح ابتهجنا واحتفلنا لما وجدنا الكائن المسلوخ حيا يتفرّس ويجول بعينيه وهو منطرح على الفراش، لا يعرف أين هو وما الذي جاء به إلى هنا وهل يعيش ما بعد الموت أم بقي حيا؟

كنا نتوقع مغمومين أنه لا يصمد حتى الصباح إذ كان أخو الميت، وها نحن نحتفل بقوة الحياة في مقاومة وحوش الموت الشافطة إلى الثقوب السود.

جلس المسكين هذا الكائن المسلوخ فوق الدوشكَ وقال:

ـ أنا هندي.

ابتسمت وانفجر (دخان) ضاحكا وهو يقول بخجل:

ـ يمعود أنت عراقي.. شلون صرت هندي؟

أجاب الكائن المسلوخ فورا بعدما أدرك الالتباس وقال:

ـ اسمي هندي. ويطلقون علي هندي الحلاق.. هل أنتما مُنكر ونكير..

مكتبة الفكر الجديد

ولماذا جسمي أحمر.. أنا لست شيوعيا أم هذا الأحمرار من عذاب القبر..
(ابتسم هندي الحلاق وتفتحت جراح وجهه لكنه واصل الكلام)

ـ لا.. لا.. أتشاقه وياكم.. تره كنت أمزح فقط.. صدكَ أنا وين؟

وانطلق يشرح ويفسر بأنه يتذكر آخر مرة عندما كان على قيد الحياة، كان في البيت لوحده، أمه ذهبت للسوق رغم كبر سنها. وفجأة داهم البيت ملثمون جرجروه وضربوه في كل مكان لكن أحدهم ضربه على يافوخه، وها هو يفزّ الآن وسألنا:

ـ من أنتم؟

حكيت له ما جرى البارحة في الليل وكيف وجدناه في كيس طحين أبيض بجالع، في الرمق الأخير من الحياة. ثم اكتشفت فيما بعد من خلال جاري (أبو حسين) في البيت الركن المطل على ساحة (الطوبى). روى لي (أبو حسين) كيف أنهم يشاهدون كل ليلة أحداث جريمة تقع في هذه الساحة، وليس بيت (أبو حسين) وحدهم فقط من يشاهد بل جميع البيوت المطلة على ساحة (الطوبى)،كل ليلة ينظرون من النوافذ ومن فوق السياج ومن على السطوح،كانت ساحة الطوبى سينما تعرض ليلا أفلام جرائم جماعات الثقوب السود.

قال (أبو حسين) وهو يروي فيلم ليلة أمس: رأينا أربعة ملثمين ينزلون من سيارة زمردية، فتح أحدهم الصندوق الخلفي وأخرجوا كيس طحين أبيض ورموه قرب عارضة الحديد (الكَول)، أراد أحدهم أن يرشّ الكيس الأبيض بصلية رصاص من رشاشة لكن السماء توهجت بشعلات نارية ما جعل هذا يخفي سلاحه ويرمي رشاشته في السيارة متوقعين أنها طائرة (أباتشي) أمريكية أسقطت شعلات تحمي الطائرة من الاستهداف بالصواريخ، وفي ذات اللحظة انقضت على الملثمين كلاب مفترسة

مكتبة الفكر الجديد

داهمتهم من جميع الجهات وبالكاد تطافروا إلى السيارة مذعورين، صعدوا فيها وانطلقوا هاربين.

يواصل (أبو حسين) سرد فيلم ليلة أمس فيقول: بعدما هرب الملثمون اقتربت الكلاب من كيس الطحين الأبيض وبدأت تتشمم، رأينا بعيوننا التي سيأكلها الدود: كل كلب يقترب من الكيس يتشممه ويمضي منكس الرأس وذيله بين ساقيه. هنا ظهر شبحان من جوف الأرض بلونهما الحليبي فالقمر يسكب عليهما ضوءه الفوار. اتجه الشبحان صوب كيس الطحين وراحوا يخاطبون سكان الأرض والسماء إلى أن فتحا الكيس وخرج منه شبح ثالث راح يزحف فحمله الشبحان وذابا في ظلام القدر. لكن جماعة الثقب الأسود لم تفوت للكلاب هجومها الغادر عليهم ولم يعرفوا مصير الفاسق في كيس الطحين الأبيض، لم يغفروا للكلاب وانتقموا منها بهمجية وخبث إذ شنوا حملة إبادة شاملة في إعدامات علنية صباح كل يوم. كنا نسمع بعد كل رصاصة صباحية آخر هرير مبتور وآخر نباح مقطوع، كان القناصون يكمنون للكلاب في الحفر وخلف تلال التراب وسكراب السيارات، ثم يجمعون جثثها في حفرة كبيرة ويحرقونها وسط الأراضي الواسعة وراء جامع (نبي أيوب). لم نعرف بأن (هندي الحلاق) كان يردد منذ شبابه جملته الأثيرة:

إذا أردتم أن تكتشفوا ثقافة شعب وأخلاقه انظروا إلى حيواناته.

فعلا، كنت أرى يوميا في مدينة (الحسينية) جميع الكلاب تعرج مسلوخة الجلد، الكلب عندنا يقضي عمره القصير جوعان مطارد ينزف وهو يلوذ من زاوية إلى زاوية، ثم يأتي أحد البشر يصوب نحوه رصاصة ويقتله لمجرد التسلية. وأرى الحمير تنزف تطاردها جماهير الذباب تطنّ فوق الجروح المفتوحة والمتقيحة، أرى القطط المشنوقة بأسلاك الكهرباء. أنا أخجل وأشعر بالعار لأنني بشر، القطط تهرب مني حالما تراني، تهرب

مكتبة الفكر الجديد

مذعورة من شكلي البشري، شكل المجرم الذي تفزع منه الطيور والعصافير والحيوانات، كذلك لنا تاريخ أسود بزمن نغولة العقيدة عندما انتشرت إعلانات في المدن وفي الإذاعة والتلفزيون، إعلانات تسعيرة الكلب بنصف دينار حيا أو ميتا، وتسعيرة القطة بربع دينار حية أو ميتة. حتى رحت أردد مقولة (هندي الحلاق) في اكتشاف ثقافة وأخلاق الشعوب بمجرد النظر إلى حيواناتهم.

وها هو المسكين (هندي الحلاق) حائر ومرتبك حين أعطاه (دخان) بعض الثياب فهو يشتري ويبيع ملابس (البالات) في (الحسينية) وفي باب الشرجي وفي سوق هرج في الميدان وفي سوق (مريدي)، عطر البالات يعطّ من بيت دخان ومن جسده وأطفاله.

لبس (هندي الحلاق) بنطلونا رماديا وقميصا أخضر وهو يصف سنوات حياته التي قضاها يتنقل من فردوس إلى فردوس في جنات الجحيم، جنات من الشقاء والمحن والأهوال، وينصحنا بعدم القلق عليه وعدم الحيرة وأن لا نرتبط به لأنه معتاد على البهذلة وختم يقول:

أنتم في حل مني.. حالما أتعافى وأستطيع المشي أذهب وأريحكم من دوخة الرأس ومغاطيس النحس.. واني هسه ميت من الجوع.

نهض (دخان) وعاد بصينية صغيرة فيها ماعون بيض بالدهن ورغيفين من الخبز وطاسة لبلبي وصمونتين.

اكتشفت فيما بعد أن جميع المشاهدين لفيلم شبح كيس الطحين لم يتعرفوا على شخصيتي ولا على شخصية (دخان) فاطمئن قلبي من غزوات الملثمين من جماعات الثقوب السود أقلها هذه الأيام فقط.

لمحت (هندي الحلاق) كيف يتسامى على وجعه، لمحته يتسلق سلالم جراحه ويضحك من نفسه ومن شعبه ومن بلاده ومن العالم. توقعنا بأنه

مكتبة الفكر الجديد

سوف يغادر بيت (دخان) فور تعافيه واستطاعته المشي لأننا نعرف مزاج الحلاقين الاجتماعي؛ فالحلاق لا يحتمل الوحدة والعزلة والصمت. لكن (هندي) قضى يومه الأول في مراجعة سريعة لتاريخ جروحه التي ملأت صفحات جسده، وأخذ يعصر ذاكرته ليعرف متى انجرح في جبهته وأين: في الحائط؟ بإطار الباب؟، بـ (بوكس) حديد؟ أم كبوة على وجهه،وهل سيحمل العلامة السرية في جبهته مثل جماعات الثقوب السود؟ ثم صعد بذاكرة الجرح إلى يافوخه وهنا تذكر زمان الجرح ومكانه تماما، هي الضربة الفاصلة التي أفقدته الوعي، ولم يتذكر أيا من جروح يديه وقدميه وظهره وبطنه، وحمد ربه وشكره على سلامة خصيتيه وعيره فهم كل ما تبقى له في هذه الدنيا الفانية برغم عدم الاستخدام ويخاف ان ينتهي وقتها وتصير (أكسباير).

وقضى يومه الثاني يفك لغز الهجوم على بيته من قبل الملثمين الأربعة من جماعة الثقب الأسود: هل كانوا يراقبون البيت؟ مستحيل أن يعرف أحد من أصدقائه والجيران بأنه من (صعاليك القيامة)،هل وشى به واحد من الزبائن،من الذين يحلقون شعرهم عنده في البيت، لفق له تهمة السخرية من جماعات الثقوب السود بأن لهم دبرا أسود في الجبين، وراح يراجع ذاكرته: هل طفرت من لسانه كلمة سخرية من جماعات الثقوب السود وكيف يكوون جباههم بالباذنجان والبطاطا يقلدون من يحمل في جبينه أثر السجود، رغم أنها سذاجة عقائدية لأن الآية التي تقول سيماهم في وجوههم من أثر السجود لا تخص الأثر في الجبين إنما سيماء الوجه كله، يعني ملامح الوجه، وهناك ناس طيبين بسطاء يحملون أثرا طبيعيا في الجبين لا علاقة له بالسجود والسيماء فصار خلط جائر بين هؤلاء الطيبين وبين جماعات الثقوب السود، لكن (هندي الحلاق) لا تختلط عليه الجريمة

مكتبة الفكر الجديد

والبراءة لأنه يفرز ويقرأ الوجوه كما يقرأ صفحات الكتب، مستحيل أن يعبر مجرم إلى سيماء الأبرياء. والمصيبة البقعة أن الكثير من الشباب أخذ يرصع الثقب الأسود على الجبين حتى يأمن شر جماعات الثقوب السود، ولكي يكون مهابا تخاف منه الناس. ثم استدرك (هندي الحلاق) وهو يراجع لغز الهجوم على بيته من قبل الملثمين من جماعات الثقوب السود، يفكر: ربما شكوا به يشرب الخمر لأن شكله وهيئته وكل ما يحيط به يوحي بأنه من أهل الدنيا لا من أهل القيامة. أخيرا تلقف أهم سبب للهجوم على بيته عندما تذكر بيع محل الحلاقة: توقعت جماعة الثقب الأسود العثور على مبلغ كبير من النقود في بيت (هندي الحلاق) بعدما باع محل الحلاقة عن طريق دلالية (الأنفان) لأن معظم الدلالين علاسة مخبرين لجماعات الثقوب السود، مثلما كانوا سابقا وكلاء أمن لنظام نغولة العقيدة، إذ يعطونهم أسماء وعناوين من باع واشترى، فالنظام اللاحق لا يختلف قيد أنملة عن النظام السابق وكأنهما توأم فالتهم هي نفسها: جاسوس، عميل، خائن، شيوعي، متدين، أضاف إليها النظام اللاحق تهم: كافر، مرتد، فاسق، رافضي، أو ناصبي حسب كفة ميزان الطوائف وربما صفوي ووهابي تنطبق مع بقية التهم لإدانة (هندي الحلاق) الذي يعاند أوامر وتعليمات جماعات الثقوب السود فهو يحفّ الوجه ويحلق اللحية ويبتكر تقليعات وموديلات لم يتوصل إليها بعدُ خبراء الحلاقة في أوربا وأمريكا، ثم إنه حليق اللحية والشارب، يعني شيوعي بنظرهم ولم يروه يذهب إلى الجامع يصلي. إذن التفت عليه حية الشيطان من جميع الجهات برغم أنه لم يقطف بعدُ تفاحة آدم التي تعفنت في الشجرة، ولم يتعرف لحد الآن بحواء، (هندي الحلاق) لم يتزوج بعد، لقد لبسته كل التهم المنظورة وغير المنظورة وكانت على مقاسه بالضبط لا زايد ولا ناقص.

مكتبة الفكر الجديد

في اليوم الثالث كلفني (هندي الحلاق) أن أذهب إلى بيتهم وأطمئن على أمه العجوز وهو يعطيني حصاة حمراء صغيرة على شكل قلب كان يعلقها في رقبته ستعرف الأم من هو صاحبها وانطق بكلمة السر (كصيت المودة). ثم أبرد قلبها: إن ابنها بخير فلا تقلق عليه.

فعلا ذهبت بعد الظهر إلى منطقة (مطعم الأمير) خلف المدرسة القومية. وجدتها مهمة صعبة عليّ أنا الأرعن، كيف أفكر بطريقة حكيمة تبعد الشكوك ولا تثير الريبة لدى الأم بحيث أقنعها اني صديق (هندي) ولا تتوهم بأني واحد من الخاطفين، لا أدري كيف أقحمت نفسي بهذه الورطة وأنا لست جديرا بها ومطلوب مني أن أستدرج الأم خطوة خطوة وتفتح لي أبواب قلبها وتشم فيّ رائحة ابنها، ثم أضع بكفها الحصاة الحمراء التي تشبه القلب، هي الإشارة الأكيدة التي لا تخطيء مع نطق كلمة السر (كَصيت الموده).

دخلت في شارعهم حسب وصف (هندي الحلاق) وها هو: بيت متهالك بطابوقه المكشر مثل ضحكة أرملة مهدودة الحيل ومهدمة الوجه. رأيت شبابا ومعهم رجال بيشماغ رمادي منقط فوقه عقال أسود، رأيتهم يصفّون كراسي حفلة ويلملمون بقايا زينة وشموع. اقتربت من شاب صغير يحمل علب حامض حلو وجكليت، رفعت يدي ألقي التحية عليه وسألته:

ـ هذا العرس لمن؟

ـ أم هندي الحلاق ماتت قبل يومين.. خلصت من شر الدنيا.. وهاي زفة موتها.

ـ شلون ماتت.. مريضة؟

ـ لا.. لا.. خطفوا ابنها هندي.. ولما رجعت من السوق شهقت وماتت.. واحنا وراها ان شاء الله.

مكتبة الفكر الجديد

ـ ويا هو الدفنهه؟

ـ الجيران وأهل الخير احتفلوا بعرس المأتم؟

ـ رحم الله والديك.

ـ والديك عمي.

اتصلت بـ (دخان) من الموبايل وحكيت له كيف ماتت أم (هندي الحلاق)،وماذا نفعل وكيف نخبره وهو مضعضع بهذي الحال؟ هل نؤجل إخباره بموت أمه أم ماذا،أنا لا أدري ماذا أفعل؟

أجابني (دخان) بأن نتمهل قليلا حتى نجد طريقة مناسبة لتوصيل الخبر إليه، وأشار علي أن أقول له: وجدت شارعهم مزدحم بالناس ولم أجازف بطرق الباب. كما اتفقنا أن نلتقي الساعة الثالثة أمام السوق (الچبير) القريب من بيت (دخان). حصلت على ثلاثة أيام إجازة من الدائرة بعدما خابرت مسؤول قسم المسرح ليلة مبيتي في بيت (دخان)، ليلة كيس الطحين الأبيض.

رأيت أمام السوق (الچبير) استعراضا دمويا للقوة، حيث سيارات جماعة الثقب الأسود واقفة تقطع الشارع العام ذهابا وإيابا، يفتشون ركاب سيارات النقل والأجرة، كما يفتشون المتسوقين والمارة عن المشروبات الكحولية وعن الشعر الطويل والبنطلون الضيق،يحاسبون النساء أكثر من الرجال خاصة الحجاب إذا كان مُرتخيا وتظهر خصلة شعر منه، يضربون المرأة التي لا تلبس جوارب سوداء ثخينة. إنهم يفتشون عن أي شيء لا يعجبهم ويكرمش الثقب الأسود في جبينهم.

وقفت أتفرج على الصور أمام استوديو إلى أن ينقشع هؤلاء من جوّ الشارع وتصفو سماء المنطقة من المطر الأسود، فجأة سمعت خلفي صوت حاد آمر ينادي عليّ بخشونة: هويتك أخي؟

مكتبة الفكر الجديد

عادت الدماء لوجهي بعدما تعرفت على صاحب الصوت ولم أستدر مباشرة، رحت ألعن وأسب وأفشر وأرزل (دخان) على هذا المزاح القبيح والقديم، الذي يتمازح به الناس السذج والأغبياء حتى صار مجرد سخافة. لكن (دخان) تدارك نشوب عراك بلكمات الكلمات وغير الموضوع وهو يقول:

تعال من هذا الشارع حتى لا نرى القرد ولا القرد يرانا.

انهمكنا نتبادل الاقتراحات وأذكى الطرق لإخبار (هندي الحلاق) عن موت أمه، وكنا غارقين بالحيرة والارتباك لغاية وصولنا بيت (دخان)، وقبل أن نطرق الباب وقفنا مذهولين واحد يحدق بوجه الآخر: سمعنا صوت غناء شجي عذب يأسر القلب فقلت مازحا: شنو عدكم مسعود العمارتلي يغني؟ ورد (دخان):

ـ هذا بيتنا لو لا.. أخاف اني متوهم؟

دخلنا البيت وإذا بصوت (هندي الحلاق) يغمرنا ولم نتجاسر على منعه فقد يسمع مخبرو جماعات الثقوب السود ويقودهم إلينا ويعلسوننا بتهمة: الفسق والفجور.

عندما انتهى (هندي الحلاق) نظر بوجهي مبتسما وهو يقول:

ـ ها ماتت أمي المسكينة.. يلا خلي ترتاح من عذابي.. قتلتها يوم خطفوني.

تلعثمت وانعقد لساني، وبهت (دخان) وهو ينظر إلى بدهشة واستغراب كأنه يقول: هذا جن لو بشر، من أين عرف بموت أمه، وكيف بقي هادئا رزنا لم يلطم على رأسه ولم يبكي بصوت عال ولا أثر دموع في عينيه، لكن وراء كل هذا الهدوء حزن عظيم يصطخب بداخله يمور مثل إعصار، إعصار شبّ في قلبه بينما وجهه ساكن لم ترمش عيناه برجفة دمعة أو رعشة نحيب مقموع.

مكتبة الفكر الجديد

أطلق تلك الكلمات ثم واصل غناءه بصوت مثل حبل لا مرئي يجر قارات العالم وراءه، وكورس البشر يغنون معه كأنهم ظل لصوته وحشرجاته، حبل صوته يسحل بلاده برقة فوق نجيع دم يتصاعد من جريانه بخار أحمر، بخار يلون صوته الذي ينزف وحيد الخطوات على سطح الكرة الأرضية، وحيدا برغم حشود البشر الأحياء والأموات، جميعهم متعلقون بحبل صوته.

فورما سكت انخرطنا ببكاء عاصف جارف، والدموع تتطافر بغزارة كأننا منذ فترة طويلة ربما العمر كله محصورون بسد للدمع، وها هو ينهار، انهد هذا السد الآن حتى أن قميصي ابتل فتذكرت المغنية (سورية حسين) وهي تغني: (يا ما خذين الولف)، يا دمع بيش انام بللت الهدوم / حزن اليموت اسبوع وحزن العدل دوم.

سألني (هندي الحلاق):

ـ هل رأيت جادر مأتم؟

قلت له:

ـ لا.. رأيت كراسي عرس.

رد (هندي الحلاق) بحسرة جمر طويلة:

ـ أيباخ.. وصل جنون القيامة لمنطقتنا.. ولشارعنا.

مكتبة الفكر الجديد

تقشير بصل الواقع

جنون القيامة. لأول مرّة يسمع (دخان) بهذا الجنون. وارتعب من وجه (هندي الحلاق) الذي التهب يتلون بجميع ألوان الخوف والهلع فسأله مرتجفا:

ـ أي جنون وأي قيامة.. يمعود احنا ناقصين لو عايزين؟

قال (هندي الحلاق) بلا مبالاة قاسية وبهدوء عديم الرحمة يستفز السامع لكنه مع كل هذا تسري فيه نار الحكمة:

ـ أرجوكم لا تفزعوا ولا تجزعوا.. انتشر في بلادنا وفي دول المنطقة جنون القيامة، ويتفاوت في شدته وخطره بين الميؤوس منهم مثل الانتحاريين والذباحة والصكاكة وبين الجنون الخفيف العادي المسيطر عليه والذي ربما يمكن علاجه.. أنتم تقاومون الإصابة بجنون القيامة.. لديكم ذخيرة عناد حياتي مثل درع يصد الجنون..هذا العناد يكمن فيه سر الشفاء والعلاج..عنادكم هو الذي قادكم إلى إنقاذي من سطوة جماعات الثقوب السود والموت. العناد يختزن التحدي والمجازفة التي جعلتكم تقتحمون الموت والقتل.. وامتدت أيديكم لفك كيس الطحين الأبيض.

مكتبة الفكر الجديد

اخترقتم قلعة الخوف ولم تتركوني نهب الأقدار والمصادفات.. بل حملتموني إلى بيوتكم. تشع من حول أجسادكم طاقة للشفاء.. تشع هالة هي أكبر من شراسة جنون القيامة.

رغم أني أعرفه منذ ثلاثة أيام لكنه استحوذ على مساحة واسعة من قلبي،وما جعلني أتساءل: لو كان (هندي الحلاق) يبالغ بالتشاؤم لأدركت علة النقص والحالة النفسية المتردية التي يعاني منها، لكنه سليم العقل والقلب وقد وضع يده على الجرح. ولو كان ينتمي إلى جيل كوارث وأزمات ومصائب ولا يستطيع الخروج والانفلات من سجن اليأس لقلت فعلا: إنه مريض لا يدرك سرّ مرضه، لكنه الآن يشخص العلة الجوانية التي تعاني منها البلاد والمنطقة كلها؛ لذلك أيقنت بما يقول، وتراجع كل شيء يعتد بالأمل الخُلّب.

باختصار: (هندي الحلاق) هو الأكثر حذرا من الجميع في السقوط بفخ جنون القيامة.

انتبه (هندي الحلاق) وأدرك حيرتنا وخوفنا من ذكر جنون القيامة، لاحظ ارتباكنا وسرعة تصديق وجود هذا الوباء من دون تفكير ولا تمحيص وتحقيق خاصة أنا بعدما مررت به وسمعت خلال هذه الأيام فقال:

ـ أرجوكم تحملوني.. أنا لا أريد بث الرعب إنما التحذير والوقاية من خطر الإصابة بجنون القيامة.. يبدو أن القدر والصدفة جمعتنا سوية ولا بد من دور مهم نلعبه في هذه الفترة الكارثية. من أخطر أعراض جنون القيامة هو غشاء الوهم: غشاء فوق العيون والآذان والفم والأنف، وغشاء سميك يغطي العقل لذلك يصدق المصاب بكل الخزعبلات

مكتبة الفكر الجديد

والترهات والشعوذة، هو مريض بجنون القيامة لكنه يرى نفسه بأتم الصحة والعافية، ويرى أنه أعقل الناس جميعا، وغشاء الوهم هذا هو المسيطر والمتحكم بأفعال المريض.

كذلك يغطي قلب مجنون القيامة غشاء وهم ثخين بحيث تتلاشى منه الرحمة والتعاطف والشفقة، وتكون القسوة هي تاج القلب. لكن أفتك مجانين القيامة من يرى نفسه هو الطبيب، هو القائد والزعيم والمقدس المحصن من كل العيوب والأخطاء القاتلة، بينما الجميع غارق بمستنقع الوهم، وهم جنون القيامة من العيار الثقيل.

برأيكم، هل كل هذا كلام نظري صعب التصديق؟ هاكم مثالا واحدا من بين آلاف الأمثلة: الجميع يلاحظ بعد كل انفجار كيف يتم غسل مكان الجريمة بسرعة فائقة، وتعود الحياة وكأن شيئا لم يكن. سمعت الكثير يشيد ويفتخر بهذه الظاهرة على أنها: شجاعة وتحدي كي لا تتوقف الحياة. أما أنا فأقول إنها: غشاوة جنون القيامة، إنها بلادة وغباء ورعونة أن تغسل ملايين الأدلة والخيوط التي توصلنا إلى وكر القتلة ومصنع التفخيخ وإنتاج العبوات الناسفة. غسل مكان الجريمة غسل للذاكرة ودعوة للنسيان وانتظار لتفجير جديد.

وكما هو معروف أن الشعب الحي نشيط الذاكرة سوف يخرج إلى مكان التفجير ويجلس هناك لا يبارحه أبدا حتى يتم العثور على المجرمين ومحاكمتهم سريعا وتنفيذ الحكم بسجن القتلة داخل قفص حديد بنفس مكان الجريمة ليدرك بعدها كل مجرم ينوي التفجير أن مصيره هنا في مكان الجريمة، وهنا يرى المجرم كم عائلة قتل وكم طفلا تيتم وكم امرأة ترملت وكم أم ثكلت. وهكذا تنتشر سجون في كل موقع للتفجير لأن الإعدام لا

مكتبة الفكر الجديد

يحد من ارتكاب الجرائم وخاصة القتلة المجاهدين الذين يتمنون الإعدام لكي يذهبوا مباشرة إلى حور العين في الجنة، كما إن الإعدام محو لذاكرة الشعوب، عندما تعدم المجرم دمه يمحو الجريمة وسرعان ما يتناساه الناس.

أعتذر منا (هندي الحلاق) بأنه لا يريد أن يثرم بصل على رؤوسنا ولا أن يتثاقف ويبرز عضلاته العقلية أمام المساكين مثلما يفعل الكثير من المثقفين، وراح يؤكد ويصر على أنه أقل شأنا من ضرطة بسوق الصفافير. لكن المصيبة كبيرة ونحن صغار تافهون كما يقول. لم نكن بمستوى أي كارثة مرت علينا،وهناك في الأفق كارثة لا مثيل لها تتدحرج صوبنا ونحن بقينا زعاطيط نلعب بخرانا. ثم أخذ يحذرنا بأنه إذا تكلم لن يسكت وإذا صمت فلا العفاريت والجن تجبره على نطق حرف واحد. وسألنا: هل انتبهتم إلى البيوت كيف صارت تشبه القبور، انظروا إلى بيوت مدينة الحسينية (حي الزهور) كيف صارت امتدادا لمقبرة (محمد سكران)، هل لاحظتم الشواهد فوق البيوت فليس اعتباطا حور الناس اسم مدينة (الزهور) إلى مدينة القبور.

ثم عاد إلى جنون القيامة وغاص إلى أعماق سحيقة بقوله أن لا يتوهم أحد أن هذا الوباء نتاج اليوم. لا.. لا، لقد بدأ فايروس جنون القيامة ينتشر ويعمل ويكبر منذ أربعين سنة، منذ حفلة الإعدام العلنية في باب الشرجي أمام الجماهير، لكن أعراض جنون القيامة بدت واضحة ومخيفة بعد سقوط نغولة العقيدة والقائد النغل حفظه الله ورعاه، لقد رفعوا غطاء البالوعة بعد الألفين وثلاثة فخرجت كل أنواع الأمراض دفعة واحدة وكان أخطرها جنون القيامة. وهنا سوف أختبر قوة الملاحظة عندكم

مكتبة الفكر الجديد

وأسأل: كم من الأشياء انقلبت رأسا على عقب وصارت بعكس حالتها الأولى؟

نفخ (دخان) ونهض كأنه يفز من الموت وينفض عن نفسه التراب وهو يقول:

ـ يمعود على كيفك ويانا.. ترا عقلنا راح ينفجر.. وبصراحه اني جعت.. يلا خلي نسوي عشا.

خرج ونهضت معه في الحوش، اخذني وهمس بأذني:

ـ خاف يطلع هذا مخبل واحنا ما ندري؟

رددت عليه:

ـ اش، يمعود.. لك هذا أعقل منك ومني، ومن كل البشر. أجابني بسخرية:

ـ يابه بشر في هذا مستوي ومجنون رسمي.

ـ أنت تدري بالناس يوصفون العباقرة بالجنون.

ـ يا عبقرية يمعود.. سولفهه على الدبه.. تعال تعال.. شلون عرف امه ماتت.. وأكو واحد عاقل يغني بموت أمه.. والمصيبة هو البارحه الله نجاه من موت محقق.. كل هذا وتقنعني (هندي الحلاق) عاقل؟

هنا حكيت لـ (دخان) قصة شائعة عندنا:

ـ دخان.. هل تذكر قصة الشاب الذي مات وأخذوه للمغيسل وكفنوه ثم وضعوه في تابوت وانطلقوا به إلى مقبرة السلام في النجف، وهناك حفروا القبر واللحد ووضعوا جثة الشاب فيه ثم أهالوا التراب فانتفضت الجثة ونهض الشاب من القبر وهو يزيح عن جسده الرمل والتراب، ذعر

مكتبة الفكر الجديد

أهله ومن معهم وحفار القبور وهربوا مبعثرين بين القبور. خرج الشاب من القبر إلى الهواء الطلق والسماء يتلفت أين ذهب الجميع، وخطوة خطوة رجع أهله إلى ابنهم الذي جلس بكفنه الأبيض فوق التراب يحدق بقبره الفاغر وعادوا به إلى البيت. هل تعرف من هذا الشاب الذي قام من القبر.. إنه هندي.. هندي الحلاق.. هو نفسه من حكى لي هذه الواقعة ولم يزد عليها حرف واحد رغم إلحاحي عليه بذكر التفاصيل وأين كان عندما انقطع نفسه ومات، أين ذهب وماذا رأى وكيف عاد؟ أدار وجهه عني ولم ينطق بحرف واحد كأنه عاهد نفسه أو شخصا آخر أن لا يحكي سوى هذه الحادثة لا زايد ولا ناقص.

شعرت بأن زوجة (دخان) متضايقة من وجود (هندي الحلاق)، كما أن أطفاله الثلاثة شياطين البر والبحر، وقحين شرسين لا يُطاقون، الله يساعد (دخان) وأمهم عليهم، الابن الأكبر اسمه (سنان) يبيع أرغفة خبز في السوق (الجبير) لأن شغلة (البالات) التي يزاولها (دخان) لا تسد أفواه الجوع، لذلك تساعده زوجته وهي تخبز مرتين أو ثلاثة في اليوم. شكى لي (دخان) من زوجته أكثر من مرة إذ راحت تبتعد عنه وعن الدنيا شيئا فشيئا لا تحف وتزيل شعر وجهها وجسدها ولا تتزين وتتعطر له، كرست نفسها لشغل البيت فلا يراها (دخان) سوى أمام التنور تخبز،التنور أرعبها من نار جهنم فوطنت نفسها لنيل الجنة تاركة (دخان) يتحارش بالنساء في سوق (حماده) واعترف لي أخيرا بأنه يحب امرأة متزوجة اسمها (قبله).

لا أعرف بالضبط لماذا تتضايق زوجة (دخان) من (هندي الحلاق) مع أنه لا يخرج من الغرفة أبدا عدا الذهاب للمرحاض الموجود قريبا من باب البيت. ويعني أنه بعيد عنها وعن العائلة. من خلال نغمة الاستياء من

مكتبة الفكر الجديد

كلام (دخان) اكتشفت أنه يريد التخلص من (هندي الحلاق) برغم أنه لم يقلها صراحة وعلنا. كما انه يحاول تسفيه أي كلام ينطق به (هندي). ربما من حق زوجته النفور والتضايق من رجل غريب، ومن حق (دخان) الخوف على عائلته وعلى نفسه من جماعات الثقوب السود، وربما يخاف على زوجته من رجل غريب الأطوار لا يحزره خاصة بعد سماعه يغني بموت أمه، والأطين من هذا كله:الذي ينام معهم في البيت خرج من القبر. كل هذا الخوف تلبس (دخان) وأرداه مذعورا فكيف إذا أخبرته عن رسالة التهديد والبوشة الصفراء مسودة الحواف التي لوحدها تصرعني بجنون القيامة؟

هناك نوع من الناس يركضون معك ويدافعون عنك بقلبهم ومالهم وشرفهم، لكنهم يتوقفون وسط الطريق، تشلهم الريبة والشك والتعب والهوان فيتوجس من كلامك وتصرفاتك ليقنع نفسه بالانسحاب، ويجد ذريعة ومبررا له لكي يرجع في منتصف الطريق سالما ويتركك لوحدك تواصل السير والمغامرة، هذا النوع من البشر هم الأكثرية الساحقة، وهو نوع (دخان).

خرجت للشارع أشتري قوطية باقلاء معلبة مع قوطية سمك التونه وبطل ببسي. وانسل (دخان) للمطبخ مع زوجته لتحضير العشاء، تأخرت قليلا فأغلب الدكاكين مقفلة لذلك رجعت ببطلي ببسي كولا. وجدت صينية الطعام في الغرفة حولها (دخان وهندي الحلاق). جلست معهم أغمس لقمة الخبز بطماطة مقلية وأدحس معها ملعقة لبلبي حار مع رشاد وكرفس. بعد العشاء أثناء شرب الشاي فاجأنا (هندي الحقلاق) مخاطبا (دخان):

مكتبة الفكر الجديد

ـ صديقي (دخان) تعبتكم وياي.. وحملتكم مسؤولية أنتم في غنى عنها.. وأنا لا أعرف كيف أشكرك وكيف أرد هذا الجميل.. بماذا أجازي تضحيتك رغم أنك لا تعرف عني شيئا.. أغرقتموني بكرمكم.. وأنا مدين لكم بحياتي.. متى يا ترى أرد لكم كل هذا العطاء والوفاء.. حقيقة لا أعرف متى.. الليلة أرجع للبيت ولا يمنعني أحد من الجن والإنس.. وخلي شيصير ايصير.. اني مبلل بالكوارث فلا أخاف من أمطار المصايب والبلايا.

قلت له:

ـ جروحك لم تتشافى بعد.. وحالتك صعبة.. فهل تستطيع المشي؟

أجاب بهدوء صارم:

ـ جروحي لن تشفى ودمي لا ينقطع لكني أستطيع المشي وعافيتي كالثور.

تبادلنا النظرات المشدوهة أنا و(دخان)، نظرات فيها كلام كثير لكنه يصطدم بباب فم مسدود فراحت النظرات توحي أكثر مما تفصح. قلت برجاء وتوسل:

ـ عيني هندي تعال بات الليلة معي وغدا ألف عمامة تنقلب.. تعال وياي بروح امك.

أجاب بدلا عنه (دخان) وهو منكس الرأس:

ـ اني كلش خجلان من إصرار (هندي) للخروج الآن والوضع خطر جدا... سامع شيء من أحد.. من زوجتي؟ من الأطفال؟.. شي أزعجك وزعلك؟

مكتبة الفكر الجديد

نفى (هندي الحلاق) كل هذه الهواجس والتخمينات جملة وتفصيلا ونهض واقفا، قبل (دخان) من جبهته معتذرا لما سببه من إحراج وخطورة.

نهضت بدوري ومشينا في الشوارع المقفرة و(دخان) معنا حتى وصلنا ساحة (الطوبى).

دخلنا بيتي الخاوي وما تزال بقايا يتيمة من رائحة (حوراء) زوجتي، ففلنا الأبواب وأنا أدردم مع نفسي: اني ميت ميت.. خلي تلاص كلش.. بمكان الخطر الواحد صار خطرين: انا مهدد بالقتل وهندي الحلاق أفلت بمعجزة من الإعدام الليلي، لابد أن تكون الآن جماعات الثقوب السود تنبش البيوت والشوارع والمحال بحثا عنه.. أتخيلهم يعضون أيديهم حنقا وأسمع صريف أسنانهم حرقة وانتقاما وهم يكزون ويقولون: أنقذته الكلاب وشرارات الأباتشي.

فرشت لنا دوشكين في غرفة الاستقبال وأنا أقول لـ (هندي الحلاق):

ـ لماذا صدمت (دخان) بالخروج من بيته بهذا الليل الخطير؟

ردّ بانفعال:

ـ امداني.. بعد كل هذا العمر والتجارب والخبرة بالبشر ولا أعرف كيف أقرأ الإنسان.. أقرأه وجه وقفا.. منذ يومين وأنا أتصفح وجه (دخان) فقرأت الهم والحيرة والحياء، هو يريد توضيح موقفه المخلص لي، لكن شخصا في البيت يسوطه باللوم والتأنيب.. المسكين يريدني أبقى، وبنفس الوقت يريدني أرحل.. يد تبقيني ويد تودعني.. المهم حسمت أنا الموقف فارتاح الرجل وتخلص من القلق وأنا تخلصت من الضيق.

كشفت له سر رسالة التهديد وكيف هجرتني زوجتي فانتعش لصراحتي وثقتي وانكب (هندي الحلاق) يقشر لي رأس بصل الواقع

مكتبة الفكر الجديد

قشرة بعد قشرة، وعيناي تمتلىء بدموع حياتنا الحريقة. مع نزع كل قشرة ينفتح باب فنطل على واقع آخر، نمر به ونجتازه لنجد باب آخر فينزع قشرة بصل آخرى لينفتح باب جديد، وبقينا هكذا حتى الفجر: هندي الحلاق يقشر بصل الواقع وتتفتح أبواب بعد أبواب حتى وصلنا الضوء العاري، وجدنا أنفسنا نخوض بموج الضوء العاري، ثم رجعنا من خلال الأبواب، في حين أخذ الضوء يلبس الأثواب، ندخل ونخرج من باب لباب حتى وصلنا لواقعنا هنا والآن، المصيبة أم سبعة وسبعين وجدنا أنفسنا نعرف الواقع توا الآن بلا سابق معرفة.

نمت ثلاث ساعات فقط وعندما صحوت رأيت نفسي صافيا للمرة الأولى. تطلعت في أرجاء البيت واكتشفته للمرة الأولى، خرجت من باب الدار للشارع فرأيت الدنيا والعالم كما لم أراهما من قبل. تقشر كل شيء وسقطت الأقنعة وانزاح الوهم، وها أنا أخطو بقدمي على أرض لم تطأها قدماي من قبل. رأيت كف العفريت. كنت أعمى أرعن أطرش أثول، والآن.. الآن فقط تفتحت عيوني.

مع الأسف انتهت إجازتي وبدأ إزعاج الدوام في الجلوس ساعات طويلة محشورا في السيارة لكثرة السيطرات في الشوارع خاصة سيطرة الشعب الكبيرة التي تسرق يوميا ساعة أو ساعتين من عمرنا، مرقت بسرعة من قربنا زفة جنازة حيث الفرح والابتهاج، الطبول تقرع، والأبواق تصدح ورقص حامي الوطيس بداخل سيارات زفة الميت، جميع السيطرات تسمح لها بالمرور من دون تفتيش وتأخير. وها نحن واقفين بطابور طويل وصل إلى (بوب الشام)، والمفارقة السودة هي حين وصلنا لنقطة التفتيش. يقف من الجانبين رجال الشرطة والجيش وقوات الأمن،

مكتبة الفكر الجديد

وإذا بشرطي يلعب بالموبايل بيده اليسرى ويؤشر لنا بيده اليمنى أن نعبر ونواصل السير بحسرة أن يلقي علينا الشرطي نظرة ولو عابرة مجرد نظرة إلى محتويات السيارة ووجوه الركاب. أنا على يقين بأن سؤال مر حنظل نبت فوق لسان جميع ركاب السيارات والسواق: لماذا كنا واقفين إذن منذ ساعة وأكثر، لماذا كل هذا العبث: هل ليؤشر بيده أن نعبر فقط؟ هكذا تعبر يوميا عشرات السيارات المفخخة، ونضحك محترقين عندما يقول ساذج بأن هذه السيطرات تحمينا وتمنع انهيار المدن، نضحك على نكتة سوداء مثل قلب الانتحاري.

يتحدث الناس عن وجود صفقات سرية بين السيطرات وبين جماعات الثقوب السود حتى أن بعض القادة الامنين يؤجر السيطرة بمبلغ كبير لساعة واحدة فقط.

الدوام في الدائرة لايزعجني ولا يؤذيني كثيرا إنما هو الذهاب والإياب. لذلك كنت أقرأ كتابا يشغلني عن ساعات الانتظار الطويلة في السيطرات والشوارع المقفلة بسيارات تجعر. إن طريق (الحسينية- باب المعظم) له فضل كبير علي فقد جعلني أقرأ مئات الكتب. وصلت للدائرة بمعجزة تشبه معجزات بقائنا على قيد الحياة. وأنا أدخل وجدت معظم الموظفين على وشك الخروج، هؤلاء الموظفين هم أنفسهم الممثلين في مسرحيتي (حليب أسود)، التي أجزم بغصة أنها لن ترى النور على خشبة المسرح. سألت (راهي) إلى أين هم ذاهبون؟ قال إن المخرج (بلاسم) انجلط، هكذا قالها مغلفة بالقسوة وهو يعني أنه تعرض إلى جلطة قلبية.

ذهبت معهم إلى بيت المخرج الموظف (بلاسم) لنطمئن على صحته. وهناك رأيت بعيني التي سيأكلها الدود، رأيت ماقاله (هندي الحلاق) عن

مكتبة الفكر الجديد

أعراض جنون القيامة ولم أصدقه حينها، لكني الآن أراها وهي تفقس عيوني، حينها قال هندي الحلاق:

كثيرة هي أسباب جنون القيامة بكثرة البؤر التي تعشش فيها فايروساتها، التي أحدثت شروخا في جسد المجتمع مثل:

بؤرة الحرس القومي سنة ثلاثة وستين وتسعمئة وألف عندما رأيت مصارين الناس في الشوارع. وبؤر حفل الإعدام العلني في باب الشرقي أمام الجماهير. وبؤرة قاعة الخلد عندما قال القائد الفذ (أطرّو أربع اوصال) واختتمت بموسيقى الرعب على آلات رشاشات ومسدسات تمزق أجساد المعدومين. هل تتوقع يا (برعم) أن يمر الشرخ النفسي للمجتمع بدون أن يخلف أثرا أو بداية لوباء، وأنت ترى كيف يختفي أصدقاؤك من حولك في سلسلة اعتقالات لآلاف الشيوعيين والمتدينين، وهناك في الشارع يمزق جلاوزة (طلفاح) بناطيل الشباب ويحلقون شعرهم بإهانة وتحقير، ويصبغون سيقان الفتيات بالبوية حفاظا على شرف الأمة. لكن أكبر بؤرة لجنون القيامة هي حرب الثماني سنوات الدموية، إذ حفرت شرخا عميقا في نفس العراقي. ثم بؤرة غزو الكويت وحرب عاصفة الصحراء ولحقها الحصار الضاري وكيف اقترب يوم القيامة حتى لامس عري عصب الحياة. وبعدها انفلقت البؤرة العظيمة والشرخ الأعمق في السقوط المخزي سنة ألفين وثلاثة ونشوب حرب جماعات الثقوب السود، حرب اشتركت بها كل دول وشعوب المنطقة فلا يمر يوم علينا بدون انفجارات ونزيف وحريق إلى أن نشب جنون القيامة.

دخلنا بيت المخرج (بلاسم) واحدا بعد الآخر، وجدناه ممددا على

مكتبة الفكر الجديد

سرير خشبي، أصفر الوجه وشفتان بيضاوان لكنه يحتفظ بوعيه ولا يتعثر بنطقه وكلامه، يجلس بقربه ابنه (سعيد) يلبي طلباته.

قال (شلال) أحد الموظفين الذي يمثل دور (صاحب الدكان) في مسرحيتي (حليب اسود)، طويل نحيف ضامر الوجه أسمر كأنه (عوج بن عناق) بخيل مطلق لا مثيل له بحيث تمتلىء جيوبه بالعقارب.

قال (شلال) البخيل:

ـ مع الأسف.. كنا نتوقعك ميت الروح والجسد فترتاح من شر الدنيا.. موته واحدة ولا يوميا تموت.

أجابه (سعيد) ابن المخرج (بلاسم) بحسرة وتعاسة:

ـ كم فرحنا حين أصابته الجلطة وقلنا: هنيئا لك بابا خلصت روح.. روح ارتاح واتركنا هنا في يوم القيامة نتمرغ بوحل نار جهنم.. لكن مع الأسف كانت الإصابة بالريش.. حظ ابي المسخم جعله يقاوم ويصارع حتى عافه الموت وتركه.. وها أنا مع أمي واخوتي ننتظر انتكاسة في صحته ليموت ويفوز كي ينال الخلاص من ويل الواقع وضيم البلاد.. ندعو الله كل لحظة أن يموت أبي ويرتاح.

استعدل المخرج المريض (بلاسم) بعدما أزاح الشرشف الأصفر، واتكأ على الحائط خلف سريره الخشبي وقال متحسرا:

ـ أخاف يسويها الحظ الخرا وأعيش فإلى أين أولي بوجهي وقد فاتني قطار الموت السريع.. أنا الآن على أحر من الجمر انتظر جلطة مميتة وأنجو من الحياة.

قال (مرتضى) وهو يلعب دور (الصحفي) في مسرحية (حليب أسود)، له وجه ثعلب وروح ذئب لا يأمن أحد شره المبطن فهو متملق ومنافق من الطراز الأول:

مكتبة الفكر الجديد

ـ لا نتمنى لك الشفاء والعافية.. ونتضرع لله أن تنام وتصحو ميتا لا حس ولا نفس بجاه العزيز الكريم.

أجابه المخرج (بلاسم) وهو يرفع يديه للسماء:

ـ الله يسمع منك ويعجل علي بصحة الموت.. يمعود من فمك لباب السماء.

بذهول أسمع ما يقول زوار المريض وما يدور من حوار غير معقول لا يصدقه أي سامع لكن تحذيرات وكلمات (هندي الحلاق) جدحت في سماء رأسي وتبدد ظلام الغموض حتى علا صوت تفكيري وقلت: إنه جنون القيامة.

قاطع احتدام تفكيري الموظف (حامد) الذي يمثل دور (الدلال) وهو قصير غير بدين على وجهه ابتسامة لا تمحوها أي فاجعة أو مصيبة، طيب القلب يتحاشى أن يزعج أو يخدش أي بشر مهما كان، نهض وهو يقول:

ـ عندك الموت ان شاء الله.. ونزوركم بالمصائب والفواجع والملمات.

قال المريض (بلاسم) وهو يهم بالنهوض:

ـ بعد وقت.. ابقوا للغداء.

ردّ (حامد) وهو يعيد المريض إلى مكانه:

ـ ابقى.. ابقى ارتاح.. يوم نفرح بزفة موتك يا قادر يا عظيم..

أجابه (بلاسم):

ـ لنا ولكم إن شاء الله.. أشكرك حبيبي (حامد) هذا من طيبتك ومعزتك.. اللهم بحق كل عزيز لاتجعلنا نرى صباح غد.

كنت أتابع الحديث وهذا المنظر الغريب وكأني أشاهد مسرحية ارتجالية، ينبع الفعل والحوار بذات اللحظة من تلقاء الممثلين وعفويتهم بحيث لا

مكتبة الفكر الجديد

أحدس ولا أعرف ما سيحدث ويقع بعد لحظة، لا.. لا، مستحيل هذا تمثيل فهم من أسوأ الممثلين على خشبة المسرح، كيف صاروا برمشة عين عباقرة في الأداء وتلوين الحوار وتقمص الشخصيات كأنهم روبرت دي نيرو وتوم هانكس وجاك نيكلسن وداستن هوفمان، لا، لا، مستحيل تمثيل، ما يجري أمامي تصرف عفوي وسلوك تلقائي لا مُبالغة فيه ولا تكلف.

راح المخرج الموظف (بلاسم) يردد على الجميع:

ـ ادعو لنا.. ادعو لنا بالموت العاجل والمفاجيء والسريع.

أجابه (شلال) البخيل:

ـ غدا إن شاء الله نسمع خبر موتك بجاه الحي القيوم.

وردّ (راهي) على (بلاسم) قائلا:

ـ لا تحزن ولا تبتئس.. الموت قريب بعون الله.. أقرب من حبل الوريد.

ونبّ (مرتضى) يبنى فوق كلام من سبقوه:

ـ ربي بحق كل نبي وقديس أن يجرفكم موت جماعي ويخلو البيت من أي أثر للحياة يا سميع يا عليم.

عانقه المخرج (بلاسم) وهو يربت على كتفه ويقول:

ـ هذا يوم عيد.. ونخلص من قذارة الدنيا وأهلها.. اللهم يرزقك سرعة اللحاق بنا ونلتقي هناك يارب العالمين.

رفع (مرتضى) يديه نحو السماء، ورفع (بلاسم) يديه وسرت عدوى رفع اليدين على الجميع وراحوا يبتهلون بصوت جماعي موحد:

ـ عجّل علينا بالموت يا رحيم يا كريم ياربّ العالمين.

مكتبة الفكر الجديد

منتوجات القيامة

خرجنا من بيت المخرج (بلاسم) المجلوط حسب تعبير (راهي) وذهب كل واحد منا إلى بيته فالمخرج مريض ويتمنى الموت ما نفع الدوام إذن وما نفع الفن والمسرح؟

ساقتني قدماي لا رأسي إلى الشارع الرئيسي في (حي القاهرة) فرأيت حلقات جماهيرية غفيرة في الجهة اليمنى من الشارع. حشرت جسدي بأول حلقة صادفتها، رأيت قصاب يرتدي دشداشة ناصعة البياض ملطخة بدم ناصع الحمرة وهو يسلخ جلد خروف مفصول الرأس، يسلخه بطريقة استعراضية كأنه سيرك وسط حلقة الجمهور، الذي تتلامض عيونهم وتتمطق ألسنتهم، يقومون بحركات عشق وهيام وتلذذ أثناء تقطيع لحم الخروف وكسر العظام. التفت إلى رأس الخروف الرابض فوق بركة دم طازج، رأيت دموعا متخثرة في العينين وهو ينظر إلى جسده كيف سلخ جلده هذا القاتل الفخور المتباهي بجريمته، ينظر كيف تكسر عظامه بطبر ويفصل كل فخذ على حدة، ينظر كيف انتزع القاتل رئتيه وقلبه وكبده وانطلق يدور ويتبختر أمام وجوه الجماهير الصارخة بشهية ولوعة تتضور للحصول عليه. رأس الخروف يرى القصاب الذباح يزمجر ويتشمم قلبه

مكتبة الفكر الجديد

المخلوع وكبده المنزوع حتى أنه نهش كبده بعضة شرسة وراح يمضغ ويلوك بلذة عارمة كأنه قد وصل ذروة الشبق الجنسي. طبعا، رأس الخروف يتذكر جيدا كيف أن هذا القصاب احتضنه ورعاه منذ نعومة صوفه،وراح يطعمه كل يوم الجت والحشيش، الحمل يكبر ويخشن صوفه، يلعب ويحلم بنعجة فتاة، لكنه لم يتخيل أبدا أن هذا الشخص المربي والراعي هو نفسه القاتل الذباح.

يقول الأطباء الفرنسيون: إن الرأس المقطوع يبقى حيا لثلاث دقائق يدرك بأنه انفصل عن الجسد، ويظل يتألم بلوعة لا تعرفها شرائع الأرض والسماوات.

تركت رأس الخروف الذي بللت دموعه وجنتي ونزلت إلى فمي حتى شعرت بملوحتها وحرارتها. تركت رأس الخروف وذهبت إلى حلقة جماهيرية أخرى، انتبهت إلى أزيائهم فرأيتها خليطة من كل الأزمان، هي أزياء يلبسها الناس منذ غزو العرب للعراق واستقرار الغزاة فيه بعد ما جلبوا أهلهم وقبائلهم وفرضوا على أهل البلاد المنكوبة عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم ودينهم وأزيائهم. لذلك كانت حلقة الجمهور ما بين العمائم والقفطان واللباس الأبيض الطويل، وبين آخر الصرعات والموديلات للبناطيل والقمصان في باريس وهوليود، وآخر قصات الشعر في لندن مع أزياء مختلفة ما بين هذين الزمنين وكان العقال واليشماغ يتسيد حلقات الجمهور.

اندحست بين صفوف المتحلقين ورأيت قصاب عجول بثياب سود ناصعة السواد ملطخة بدم فاقع الحمرة ناصع، القصاب يختال ويتقلب ويتجعبن بمشيته مزهوا بريشه الأسود، يتفاخر وهو يشحذ سيفه بمبرد

مكتبة الفكر الجديد

كبير ويدور أمام عيون الجمهور، وفي وسط الحلقة عجل مربوط بحبل غليظ يحاول النهوض والتملص وفك الوثاق بحركات تهز الأرض. عيون الجمهور تتنقل مابين حركات العجل وهو يقاوم نوايا البشر وبين حركة شحذ السيف، وفجأة اهتزّ الهواء وتراجعت للوراء حلقة الجمهور إثر صيحة صاعقة أطلقها القصاب، ذكرت الناس الواقفين بالصيحة الأولى ليوم القيامة.

صاح القصاب: بسم الله... والله أكبر....

انقض على رأس العجل وذبح الرقبة، شخب الدم ونفر ملطخا الهواء والحشد والأرض وربما السماء وطبعا القصاب. جحظت عينا العجل لا من الذعر ومفارقة الحياة بل من الغدر؛ فهذا القصاب القاتل أخوه بالرضاعة، حيث كان دائما يحلب ويشرب من أثداء أمه البقرة، شربا الحليب معا وها هو الآن يقيده من أطرافه ويطرحه للأرض. جحظت عيناه من الخيانة لأن هذا الذباح القصاب أخوه بالخلق والوجود والكينونة فلماذا يشحذ السيف أمام عينيه، وها هو ينقض على رأسي ويذبحني كأنني ألدّ أعدائه، لماذا كل هذا الغدر والخيانة يا ربي لماذا؟

سألت نفسي حانقا: هل ما يدور في هذه الحلقات الجماهيرية هو جنون القيامة، الذي شرحه وفصله (هندي الحلاق) بأدقّ التفاصيل والتعابير؟ وها أنا أشاهد كلماته قد تحولت إلى أفعال جماهيرية حتى صارت حياتنا يوم قيامة دهري لا ينتهي وكأنه بحاجة إلى يوم قيامة آخر ليحل الدمار الكوني.

استحوذت على انتباهي حلقة كبيرة واسعة وسطها جمل وأربعة قصابين يحيطونه بأربعة حبال مربوطة بفخذيه، هم يدورون أمام المشاهدين الكرام حسب قول المذيعين والمذيعات، هم يحملون سيوف صحراء مرهفة باشطة

مكتبة الفكر الجديد

نقطع جلمود الصخر. القصابون الأربعة يلوحون بها في الهواء فيسمع الجمهور صريف بطشها وتناثر أشلاء الهواء، فجأة دوّى صوت راعد وانهالت أربع سيوف على أربعة أطراف الجمل فتقطعت وانبثقت نافورات الدم، سقط الجمل مرعوبا ثم نهض بعيون فزعة وانطلق يركض على بقايا أطرافه مخترقا حلقة الجمهور الذي ولى هاربا فاتحا فجوة طريق للجمل، والقصابون يسحبونه للوراء بحبالهم الأربعة. يركض الجمل مقطوع الأطراف ويركض معه القصابون، وخلفهم يركض جمهور المشاهدين حتى عبر الشارع إلى جهته اليسرى وسقط في جزرة وسطية قرب البانزين خانه، وهناك تكوم فوقه الذباحة الأربعة وحزوا رقبته وسقط رأسه ينخر ويشتم الحياة والبشر والشرائع.

لم أحتمل بعد هذا المشهد رؤية بقية الحلقات الجماهيرية، والجدير بي أن أهرب وأدير رأسي عن هؤلاء القتلة منذ رأس الخروف. صعدت بأول سيارة (كوستر) إلى باب المعظم والدم يتقطر من جسدي ومن روحي بدون أن يراه أحد. أخذت أقارن بين ذبح الحيوانات في الشوارع والمجازر وبين ذبح البشر بسيف جماعات الثقوب السود على شاشات الفضائيات والمواقع الألكترونية والفيس بوك. هل هناك فرق كبير بين الاثنين وهل نتعلم على كيفية ذبح الحيوان في الصغر لكي نذبح البشر في سن المراهقة والكبر؟

هل نحن نعشق الدم ونشبع غريزة همجية متعطشة للفتك بالآخر؟ حين وصلت (باب المعظم) لم أدخل السوق، حيث يتراشق الباعة بحصى أصواتهم وهم ينادون على بضاعتهم الأرضسماوية، دخلت الشارع المحاذي للسوق، يطلقون عليه اسم شارع المكاتب، وكانت أصوات

مكتبة الفكر الجديد

الباعة تصلني وهم ينادون على محاصيل الدنيا ونبات الأرض مختلطة مع محاصيل الاخرة والبرزخ، تركت سوق القياموت.

جلست بمقهى بلا اسم مقابل كراج باب المعظم حيث تصطف مقاه ومطاعم. دائما أتطرف بالجلوس أختار مكانا فارغا بعيدا عن الجالسين، كما أختار المقاعد الأخيرة في السيارة. جلب النادل استكان شاي وهو يقول: الله بالخير. أجبته: الله بالخير. بينما أنا على يقين بأن الله لم يواجه شرا عظيما منذ الأزل وحتى الأبد مثل هذا الشر الأسود الغارقين به الآن، لا غرابة ببزوغ فجر يوم القيامة مبكرا، وكما يقول (هندي الحلاق): الناس هنا لم يصبروا وينتظروا يوم القيامة بل ذهبوا إليه وهم يستدعونه ويستعجلونه حتى صار عندنا كل يوم عراقي هو يوم القيامة.

نحن نختنق ونموت بدون أن نشعر، نحن جميعا في غرفة غاز سام خانق، لكننا فقدنا الوعي مخدرين بالغاز حيث يغمى علينا ونختنق ونموت ولا ندري، هل فعلا حلت القيامة مثل هذا الغاز السام ونحن لا ندري، هل نبقى هكذا...

وقطع كل خيوط تفكيري وأرداني مذهولا صوت بائع فتت صخور المعقول وفرث حصى اليقين وصلابيخ المنطق. يصيح البائع بصوت يفزز الميت:

ـ آخر منتوجات العشابة: كبسول الصبر.. كبسول الصبر على عذاب القبر... دهن العصعص.. سماد القيامة.. حبوب وهم الثوب.. عوينات الجسر... تحلية الزقوم... تحاميل ذبح الموت.

راح يعيد ويكرر أسماء منتوجات العشابين بصوت يغمر جو المكان. هناك شخص قريب نادى على البائع، يبدو أنه زبون قديم ويعرفه حق المعرفة، سأله هذا الزبون:

مكتبة الفكر الجديد

ـ شنو ما عندك شرف؟

أجابه البائع بتلقائية وعبارات يحفظها عن ظهر قلب:

ـ لا والله.. بعد محد يشتري لاشرف ولا غيره ولا شهامه.. بقيت شهرين أصيح وينكَطع نفسي وينهد حيلي ولا أحد يشتري ويعاين البضاعة.

ردّ عليه الزبون القديم:

ـ يمعود.. شوف النا شرف مناه مناه.. بلكت الله وتلكَاه.

ـ الله كريم.. أدور بغراضي القديمة.. يجوز باقي شوية شرف.. بس آني أنصحك لله.. تره الشرف مضر بالصحة وهو سبب رئيسي لأمراض السرطان وأمراض الرئة.

تعاظم ذهولي وأنا أسمع هذا الحوار الفنطازي، بالكاد سيطرت على استكان الشاي قبل أن يسقط ويتهشم. رأيت البائع خفيف الشعر كأنه زغب، يلف عصابة خضراء حول رأسه ويرتدي (تراكسوت) أزرق، يحمل چنبر خشبي على شكل قبر صغير تمتلىء جوانبه بكتابات أسماء منتوجاته العشبية. أومأت له بيدي تعال، وقلت له أن يجلس هنا بقربي ويضع الچنبر الخشبي على القنفة بجانبه. أوصيت له استكان شاي ورجوته أن يفهمني أسرار هذي البضاعة ومفعول المنتوجات وماذا يعني كبسول الصبر هذا؟

انطلق البائع يشرح ويوضح بسلاسة المحترف، الذي يعرف كل شيء. يبدو أنه حفظ عن ظهر قلب كل المعلومات عن بضاعته: عندما يموت بني آدم المذنب تعصره الأرض وتضغط عليه وتكسر عظامه. يبقى معصورا محصورا وعظامه تتكسر يوميا، ثم تعود كما كانت إلى وضعها السليم السابق وتتكسر وتعاد إلى ما كانت. ويظل هكذا إلى يوم القيامة.

لذلك اخترع أطباء الأعشاب والخبراء نوعا من الكبسول، أطلقوا

مكتبة الفكر الجديد

عليه: كبسول الصبر، الصبر على عذاب القبر. وهؤلاء الأطباء والخبراء يجربون في مختبراتهم هذه الأيام على نوع دواء جديد، دواء مخدر لعذاب القبر. ثم سألته عن كريم دهن العصعص فقال وهو يحمل أنبوبة صغيرة صفراء اللون: في الكتب والروايات تمطر السماء مطرا أسود يوم القيامة، وفعلا مطرت عندنا هذا المطر الأسود، يعني نحن في يوم القيامة. يصفون هذا المطر الأسود أنه يسلخ الجلود ويتساقط اللحم عن العظام، التي تبقى وحدها تنبت في الأرض، وهذا أيضا حدث عندنا بفعل السيارات المفخخة والعبوات الناسفة، ولكن بقي أن يخرج الموتى من القبور فقط وتنبت أجسادهم.المهم تتساقط عظامهم فلا يبقى سوى عظم العصعص.

ـ أعتقد،نحن هؤلاء الموتى وبيوتنا هي القبور، نحن موتى بقينا فقط عظم العصعص، هل تتفق معي؟

لم ينتظر جوابي وهو يقلب بالأنبوبة الصفراء ويقول: هذا كريم دهن العصعص، يمنع الرطوبة عن العظام ويعجل إكساءه باللحم والجلد، كما إنه يقاوم هشاشة العظام.

قلت له أن يشرب الشاي قبل أن يبرد وسألته عن سماد القيامة؟ رفع استكان الشاي وراح يشرب ويمطق وهو يشرح بمتعة: مفعول مسحوق سماد القيامة يشبه كريم دهن العصعص من ناحية تسريع عمليات إنبات اللحم على العظم أثناء الصيحة الثانية عندما تنفتح القبور وينهض الموتى، هنا يشتغل مفعول مسحوق سماد القيامة ويكون سريع التأثير في تجميع ولملمة كامل الجسد قبيل الصيحة الثانية.

راح الأطباء والخبراء العشابة يطورون هذا الدواء لكي يقاوم تفسخ الجسد وإبقاءه بحالته الطبيعية وكأنه حي لكنه ميت.

مكتبة الفكر الجديد

كنت أجاري شروحات البائع وأنا أبتلع الصدمات المتلاحقة وأخفي دهشتي وذهولي من استفحال وباء جنون القيامة. وحالما انتهى من شرب الشاي سألته عن حبوب وهم الثوب فتدفق كلامه مثل تدفق ماء محصور فوق سد مكسور: الناس يحشرون يوم القيامة حفاة عراة حتى أنهم غُـرّل...

قاطعته مستفسرا عن عن معنى كلمة (غُـرّل) فواصل التدفق: الغرّل بعني أعضاء الذكور التناسلية غير مختونة، يعني كما خلقها الله أول مرة. لذلك سأله أحد السامعين لهذه الرواية سؤالا معقولا: كيف، النساء والرجال جميعا وينظر بعضهم إلى بعض وهم عُراة؟ فكان الجواب لاطم فاحم: إن الهول والرعب أشدّ من أن ينظر الرجل إلى المرأة وبالعكس، وهنا تكون حبوب وهم الثوب بمثابة الستر وهي تحجب الآخرين عن رؤية جسدك العاري لأنهم يتوهمون برؤية ثوب يستر العري، وكذلك تحجب وتمنع هذه الحبوب عينيك عن رؤية الناس العراة، هذه الحبوب تنسج ملابس وهمية لك وللآخرين، هي حبوب تغطي العورة عنك وعن غيرك.

اعتذرت للبائع وقلت له إني آسف جدا لكثرة أسئلتي وقد دوختك، لكني أريد معرفة أسرار هذه العقاقير والأدوية فما فائدة كبسول الشمس؟

أجابني وهو يتناول بيده شريط كبسول ذهبي اللون وشرح كيف تدنو الشمس في يوم القيامة وتصير قريبة فوق رؤوس الناس حتى يتفايض العرق من الأجساد ويغرق الجميع، وهنا تكون مناسيب الغرق حسب أعمال الشخص. منهم من يصل العرق فوق أذنيه ومنهم من يصل العرق لحد الخاصرة ومنهم إلى ربلة الساق والكعبين، ومنهم من يغرق تماما بالعرق إذا كانت ذنوبه كثيرة. لكن حبوب الشمس تجعل الجسد يطفو فوق العرق بلا غرق، يصير مثل الدولفين.

مكتبة الفكر الجديد

رمى البائع شريط حبوب الشمس الذهبي وتناول بيده شيشة زجاج صغيرة تحوي أقراص حب صغيرة زرقاء اللون وانطلق بتعريفها: هذه حبوب تمنع رؤية أهوال يوم القيامة. أطلق عليها الأطباء والعشابين اسم (فاليوم القيامة) تخلق هلوسة في الحواس، تلعب بالنظر والسمع والشم واللمس. عندما يشيب شعر الطفل من أهوال القيامة هنا تخلق هذه الحبوب هلوسة في النظر فيتحول المنظر إلى طفل يتقافز ويلعب في حديقة تسر العين وتبتهج الأذن بأصوات الطيور، ويسكر الأنف بشم أذكى الروائح والعطور. وعندما تطرح الحامل جنينها من شدة الهلع والفزع يوم القيامة ويصير عندها إجهاض، يتحور هذا المشهد إلى أم تلاعب طفلها الرضيع وهو يضحك لأول مرة. وعندما يمشي الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن من شدة الهول والرعب، مفعول الحب الأزرق هنا يسري إلى تحويل هذا المنظر إلى حانات في الهواء الطلق تحت أشجار البرتقال والرارنج حيث يمشي الناس كل يحمل قدحه المترع بالخمر ويحلم بعالم حر يخلو من جهنم. ثم رفع البائع نظارة طبية وقال: أما إذا سألتني عن (عوينات الجسر) هذه فأقول لك: هي تقوم الرؤية وتصحح المسار لأن في يوم القيامة يكون السراط المستقيم جسرا عظيما يعبره المؤمنون بسهولة ويسر، لكن الجسر يضيق ويصير مثل الشعرة لغير المؤمنين، لايستطيع أحد عبوره ويسقطون في سعير الجحيم. لكن هذه النظارات الطبية (عوينات الجسر) مصنوعة خصيصا ليوم القيامة، هي تقوي البصر لمن يعاني من بعد النظر أو قصر النظر فوق جسر السراط المستقيم، هذه النظارة توسع مساحة الجسر فيستطيع عبوره من يلبسها ولايسقط في نار جهنم.

قاطعته وأنا أغريه أن يشرب استكان شاي آخر، وقبل أن يوافق أو

مكتبة الفكر الجديد

يرفض ناديت على النادل وقلت له مع إشارة بإصبعين: استكانين شاي. ثم قلت له متسائلا عن شيشة زجاج صغيرة بقطارة تحوي سائلا ورديا، ما دور هذه الشيشة الزجاجية في يوم الحساب؟ ابتسم من جهلي وهو يقول: في جهنم شجرة خبيثة بشعة وقبيحة تفوح منها رائحة نتنة وأغصانها مثل عظام محترقة تحمل ثمار لها طعم الجيف. هنا يأتي دور دواء (تحلية الزقوم)، وهو عبارة عن زجاجة صغيرة بقطارة، كلما نظع قطرة من السائل الوردي فوق الثمرة تختفي رائحتها النتنة والطعم الجايف لتكون حلوة المذاق مستساغة عند الأكل...

لم أدعه يكمل الشرح فقد جذبتني علبة تحاميل، وسألته ما نفع هذه، عبس وتجهم وجهه وانكسرت حدة ألق عينيه وراح يهمس لي: بعدما يذهب المؤمنون إلى الجنة ويذهب غير المؤمنين إلى النار، يسمع الجميع ضجة هائلة ويرون ملائكة سودا غلاظا يجرجرون الموت وهو مقيد اليدين حتى يتوقفون بين الجنة والنار، يتقدم ملك هو أسودهم وأغلظهم فيذبح الموت من الوريد إلى الوريد، ويصيح ملك عملاق بصوت مجلجل صيحة هائلة: يا أهل الجنة لا موت، ويلتفت ويصيح: يا أهل النار لاموت. يهتف أهل الجنة غبطة وسرورا، ويزفر أهل النار حسرة وعويلا وهم يتصارخون، لكن (تحاميل ذبح الموت) هذه تمنع رؤية ذبح الموت وتخفف من وطأة الحزن والكرب.

قلت للبائع: إذا تمكنوا من ذبح الموت فلماذا لا يذبحون الذبح؟

تحسر البائع وهو يخوط ستكان الشاي وقال:

المصيبة السودة: أن الصين دخلوا على خط القيامة وراحوا ينافسون الأطباء والعشابة عندنا، وقطعوا رزقهم. إذ تسابق خبراء وأطباء الأعشاب

مكتبة الفكر الجديد

في الصين وأغرقوا السوق بكبسول الصبر، وكريم دهن العصعص وسماد القيامة وحبوب وهم الثوب وعوينات الجسر وتحلية الزقوم وتحاميل ذبح الموت. تسابق علماء الصين وطوروا منتوجات القيامة وقد طرحوا في السوق (لصقة منكر ونكير) واحدة تلصق على الكتف الأيمن والأخرى تلتصق على الكتف الأيسر، وهي ذات مفعول مزدوج إذ تمحو لصقة منكر جميع الذنوب والسيئات بينما تضاعف لصقة نكير الأعمال الطيبة. وهذه اللصقة دمرت سمعة لصقة جونسون الشهيرة واختفت من السوق. لكن عشابة الصين تمادوا في الكفر والزندقة عندما طرحوا في الأسواق (حقن الزهايمر)، فإذا تم حقن أي شخص خمس عبوات في الدم، يبدأ مفعول نسيان جهنم والجحيم والنار والعيش في جنة أبدية. وقد صدرت فتاوى تحرم بيع وشراء واستعمال (حقن الزهايمر) بل وكافة منتوجات القيامة الصينية، لكن الناس يجدونها رخيصة الثمن ومفعولها زاخر بالرحمة والشفقة.

اعتذرت للبائع لأني أخرته كثيرا وهو على باب الله، لكنه رفض الاعتذار موضحا بأن هذه الشروح والتعليقات والتعريف بالدواء والعلاج أهم من البيع والشراء ومن الفلوس، هو يروج وينشط بضاعة يوم القيامة حتى يعرف الناس ماذا يشترون وعلى أي شيء ينفقون نقودهم، وهل الدواء يسوى الخسارة والتعب؟

سألته عما دار من حديث مع ذاك الرجل الذي يبدو أنه زبون قديم وهل فعلا موجود كبسول الشرف أم إنه مجرد شعوذة ودجل؟ تثاءب البائع ومسح وجهه بكفيه وهو يشرح لي كيف أنه ترك بيع أدوية: الغيرة والشهامة والناموس والعفة والحب والإخلاص والضمائر والإنصاف. يقول البائع أنه تركها منذ حادثة جسر الأئمة التي راح فيها أكثر من ألف

مكتبة الفكر الجديد

ضحية. يقول، تركها لأسباب كثيرة منها الناس، الناس ما عادوا يهتمون بخزعبلات كما يقولون: خزعبلات الشهامة والوفاء والإخلاص والشرف ووو.. من صفات قديمة بالية كما يدعون.

لقد فقد الناس أرواحهم فلم تجدي بعدها عمليات الترقيع الروحي. صارت كل هذه المنتوجات (أكسباير) خاصة وأن يوم القيامة قد حل وصار أمرا واقعا لا جدال فيه. ومن أهم أسباب كساد بضاعتنا الأخلاقية هذه دخول الصين كمنافسة شرسة مع العشابة العرب، إذ غرق السوق بالبضاعة الصينية الأخلاقية وصارت بسعر زهيد، صار الشرف بربع دينار فقط، وصارت العفة والإخلاص والوفاء والرحمة بنصف دينار حتى راح الناس يشترونها لمجرد التخزين ووضعها في الثلاجة والمجمدة. لكن عيب المنتوجات الأخلاقية الصينية، أنها سريعة التلف في مناخنا الجهنمي هذا فهي لا تحتمل جو وشمس بلادنا، كما أن منتوجات الصين لها أكسباير شهر واحد فقط ثم تتحول إلى سموم غير أخلاقية. كذلك أن مفعولها العلاجي لايدوم أكثر من يومين فتعود الخسة والنذالة إلى الناس، تعود الكراهية والبغض والحقد، وتعود الخيانة والسفالة والانحطاط والعهر، تعود أشرس من السابق وأشد ضراوة فتتزايد نسبة الجرائم إلى أضعاف.

الصين فشلت في إنتاج علاج للديوث والقواد، طبعا ديوث في بيع الوطن بتراثه وحضارته وتاريخه، والقوادة على الضمير، لذلك تضخم عدد الدلالين لبيع البلاد وصاروا بأعداد مخيفة ترعب، لذلك راهن الجميع على ضياع الوطن من شدة إدمان السياسيين على العهر الضميري والعهر الروحي والعهر العقائدي. كثر القوادون واستفحلت علة الديوث إلى أعداد ضخمة، وهي علة تقاوم كل أنواع العلاج والدواء.

نهض البائع الذي لم أعرف اسمه ولاطلب مني معرفة اسمي، نهض

مكتبة الفكر الجديد

وراح يصيح بذاك الصوت الذي يفزز الأموات: آخر متوجات العشابين.. كبسول الصبر على عذاب القبر.. كريم دهن العصعص.. سهاد القيامة.. حبوب وهم الثوب.. عوينات الجسر.. تحلية الزقوم.. تحاميل ذبح الموت.

بدون سابق إنذار دوى صوت (هندي الحلاق) بداخلي، يستعير السماء السابعة في رأسي لإطلاق صوته الشبيه بالغناء وكأنه يبيع بضاعة أخرى غريبة عن أهل السماوات والأرض، دوى صوته من السماء السابعة لرأسي وهو يهتف: لا قيامة اليوم، لا جنة ولا نار. إنها بداية جديدة لخلق جديد فلا ترتعبوا ولا تفزعوا، أنتم الآن في الجنة وفي النار،الجنة مصالحة الضمير ومعناقته، والنار خيانة الضمير ومحاولات علسه وذبحه. الدين عند الله الإنسان. وكل الأديان اليوم بيد الكهنة يحوكون مؤامرات لقتل الإنسان. ماذا يفعل الله بدين يحتقر الإنسان؟

انفعلت وغضبت من هذا الصوت الذي اقتحمني بحيث جعلني أصيح على نفسي: هل أنا مجرد خادم لـ (هندي الحلاق) أحمل حقائب أفكاره أينما أذهب، إنه مثل شيطان يغرس ويدس آراءه وأفكاره في رأسي، هل هو واحد من آلاف الدجالين المشعوذين الذين يستحوذون على النفس البشرية بطرق ووسائل جهنمية، لكنه ضعيف ومسكين، مطارد ومطلوب حيا أو ميتا من جماعات الثقوب السود، كيف أحكم عليه بهذه القسوة والجهل. أعترف أنه تسلل إلى رأسي واحتل مناطق كبيرة من تفكيري بعدما دخل دماغي وتعاطف معه قلبي، هل أصابتني عدوى (دخان) الذي يشك بقواه العقلية ويعتبره مجرد مجنون آخر يضاف إلى ملايين المجانين، عجيب كيف انهزم عقلي بهذه السهولة أمام أول هجمة تافهة من الريبة والشك؟

مكتبة الفكر الجديد

صعاليك القيامة

كثر الهمس والحوارات المغلقة والتبسبس عن حوادث قتل طالت جماعات الثقوب السود وانكمشوا خائفين حتى سقط بعبعهم في الوحل وانكسر صيت الرعب الذي يلجم الناس. هذا ما توقعت من أخي (عناد) أن يسرني به، وأنا أسمعه ينادي علي من وراء الحائط: برعم.. برعم وينكم؟.. شنو البيت فارغ؟

أسرعت نحوه ورأيت رأس أخي (عناد) يطل مشرئبا من فوق السياج الفاصل بين بيتي وبيته. بادرني بالتحية وسألني فورا عن زوجتي (حوراء) لأنه لم يسمع لها صوت منذ أيام. أجبته عن سوء تفاهم بسيط حصل وزعلت ثم ذهبت إلى بيت أهلها.

خبأت عليه أمر رسالة التهديد وشعرت بالذنب والتقصير، ماذا أقول إذن لو اكتشف أمر (هندي الحلاق)، وهنا عندي في بيتي وهو جاري حايط على حايط ولا يدري. هل اضطر إلى إخباره بما يجري وما حصل معي أم أسكت وكل شيء يأتي في وقته؟ المفارقة الجرباء: أن (عناد) أخي يضرني أكثر مما يفيدني إذا كشفت له سر رسالة التهديد، وسر (هندي الحلاق) لأن عقله سيف بتار يشطر الحياة إلى حلال مطلق وحرام مطلق، إلى حق

مكتبة الفكر الجديد

لا يتسرب إليه باطل، وإلى باطل لا يعلق في ذيله بعض الحق. وإلى مؤمن لا يشوبه ظل كفر وإلى كافر كامل الدسم. ويصف المؤمن بأنه: شاحب الوجه، نحيل البدن، هزيل القوام. لكني أناكده وأقول: هذه صفات الحاقد اللئيم الناقم على الدنيا وأهلها. لذلك رأيت (عناد) يحاول جاهدا الزهد في الطعام والتقليل من وجبات الأكل مرة بمعاندة حق الغريزة، ومرة بالصيام لكن بطنه تجعر بلحظة الإفطار مثل حيوان خرافي فيسكتها بملء الكرش، ويبقى مع نفسه يقنعها بأنه نحيف حتى لو التهم طعام الجن والإنس، ويبقى شاحب الوجه أصفر حتى لو شرب بحيرة من عصير الرمان، حتى لو ابتلع أطنانا من الرقي الأحمر. ويصر (عناد) بأنه هزيل القوام لا تنفع معه رياضة ولا منشطات ولا مذخر فيتامينات مقوية.

سمعت الكثير ممن يسبغ على نفسه صفة المؤمن فيقول: لماذا أتعذب وأرهق نفسي بالورع والتقوى فأنا مؤمن بالسليقة والفطرة، وتنطبق علي صفات المؤمن وحاله بالضبط: أنا شاحب الوجه، نحيل البدن، هزيل القوام. إذن لماذا أمنع نفسي من الشبع والتمتع بالطعام، ولماذا أبخل على نفسي لذة النكاح وجميع الأحاديث توصي وتحث على النكاح.

هكذا هو أخي (عناد) أثناء وطيس نقاشاتنا المحتدمة، إذ يرتفع ويتعالى صياحنا إلى الشارع وإلى ساحة (الطوبى)، لكن زوجته (سهاد) أو زوجتي (حوراء) تغلقان الأبواب والشبابيك وجميع المنافذ لحبس أصواتنا المملعلة داخل الغرف تحسبا وخشية من وكلاء جماعات الثقوب السود، الذين يسجلون وينقلون كل جملة، وكلمة يمر فيها ذكر الثقوب السود،هم من بقايا جيش الوشاة لنغولة العقيدة، وقد سقط بعض الناس في هذا الفخ بسبب فلتات اللسان والغفلة والسهو وعدم الحرص أثناء الكلام

مكتبة الفكر الجديد

مثل جارنا (نافع) أبو الفلافل، الذي سمعه أحد الوشاة يقول: بأن هذه الجماعات عندهم ثقبين للتغوط واحد في الطيز والآخر في الجبين.

بنفس الليلة انتزعوا(نافع) من بيته وأعدموه في ساحة (الطوبى) ورأيت ابنه الصغير (فرقد) يهيم على وجهه ويصرخ (بابا..بابا)، ما من أحد رآه إلا وانخرط في البكاء فصراخ الصبي المفجوع يحفر الأرض ويشق السماء. وربما يكون الواشي لفق هذه التهمة لـ (نافع) لأنه رفض أن يعطيه لفة فلافل مجانية.هذا هو إرث وأسلوب الوشاية وكتابة التقارير، المهنة القديمة لدى وكلاء الأمن والرفاق الحزبيين في حكومة نغولة العقيدة للنظام السابق وبقي ذات الأسلوب معمولا به عند جماعات الثقوب السود والنظام اللاحق.

كنا ننسى أنفسنا (عناد) وأنا ونفقد أعصابنا وكأننا نخوض حرب البسوس في أواخر أيامها. بمجرد أن أقول لأخي (عناد): كيف نبني البلاد وشعار المؤمن: خرب دنياك وابني آخرتك. لكن عناد يردني بانفعال يرعد ويزبد ويشير إلى مقولة الإمام علي الشهيرة: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا. لكني أتحارش متعمدا بأخي (عناد) وأفلقه نصفين وأنا أقول: مستحيل أن تمسك تفاحة الدنيا وتفاحة الآخرة بكف واحدة. ثم كيف تعرف الحد الفاصل بين العمل لدنياك والعمل لآخرتك، وها أنت ترى الأحزاب الدينية كيف سرقت البلاد والعباد ولم تشبع، إنهم لصوص الدنيا والآخرة؟ فيقول لي (عناد): هؤلاء لايمثلون الدين. لكني أجيبه فورا: دلني على فئة أو جماعة أو حزب يمثل الدين؟

يقول (عناد) بعناد: كثيرون جدا لكننا لا نصادفهم ولا نعرفهم لأنهم الأغلبية الصامتة، ولو خليت قلبت.

مكتبة الفكر الجديد

بدون مناكدة وفي هدوء وعدم انفعال أعترف: بأن جنون القيامة تفشى لأن الجميع ترك الشطر الأول من مقولة الإمام علي (إعمل لدنياك...) وعملوا للشطر الثاني فقط (إعمل لآخرتك...) حتى صار شعارهم الوحيد.

وهناك أسباب قاتلة أخرى أحدها: تحول الدين إلى عقيدة. الدين شأن فردي بينك وبين الله، لكن العقيدة شأن جماعي من حيث هي عقد فكري أو إيماني أو شرعي بين مجموعة من الناس. هؤلاء تعاقدوا مع بعضهم وتكاتفوا وهم يؤدون طقوسا جماعية وصلوات جماعية لتكريس الالتصاق بالعقيدة. لكن العقيدة دائما ضد الدين.

الفرد يعبد الله الواحد، أما العقيدة فهي تلغي الفرد وتذوبه داخل العبادة الجماعية. وهؤلاء يقدسون العقيدة وينسون الله. فالعقيدة هي العشيرة والقبيلة هي النفوذ والسلطة والمكاسب والاستحواذ.

طبعا، جميع الأديان في البدء كانت بإنسان فرد يعبد الله، ثم انحدرت إلى عقائد حيث العبادة الجماعية التي تسحق الفرد وتطرد الله من القلب. لذلك تعسكر الدين وصار مُسلحا يهدد الناس. العجيب أن أخي (عناد) ليس من الذين يرددون المثل الجائر: (ذبهه براس عالم واطلع منها سالم) يقول إنها دعوة للجهل والاستسلام والهروب من المسؤولية، المؤمن هنا لا يريد أن يفكر برأسه هو، إنما يريد من رجل الدين (الكاهن) أن يفكر بالنيابة عنه، ويجد له حلولا لمشاكله ويسد النقص في عباداته ومعاملاته وسلوكه اليومي وتصرفاته مع الناس، يريد هنا المؤمن أن يأكل ويضاجع وينام في طمأنينة لأن رجل الدين (الكاهن) هو الحارس والكفيل، وهو من يضع له القوانين، لماذا يتعب نفسه المؤمن إذن ويفكر ما دام هناك من يفكر عنه ويقدم له حلولا جاهزة لمشاكل الدنيا والآخرة.

مكتبة الفكر الجديد

أخي (عناد) لا ينظر لنفسه من هذه الرؤية الاتكالية والزاوية النفعية لكنه يجهز نفسه بشتى أنواع الأسلحة الروحية والإيمانية والشرعية لكي ينقض على أي متشكك ناقد مثلي، فيقول: لا يعرف هذا المتشكك إنه مجرد ذرة في بعوضة يسمونها الأرض، تطن في الفضاء تدور بمشيئة وحكمة الله تعالى، مثلا أنا (عناد) أعيش داخل معجزة لا أستطيع حماية نفسي ولا حماية غيري، أنا تحت جناحي القضاء والقدر.

أحيانا تنتهي نقاشاتنا بالغضب والزعل والاحتقان ومغادرة الجلسة بلا وداع، لكننا نعود بعد يومين أو ثلاثة إلى حلبة النقاش وتتجادح الحناجر وتشب نار أصواتنا فتركض النساء صوب الأبواب والشبابيك والروازين يسدنها بأقصى سرعة حتى لا يخرج منها لهيب النقاش ويحترق البيت ببارود الوشاة وكتاب التقارير إلى جماعات الثقوب السود.

بقينا هكذا في كر وفر بلا نصر ولا هزيمة، لا أنا أتوب من عبث النقاش وأسكت وأحترم نفسي، ولا هو ييأس مني ويقرف ويشمئز ولا يفتح باب جهنم. بقينا نلعب بكرة النقاش ودائما نتعادل سلبيا بدون أهداف. انقلب أخي (عناد) رأسا على عقب واستدار مية وثمانين درجة،إنقلب من موائد شرب العرق والبيرة والويسكي، والسهر في الحانات والملاهي حتى الفجر إلى شخص آخر لا يمت بصلة إلى (عناد) الذي نعرفه، انقلب يوم سمع بشجرة سدر تنزف دما وتبكي بدموع ساخنة تبلل الناس المارة والمستطرقين والفضوليين، في كل عام تبكي الشجرة يوم العاشر من محرم، يوم قتلوا الإمام الحسين وإخوته وأبناءه وأصحابه في واقعة الطف. ذهب (عناد) مع شلة من أصدقائه الذين يسكرون يوميا إلى الشجرة الشهيرة في مدينة الثورة يوم العاشر من محرم، وهناك رأى المعجزة فجاء للبيت

مكتبة الفكر الجديد

شاحب الوجه، نحيل البدن وهزيل القوام. وصلنا يقطر دما ومضمخا بدموع الشجرة ورائحة النبق، ملابسه مبللة متعتعة بحزن السدرة. ومن يومها أقلع عن الشرب وانكب على الصلاة وزيارة كربلاء. وفي كل سنة عندما يحل يوم العاشر من محرم يقود مجاميع من الناس لرؤية شجرة السدر التي تنزف دما. صارت مزار وراح الناس يتبركون بها حتى امتلأت أغصانها وساقها بخرق خضراء مشدودة على طلبات وأمنيات ورغبات الناس لعلهم ينالون المُراد. وشاع عن أخي (عناد) بين الأهل والأقرباء والجيران أنه يقبل أي شجرة سدر تصادفه، يتبرك بها ويمسح جسده وثيابه بأغصانها وأوراقها حتى يسكره ضوع البركة. لكن شلة أصدقائه بقوا على عادتهم يشربون الخمر ويضحكون على عقل صديقهم (عناد) المخدوع بشعوذة دجالين نصبوا عليه وعلى بعض المساكين بوهم شجرة السدر التي تنزف دما يوم العاشر من محرم وتبكي بدموع ساخنة وهم يقولون ضاحكين: خوات الكحبة الدجالة يزقون أغصان الشجرة بدم الدجاج والعجول والغنم قبل يوم العاشر ويغمرونها في الليل بماء مالح لحد الغرق (فتبدأ في الصباح بعملية النتح وطرد الدم والماء مع شروق الشمس). ويتمادى أصدقاء السوء وهم يقولون لـ (عناد): نحن نتواعد في ليلة العاشر من محرم ونظل نشرب العرق ونبكي حتى الصباح. لكن صديقهم التائب (عناد) يبصق عليهم ويلعنهم ويطردهم خارج البيت وهو يصيح: كفار زنادقة ملحدين.

أنا بعكس أخي (عناد): كنت أصلي وأصوم سنة بعد سنة لكن حادثة (نافع) أبو الفلافل دمرت إيماني حين قتلوه ورأيت ابنه (فرقد) المفجوع بصراخه ونحيبه كيف تمزق أستار الكعبة وتصدع طابوق بيوت الله.

مكتبة الفكر الجديد

من هذه الحادثة أخذ إيماني يتسرب من قلبي كما يتسرب الهواء من عجلة ثقبها مسمار حاد ومدبب. تركت الصلاة بعد عذاب ومعاناة تشبه معاناة الإقلاع عند التدخين، وأيقنت أن كلاهما الصلاة والتدخين مضران بالصحة. كنت أكبر وأنضج وقميص الدين بقي صغيرا على حاله. بعدما غسلت هذا القميص كش وانكمش وصار أصغر من السابق، غسلته بماء العقل والتجارب والقراءة، أبعدني رجال الدين عن الدين لما يحدث يوميا من فضائع. جلست فوق تل الحب في عزلة طويلة أقلب الأديان وأغوص في أعماقها فوجدتها قد تحولت إلى عقائد اجتمعت كلها على قتل الإنسان بداخل الفرد، ومن ثم قتل الله بداخل الفرد. أيقنت أن الله بريء من كل الأديان الموجودة الآن، فهو ليس يهوديا ولا مسيحيا ولا مسلما ولا ينتمي لأي دين آخر. ارتكبوا أبشع الجرائم باسم الله، وقد غرقت العقائد بدم الأبرياء.

بقيت معاركنا النقاشية لم تنتهي حتى هذه اللحظة مثل كل معارك الشرق الأوسط ولا أدري من منا على صواب، لكن (عناد) بقي يحبني ويحترمني وأنا كذلك فهو المثال الحي الناصع عندي ضدّ طبقات الظلام الجاثمة على صدورنا، ظلام لصوص ومجرمين وقتلة. أحب أخي (عناد) وأحترم خياره الديني طالما لايؤذي البشر ويقسمهم إلى مرتدين وفاسقين ومنافقين ومسلمين ونصارى ويهود، ثم إلى أقسام صغيرة منبوذة تسيء إلى سمعة الله. وكنت أمزح معه بصدق اعتقادي وأقول:

ـ أنا ديني الحب، والله صديقي لا يضمر لي النار والجحيم ولايغريني ويستدرجني للجنة والفردوس.

وكان (عناد) هو الآخر يمزح صادقا ويقول:

مكتبة الفكر الجديد

ـ حرامات أشوفك في النار، تطمس وتخرج من بحار اللهب، تنادي علي فلا أسمعك وأدير وجهي عنك وأذهب، هناك لا أخ ولا أم ولا أب ولا زوجة ولا ابن.. كل واحد يحير بنفسه.. يمعود وين رايح للنار تعال وياي، بلكن الله يهديك.. تعال وياي للجنة.

ثم مباشرة غير الموضوع واستدار بانعطافة حادة خطرة وهو يسألني:

ـ برعم.. هل سمعت بصعاليك القيامة؟

نادرا ما تكون الأجواء بيني وبين (عناد) رائقة ويعم فيها السلام أثناء تبادل الحديث عن أوضاع البلاد التي يعيث بها اللصوص والقتلة بعقائدهم الملثمة حتى صارت عندنا بورصة يومية لنزيف الدم، وقد تحققت بعض علامات الساعة كما يقول (عناد) ويتساءل: هل قامت القيامة فعلا؟

اليوم جلسنا في سلام ووئام ليس مثل كل مرة حين يقودنا أتفه نقاش إلى المُهاترات والصياح، وتتطور المشادة الكلامية إلى معركة بسوس مُعاصرة بسيوف الألسن، عندها تتراكض النساء ويغلقن علينا الأبواب والشبابيك وكل ثقب يتسرب منه صليل سيوف نقاشنا. لكن يبدو اليوم أن الجوّ صحو غير ملبد بدخان معركة قادمة ولا تزخها بأمطار الرّذاذ واللعاب المتطاير من أشداقنا.

فاجأني (عناد) بهذا السؤال وجاءت (سهاد) زوجته تحمل صينية فيها استكانين شاي لأن وقت العشاء بعيد وكنا جالسين في غرفة الاستقبال. وقد اعتذرت من (هندي الحلاق) بأني سوف أتركه ساعة أو أكثر عند بيت أخي. وأنا أشرب الشاي أحاول مسك خيط ما أتذكره عن (صعاليك القيامة) حتى أجيب عن سؤال (عناد) من دون مبالغة بصيتهم الذي راح يكتسح كل بضاعات سوق الخطر ويحل محله، ولا أريد أن أقلل من شأنهم

مكتبة الفكر الجديد

وأتهاون عن ذكر صدى أفعالهم، التي احتلت الصدارة في كل همس بين اثنين أو بين جدران البيوت، لقد صاروا الخبر الأول في وكالات القيل والقال، تتناقل أخبارهم بلغة العيون وندس الكوع بالإشارات والرموز خوفا من جماعات الثقوب السود. لكن بعد ثلاثة أشهر سدت أخبارهم الآفاق وهي تذاع بصوت جهور وعالي في سيارات (الكيا والكوستر) والمقاهي والأسواق والدكاكين، وعند تجمعات الناس أمام وكلاء الحصة التموينية وفي المدارس والجامعات في كل مكان خصب تنمو فيه الإشاعة وتكبر بحيث يتم تداول الخبر قبل الحدث.

استغل (عناد) فترة صمتي وأنا ألف خيوط (صعاليك القيامة) على بكرة الذاكرة وقال: اسمع الناس يقولون إن (صعاليك القيامة) أشرس وأقسى من جماعات الثقوب السود عند قتلهم. وضعت استكان الشاي في الصينية فارغا وقلت:

قبل أيام قليلة تعرفت إلى شخص اسمه (هندي الحلاق)، أعتبره كنز وطني، ومنجم عالمي للمعلومات والأخبار والأحداث والقصص، العجيب هو يعرف كل شيء نريد معرفته. كم بودي لو تتعرف عليه. المصيبة الغاشمة أن جماعة الثقوب السود حاولت قتله قبل أيام ونجا بمعجزة سماوية وأرضية، سوف أحكي لك فيما بعد كل القصة. لأول مرة أسمع (صعاليك القيامة) بصيغتها الموثوقة من لسان (هندي الحلاق) عندما جرنا الحديث إلى كيفية الثأر والانتقام من جماعات الثقوب السود التي أدخلت البلاد في غابة من الكوارث، وإذا بلسانه ينفتح على مصاريعه وهو يخبرني كيف أن الأخبار تأتيه وهو جالس في البيت، تدخل الأخبار بلحمها وشحمها مع الأحداث والمعلومات والقصص وتجلس بقربه،

مكتبة الفكر الجديد

تبوح له بكل سر وأمر. ومن كثرة ماترد عليه يوميا من أحداث تكدس بعضها فوق بعض، راح يخلط فيما بينها وتتشابك عليه خيوط نقلها وسردها من مصادر كثيرة مثل أحداث السيارات المفخخة والعبوات والاغتيال بالكواتم وأحداث الخطف والإعدامات الليلية وضحايا مجهولي الهوية، حتى ترد أحيانا بعض الأخبار تطوف معومة مقطوعة عن الزمان والمكان ومثل هكذا أخبار وأحداث تبقى عائمة إلى أن يثبتها (هندي الحلاق) بمسامير الزمان والمكان ويدقها على حائط البلاد. أما عن (صعاليك القيامة) فأخبارهم مؤكدة وشبه مؤكدة لكن بعض الأشخاص القريبين منه تطوعوا من تلقاء أنفسهم وصاروا وكالات أنباء متنقلة تبث إشاعات هم لفقوها وصنعوها للثأر والانتقام من جماعات الثقوب السود لنشر الذعر والرعب في صفوفهم والحد من استهتارهم بأرواح الناس. واكتشفت أن (صعاليك القيامة) يتخذون من البيوت المقصوفة والمهدمة وهياكل البناء على أطراف مدينة (الحسينية) ملاذا وسكنا يباتون ليلتهم فيها مثل منطقة (الحرس) وأطراف (الجريحي) المطلة على مشروع الماء وعلى مقبرة (محمد سكران).

أجمعت الأخبار والروايات والمعلومات كلها على لحظة ولادة (صعاليك القيامة) عندما اختطفوا شاب اسمه (حديد) في ليلة عرسه. تقول الأخبار: بعدما زفوا العريس وتفرق الناس وأظلمت الدنيا جاءت سيارة خضراء توقفت أمام بيتهم ونزل منها أربعة شباب صغار، قالوا لأم (حديد) وأخوته أنهم أصدقاؤه جاؤوا لمباركة وتهنئة العريس، واعتذروا عن التأخير لأنهم كانوا في مأتم شهيد. لكنهم أخذوا العريس (حديد) ولم يرجع للبيت ولعروسه. يقول أحد جيرانهم أن جماعة الثقب الأسود ساقوا

مكتبة الفكر الجديد

(حديد) خلف السوق (الجبير) واطلقوا رصاص على رأسه وفي صدره، ويختم قوله بأنه لا يعرف لحد الآن مصير جثة حديد، لكن (هندي الحلاق) يواصل قصته الخبرية التي صارت سالفة على كل لسان خاصة وهو يبدأ بجملة فخمة: لم يمت (حديد) بل صار أمة. رصاصة الرأس ثقبت القذل وخرجت من الرقبة بدون أن تمس الدماغ، ورصاصة الصدر مرت من بين الأضلاع السفلى بعيدة عن القلب، لم يمت (حديد) برغم النزيف وتدفق الدم وبالصدفة مررت من هناك دورية أمريكية بثلاث سيارات (همر)، وقد سمعوا صوت الرصاصتين فجاؤوا إلى مصدر الصوت، وسلطوا الأضواء الكاشفة على المكان فلاحظوا حركة، اقتربوا واكتشفوا مُصابا ينزف ويتلوى على الأرض فوق المزبلة. أنعشوه بسرعة ثم أوقفوا النزيف وهم بطريقهم إلى الثكنة حيث المستشفى المتنقل. مر شهر وثلاثة أيام جاءت نفس الدورية الأمريكية وسلموا (حديد) إلى مركز شرطة (الشعب)، ومن هنا استطاع الهرب بلا اسم وبلا عنوان ولا صور، الملعون (حديد) يراقب أهله كيف يذهبون يوميا إلى الشرطة في دائرة الطب العدلي، يسألون عن جثة ابنهم. كان الملعون يبكي على حالهم ويبكي على نفسه وعلى آلاف العوائل التي تنتظر أمام الطب العدلي لعلهم يفوزون بجثة ابنهم. بعدها تطورت هذه الدائرة، وراحت تصور وجوه وأجساد الجثث تعرضهم على شاشة كبيرة مثل السينما وأهالي الضحايا يتفرجون ويشاهدون فيلم الموتى فقد يرون جثة ابنهم، وفيما بعد أطلقوا عليها اسم (سينما المغدورين).

ويختم أحد جيران بيت (حديد) قصته الخبرية التي صارت سالفة على كل لسان: اتخذ (حديد) مقبرة (محمد سكران) مكانا للمبيت برغم أنها مرتع للحيوانات الجائعة وهي خلف مشروع الماء في نهاية (الجريحي) في

مكتبة الفكر الجديد

مدينة (الحسينية). هناك وجد (حديد) ما يشبه السرداب عكف على تنظيفه وتأثيثه بجوار قبر طفل قرأ اسمه على الشاهدة: (الطفل وحيد طه حسين). وراح يحتضن الطفل كل ليلة وينام. بعدها رتب وأخفى السرداب وحفر له باب خشب وتنك يسده ويموهه بطابوق وبلوك وحصى كبير.

غبش(حديد) إلى مسطر (البياع) لعمال البناء يخفي وجهه بيشماغ رمادي منقط بالأسود، يقول بعض المؤرخين أن هذا اليشماغ أصله سومري مصنوع على شكل شبكة الصيد التي يستخدمها الصيادون السومريون في أهوار الجنوب، فعلا هي تشبه شبكة الصيد.

أطلق (حديد) لحيته وحلق شعره ولبس ثيابا تشبه ثياب جماعات الثقوب السود، لبس ثياب العدو يتنكر بها، وأطلق اللحية قناعا يخفي بها وجه الغضب والانتقام. لكنه بعد شهرين زهق من ثياب العدو ونزعها كما لم يعد يطيق قناع اللحية. ارتدى ملابس العمالة: قميص وبنطلون وكاسكيته يستخدمها عمال البناء، ألوانها ميتة لا تثير أي مرتاب شكاك. استثمر كل طاقته في التحول إلى شبح في الثياب وفي الصمت وفي طريقة المشي والجلوس والأكل والشرب. حاول بكل جموح خياله إلى استخدام ممحاة عملاقة يمحو بها جسده جزءا بعد جزء، يمحو نفسه من العائلة ومن الأقرباء والأصدقاء، يمحو نفسه كشخص عادي يسكن في بيت، يمحو نفسه من الشارع ومن المجتمع والبلاد، يمحو نفسه من الدنيا والعالم والكون. كل عمليات المحو هذه حتى لا يراه أحد، ولكي يستطيع رؤية نفسه جيدا بكامل جسده وروحه غير منقوص كما كان قبل حادثة اغتياله. يشعر (حديد) قبل ليلة عرسه واغتياله بوجود نقص فيه: شيء ينقصه وهو في البيت والمنطقة، وهناك في معهد التكنولوجيا مع الطلاب يشعر بشيء ينقصه، وهنا في مدينة (الحسينية) في منطقة (السكلات) مع

مكتبة الفكر الجديد

أصدقائه يشعر بوجود نقص لا يعرف كنهه وماهيته. وعندما تخرج من معهد التكنولوجيا وانضم إلى جيش العاطلين فتح له بسطة لبيع ملابس الأطفال في منطقة (الشورجة) أمام كنيسة القديسة مريم قرب السوق العربي، هنا مع زملاء العمل يحس بنقص يغص به. أينما راح وصعد ونزل تناهشه ذئاب النقص، وهو لا يعرف أي علاج لها وأي حل ودواء. وها هو الآن يمحو كل العاهات نقصا بعد نقص لعله يتحول إلى شبح.

اشتغل عامل بناء في أماكن متفرقة من مدينة (البياع) وحي العامل حتى صار عنده أكثر من تسعين ألف دينار. ترك العمالة وأدوات الشغل لكنه بقي بملابس عمال البناء. يقضي الليل في المزابل ومكبات القمامة يفتش بين الجثث عن أحياء مصابين مثل حالته. راح يتردد إلى مكان إعدامه في المزبلة الكبرى خلف السوق (الچبير)، وهو يتفحص بقلب متحجر الجثث التي أعدمتها جماعات الثقوب السود، يقلب الجثث ويجس نبضها ويتحسس تنفسها لعله يعثر على جسد حي أخطأ الرصاص قلبه وخدش فروة رأسه. عثر على جهاز (موبايل) قرب جثة معدومة أثناء جولاته الليلية في المزابل وساحات الإعدام مثل ساحة (الطوبى). اتصل بأهل الضحية المعدوم يخبرهم بمكان ولدهم قرب متوسطة الغزالي في ساحة المستنقع وكشف لهم بأن جماعات الثقوب السود هم من قتل ولدهم.

احتفظ بجهاز الموبايل بعدما حذف أرقام وأسماء الموجودين فيه، لكنه شك برقم كان آخر من اتصل بالمقتول. اشترى شريحة جديدة (سيم كارت) وضعها في الموبايل. وفكر بنصب فخ لصاحب الرقم المشبوه لكي يتأكد من شكه لعله رقم القاتل.

مكتبة الفكر الجديد

اتصل (حديد) بذلك الرقم المشبوه وانتظر حتى يجيب، وفعلا زجره صوت قبيح يقول:

ـ منو؟ أجابه حديد بالتحية:

ـ السلام عليكم.

فرد الصوت القبيح التحية من وراء خشمه:

قال حديد بنبرة همس وخوف:

ـ عندي تبليغ على بيت دعارة.. لا أستطيع أن أعطيك العنوان بالتلفون، تعال وحدك حتى لا يشكون فينا ولا يعرفوا بأني الواشي والمبلغ عن الدار.. هل تأتي أم لا؟

قال الصوت القبيح:

ـ مصيري جهنم وبئس المصير إذا رفضت اللقاء.. أين نلتقي؟

قال (حديد)

ـ الساعة الواحدة بعد أذان الظهر قرب مطعم الأمير وسيارات الجيب (للجريحي)

في أمان الله.

في أمان الله.

قبل أن يبدأ (حديد) جولاته المكوكية على المزابل وساحات الإعدام اشترى سكين طويلة مع غمدها وربطها في ساق رجله اليسرى.

في الساعة الواحدة ختل (حديد) وراء سيارة (واز) ينتظر شكل صاحب الصوت القبيح وهو يحدق في الأشخاص القريبين من سيارات الـ (جريحي)، إذ لمح أحدهم لا يصعد في أي سيارة كأنه ينتظر أحدا، هذا

مكتبة الفكر الجديد

يعني هو صاحب الصوت القبيح، يرتدي هذا الشخص قميص رمادي وبنطلون أسود مع لحية خفيفة، لم يصعد في سيارة (الجريخي) ويتلفت يمنة ويسرة، اقترب منه (حديد) واتصل برقمه ليطمئن بأنه هو. سمع رنين جهاز الموبايل وقبل أن يجيب بادره (حديد) بالتحية يصافحه، ثم صعدا إلى السوق (الچبير) في سيارة جيب. قال صاحب الصوت القبيح:

ـ اسمي خالد.

أجابه حديد:

ـ تشرفنا.. أنا اسمي (ناظم)

سأله خالد:

ـ وين بيت الدعارة هذا.. بيا منطقة؟

دله (حديد): إنه يقع في منطقة (السكلات) مقابل ثانوية الرافدين. أخذه (حديد) إلى شارعهم الذي فيه بيتهم، وتوسل إلى ربه مع نفسه أن لا يرى أحدا من أهله لا أمه ولا من أخوته، لم يخاف من رؤية أبيه لأنه معوق أسير الفراش والعربة المدولبة.

تسارعت أنفاس (حديد) وصب العرق من تحت قذاله ينزل على عموده الفقري، حمد الله بحرارة عندما لاحظ خلو الشارع وأبواب البيوت مسدودة.انحنى يشد قيطان حذائه وقد سبقه (خالد) بخطوتين، التفت ورأى (حديد) منحنيا على حذائه فأدار وجهه للأمام ينتظر بخطوات بطيئة. هنا امتشق (حديد) السكين من تحت بنطاله وبخفة ذئب انقض على رقبة (خالد) وذبحه وهو يسد فمه لئلا يصرخ ويخرج الناس.

انطرح (خالد) على الأرض يرفس والدم يتفايض من حوله، يخبط بيديه لكن (حديد) رفسه على رأسه وسكت ينزف كل دمه. أسرع (حديد)

مكتبة الفكر الجديد

وأخذ مسدسه وجهازه الموبايل ونقوده قبل أن تتلوث بالدم. أفرغ جيوب الجثة ورجع يمشي بهدوء تاركا لأهله أمام البيت نيشان الثأر. ترك جثة أحد جماعة الثقب الأسود الذين قتلوا العريس بليلة زفافه، هل سيدرك أهله شيفرة هذه الرسالة؟

مكتبة الفكر الجديد

خيانة الضحية

وجدت اخي (عناد)غارقا مستسلملا يصغي لإسطورة(صعاليك القيامة) وأنا استيعد بذهني سؤال: هل سمع أحد بدم ينتحر فتصاحبه موسيقى نازفة اندلعت من كمان يتيم، انتحر لعدم النظر إليه والاكتراث به، ولعدم السؤال، سؤال فقط: دم من هذا؟

هكذا يتساءل (هندي الحلاق) وهو يتذكر جريمة ذبح الموسيقي(وحيد الله سعدي) في الأعظمية، لكنه استدرك وعاد إلى (حديد) الذي ترك جثة (خالد) كعلامة شاخصة في محطة الانتقام لقطار الضحايا السريع الذي لا يتوقف جريان نزيفه إلى في محطات الثأر.

بعد جثة (خالد) بدأت مدينة (الحسينية) تصحو على جثث جماعات الثقوب السود، وعصفت بهم رياح القتال وتراشق الاتهامات فيما بين جماعة وجماعة من الثقوب السود، وكادت أن تنشب حرب عصابات يكون حطبها الناس الأبرياء فهم دائما وحدهم الضحايا، سوف يكونون طعام العبوات الناسفة والهاونات والقاذفات. راحت كل جماعة تتهم الأخرى بأنها وراء تزايد الجثث، ثم اكتفوا بجولات انتقامية في قتل متبادل: أنتم

مكتبة الفكر الجديد

تقتلون واحد نحن نقتل واحد، وإذا قتلتم خمسة نحن نقتل خمسة. هكذا اتفقوا بدون كلام ولا وثيقة أو معاهدة على توازن شرف الاغتيال.

(حديد) قتل (خالد) لوحده، أما بقية قتلى جماعات الثقوب السود فكانت بيد (صعاليك القيامة) الذين تزايد عددهم فقد عثر (حديد) على سبع جرحى في أماكن متفرقة من المزابل وساحات الإعدام، هؤلاء مثل حالته فقد تعرضوا للخطف ثم القتل، أنقذ منهم خمسة وتوفي اثنان. تعرف على معاون طبيب اسمه (قهار) تقع عيادته مقابل شرطة الزهور في شارع فرعي. تعرف عليه عندما سقط (حديد) فوق كومة أسلاك شائكة في إحدى جولاته الليلية،لم ينتبه لوجودها في ظلام حندس. جميع من يعرف (حديد) أيقن أنه ميت حتى وإن لم يعثروا على جثته لا في المزابل ولا ساحات الإعدام ولا في الطب العدلي، لو رآه أخوه مستحيل أن يخطر في باله أن هذا الشخص (حديد) بعدما استبد بوجهه من تغيير وتلاعب إضافة إلى الظروف التي حفرت ملامحه بقسوة من مبيت في مقبرة (محمد سكران) ورؤية الجثث كل ليلة وحكايات الضحايا التي تحجر الوجه. كما إنه حلق شعر رأسه وأنبت لحية خفيفة ويرتدي قبعة العمالة مرة واليشماغ الجنوبي مرة أخرى، وإذا ما تعرف عليه شخص متفرس حذق سوف يظن أنه شخص آخر يشبهه.

تعاطف معاون الطبيب (قهار) مع (حديد) وهو يعالجه ويداويه يوميا من الجروح والخدوش التي سببتها الأسلاك الشائكة. وبعد مراوغة ودوران في تبادل الحديث وانطلق (حديد) يشرق ويغرب حتى استدرج (قهار) ليعترف بأنه يمقت جماعات الثقوب السود أشدّ المقت وعنده استعداد لفعل أي شيء يكسر بطشهم.

وبعد حوار طويل تمخض عن اتفاق سري: حالما يتصل به (حديد)

مكتبة الفكر الجديد

بالموبايل يحضر (قهار) في المكان المحدد خاصة وأن (قهار) لديه سيارة. بهذه الطريقة أنقذوا خمسة من سبعة جرحى أعدمتهم جماعات الثقوب السود. وزعوا الجرحى على عدة مستشفيات في بغداد من خلال علاقات (قهار) ومعارفه حتى تماثلوا للشفاء وأبدوا استعدادهم للثأر والانتقام من القتلة، وقد حذرهم (حديد) من الذهاب للبيت لأن جماعات الثقوب السود تصلهم الأخبار السيئة برمشة عين من خلال جيوش الوشاة فيخطفونهم مرة أخرى ولن يخطئوا هذه المرة حتى يدفنوهم. وافق ثلاثة على خوض المغامرة والفتك بالقتلة، وتردد اثنان تركهم (حديد) ليفكرا طويلا ثم يتصل بهما فيما بعد. هكذا كثر عددهم خاصة لحظة بدء الهجوم الليلي على فرق الإعدامات من ملثمي جماعات الثقوب السود. أول كمين نصبه الأربعة خلف كوم تنك وبراميل زبالة وراء جامع (نبي أيوب).

ها هي سيارة سوداء تقف أمام تل زبل، نزل منها ثلاثة مسلحين ملثمين، مشى أحدهم ببطء وهدوء إلى صندوق السيارة، وقبل أن يفتحه هجم عليه الأربعة ودارت معركة سريعة ضارية بالسكاكين وأخمص البنادق الرشاشة فلم يستطع أحد من جماعة الثقب الأسود أن يسحب أقسام البندقية ويضع سبابته على الزناد والضغط عليه ماعدا واحد كان قد هيأ رشاشته في السيارة لأنه من سيقوم بقتل المخطوف، وحالما وضع هذا سبابته على الزناد طعنته سكين (حديد) في قلبه، وكل ما قدر عليه رشق صلية رصاصات للأعلى نحو السماء.

التفت لأخي (عناد) وقرأت في عينيه اللهفة والإغراء والشوق لمعرفة مصير أبطال (صعاليك القيامة)، وقلت له بأن سؤال مسرح وسينما نطّ من لساني فسألت (هندي الحلاق)، وقلت:

مكتبة الفكر الجديد

لابد من مشاهدين،لا يوجد حدث بلا مشاهدين حتى لو كان في الصحراء فهناك مشاهدين من النجوم والرمل وعيون سباع وضباع وحيات وحشرات كلهم يشهدون على ما يحدث. إذن لا بد من مشاهدين، حتما هناك ناس يتفرجون من الشبابيك ومن فوق الأسيجة والسطوح، يتفرجون على ما يحدث ويدور، وغدا يستيقظون مع الديكة والدجاج، يتهامس الرجال عما حدث ليلة أمس، وتبتكر النساء ألف عذر وحجة للتزاور واللقاء حيث تكت الواحدة منهن أسرار ليلة البارحة، يفرغن ما في صدورهن وما رأت عيونهن من أحداث الأمس: كيف خرجت أربعة أشباح من قلب الظلام وجندلت المسلحين برمشة عين، ثم فتحت صندوق السيارة السوداء وأخرجت رجل أشيب الشعر مقيد اليدين وفجأة ابتلعهم قلب الظلام واحترقت السيارة وراءهم.

هكذا ازداد العدد وكثر المنتقمون والثوار بعدما تكررت حوادث قتل القتلة وانقاد المخطوفون في ساحة (الطوبى) ومزابل السوق (الچبير) وساحة جامع (نبي أيوب) وجامع الصبار ومدرسة الغزالي.

كان ضمن المخطوفين والمرشحين للإعدام الذين تم إنقاذهم من قبل (صعاليك القيامة) في اللحظات الأخيرة: كتاب وصحفيين وشعراء وروائيين، بعضهم انضم مع (صعاليك القيامة) واكتفى البقية بالتحالف معهم عن بعد بالمساعدة المالية والكتابة عنهم في الصحف والمجلات، وتزويدهم بأسماء بعض المثقفين ممن باعوا أنفسهم لجماعات الثقوب السود، بينهم روائيين وشعراء وصحفيين وكتاب. كان هؤلاء في طليعة من خان الضحية وبرر عمليات القتل والخطف بالقول: هم انتحروا بيد المجاهدين ويستحقون هذا المصير.

مكتبة الفكر الجديد

هؤلاء الغطاء الثقافي لجماعات الثقوب السود، هم من أطلق على سفك الدم اسم الجهاد، هم من أضفى على المجرم صفة المؤمن، وقلب اسم الجريمة إلى معجزة سماوية. هؤلاء من يكتب أسماء الأبرياء ويسلمها لجماعات الثقوب السود لخطفهم وقتلهم أو اغتيالهم كما حدث مع كاتب معروف يعمل في وزارة الثقافة ترك الجنة في السويد وجاء لبلاده بعد سقوط نغولة العقيدة جاء إلى قلب الجحيم على أمل ابتكار مضخة حب عملاقة لإطفاء جهنم، لكن جماعات الثقوب السود تصدت له فوق جسر الطريق السريع قرب النهضة واغتالوه ليتدفق نزيف الأمل يقطر فوق جهنم بلاده.

لقد لجأت جماعة الثقوب السود إلى أسلوب الاغتيال بمسدسات الكاتم والقناصة عندما انهزموا أمام (صعاليك القيامة). وقتها قال (حديد) لمن معه من الصحفيين والكتاب والشعراء والروائيين:

خيانة الضحية أبشع من قتله.. وهي ثلاثة أنواع: الأولى إعطاء اسم الضحية إلى جماعات الثقوب السود.. والثانية تشويه سمعة الضحية بعد القتل.. والثالثة دفن الضحية في بحر من النسيان.

ارتكب بعض المثقفين هنا عندنا جريمة عالمية عندما حولوا ضميرهم إلى مقبرة للضحايا، وعملوا ليل نهار على طمر هويتهم وحادثة قتلهم، ثم استبدالهم بضحايا مزيفين، مستخدمين لغة عالية في التسويف وطمس فم الدم. لقد أتلف هؤلاء أضخم ملف للاستهتار بالإنسان منذ بدء الخليقة ولحد الآن. لقد زوروا التاريخ وجعلوا القاتل السفاح مجاهد فذ بطل، دمروا ذاكرة البلاد بأقلام نووية. ماذا نفعل بهؤلاء الصحفيين والكتاب والروائيين والشعراء ماهو العقاب الخالد والمدوي لهؤلاء خونة الضحية؟

مكتبة الفكر الجديد

فكروا معي في عقاب غير القتل لكسر أقلام المزورين هؤلاء، ومنعهم من تلطيخ سمعة الضحايا، ومن دفن الدم البريء بين سطور كتبهم العفنة. المصيبة النوبلية أن بعض دواوين الشعر لهؤلاء نالت جوائز عالمية، وبعض الروايات المزورة لدماء الضحايا نالت جوائز عالمية.. كتب تتملق القاتل وتحرض على قتل الضحية وهو في القبر، إنه القتل المعنوي، الدفن الروحي ومحو الاسم لكي يصدق الجميع بعدم وجود ضحايا.

دوى وانتشر صدى جولات (صعاليك القيامة) في أحياء بغداد وفي المحافظات بعد حادثة نبش جثة الموسيقي (وحيد الله سعدي)، وزوجته المعلمة في مدينة (الأعظمية) وهي واحدة من أبشع جرائم جماعات الثقوب السود: وشى بهما جارهم (طارق عبد الرحمن) عندما استقدم ثلاثة ذباحين من (الفلوجة). دلّهم على بيت الموسيقي وهو يقول:

هذا الكافر المرتد يعزف الموسيقى يوميا بعد الغروب بدل قراءة القرآن.. ولم أشاهده يتوضأ أو يصلي.. وزوجته لعينة سافرة بلا حجاب ولا نقاب.. تسرح وتمرح لا رقيب ولا حسيب.. هذا الموسيقي وزوجته يفسدون أجيالنا ويخرجونهم عن السراط المستقيم من خلال تعليمهم دروس الموسيقى بينما نحن بأمس الحاجة إلى دروس في الجهاد.

(طارق عبد الرحمن) هذا، يطمع بمصادرة بيت الموسيقي (وحيد الله سعدي) وتسجيله باسمه بصفة غنائم. وهكذا اختبأ الذباحون الثلاثة من جماعات الثقوب السود القادمين من مدينة (الفلوجة) في بيت (طارق عبد الرحمن)، اختصاص هؤلاء الثلاثة هو الذبح بفصل الرأس عن الجسد بتقنيات السيف الشريف في العلم السعودي. جنّ الليل وتمدد الظلام فوق بيوت الأعظمية حيث يرتجف أهلها من غزوات المجاهدين من

مكتبة الفكر الجديد

أمثال هؤلاء الذباحة الثلاثة، الذين قفزوا الآن بعد الساعة الواحدة ليلا من فوق السياج إلى بيت الموسيقي (وحيد الله سعدي) كسروا بهدوء جميع أقفال الأبواب ودخلوا غرفة النوم، وبخفة خبير متمرس ذبحوا الموسيقي وزوجته على فراش النوم، تدفق دم حار فوار يتصاعد منه البخار وفجأة انطلقت موسيقى هائجة لعاصفة وسط بحر أحمر مربد مزبد، موسيقى دوت في أرجاء البيت وزواياه أربكت الذباحين الثلاثة وهم يتلفتون من أي جهاز شيطاني هدرت وملأت البيت بأنغام لحن لا يطاق حتى أنهم سدوا أذانهم، سدوها لحين ما توقف النزيف عن آخر قطرة دم من جسد الموسيقي (وحيد الله سعدي)، وجسد زوجته. لم ينتبه الذباحون الثلاثة أثناء ما سدوا آذانهم إلى الدم وهو يخرج من باب البيت للشارع، لم يُلاحظوا هيجان الدم وهو يتراكض مخبولا على إيقاع صداح الموسيقى وكأنه يتلمس الدرب صوب الينابيع الأولى، إلى كهف مظلم تتحلق بداخله الأسرار حول موقد الدم.

حالما انبثق الدم من الجسدين تعانقا في مجرى واحد تائه لا يعرف إلى أين يتجه ولا في أي أرض يصب، بقي الدم يطوف حول حياة مهدورة توا لا يعرف ماذا يفعل فانطلق خارج البيت والموسيقى تصاحبه إلى خواء صادم، التفت الدم يمنة ويسرة لا أحد يرى لا أحد يسمع، لا شيء سوى الخواء في خواء في خواء. نظر إلى السماء فاصطدم بلا مبالاة عظيمة شاسعة سوداء زرقاء مثقوبة بنجوم تنزف الضياء. اكتشف الدم أنه وحيد مثل اسم صاحبه (وحيد الله سعدي) لا أحد يكلف نفسه بنظرة واحدة إليه، عندها نط إلى أقرب فتحة مجاري وانتحر. حالما انتحر الدم توقفت الموسيقى ورفع الذباحون أيديهم عن أذانهم فغرق البيت في صمت فادح وسكون جارح.

مكتبة الفكر الجديد

حفر الذباحون نقرة تحت شجرة التين ودفنوا الجثتين بتراب لزج وطشوا فوقها عشب الثيل، لم ينتبه أي أحد من الأحياء والأموات إلى بوم يراقب كل شيء من فوق غصن شجرة التين.

وفي الصباح أخرج (طارق عبد الرحمن) عقد إيجار مزور باسم الموسيقي (وحيد الله سعدي) لكنه سقط في فخ نصبه لغيره، إذ رفض الذباحون الثلاثة مغادرة البيت وهم يقولون: سيكون هذا البيت حاضنة وقاعدة انطلاق لقيام الدولة الإسلامية..وستكون ياطارق خادما أمينا لسر الخليفة رضي الله عنه بعدما نفتح بغداد إن شاء الله ونقضي على الكفار.

لم يتوقع (طارق عبد الرحمن) انهيار طابوق الخطط على رأسه، انهار جهد سنة كاملة وهو يخطط ويرتب ويحضر لهذا الفخ المحكم، لم يخطر في باله أبدا أن يسقط هو بالفخ وإلى الأبد، إذ لا مخرج ولا مفر من المجاهدين الذباحة. لكن مستحيل أن يستسلم هكذا بسرعة، لابد من ثغرة أو كوة لهذا الفخ فاضطر إلى إخبار صديقه (عمر) الذي يعمل في مطعم فلافل وقال له:

ـ هناك ثلاثة من جماعات الثقوب السود ذبحوا الموسيقى (وحيد الله سعدي) وزوجته.. وهم الآن يحتلون بيته.

قبل شهرين أنقذ (صعاليك القيامة) (عمر) من الإعدام خلف جامع (المُهاجرين) في الغزالية بعدما قتلوا فرقة الإعدام من جماعات الثقوب السود، هم خمسة يرتدون الزي الأفغاني. وها هو اليوم (عمر) يرد الجميل ويبلغ عن الذباحين الثلاثة وحاضنهم (طارق عبد الرحمن).

في الليل تسلل أربعة من (صعاليك القيامة) بعد الساعة العاشرة إلى بيت (طارق عبد الرحمن) وخنقوه بصمت وهو يرفس في الهواء. ثم عبروا

مكتبة الفكر الجديد

السياج إلى بيت الموسيقي المحتل من قبل الذباحين الثلاثة. نظروا إليهم من خلف زجاج الشباك في (الهول) وجدوهم جالسين على الأرض فوق سجادة حمراء أمام علب ذهب ونقود عراقية ودولارات، ورشاشاتهم الكلاشنكوف فوق الأرائك. انقضوا عليهم يضربونهم بأخمص البنادق وقيدوهم للخلف، وبدأ التحقيق معهم وانتزاع الاعترافات حتى أفرغوهم من كل المعلومات من معسكرات تدريب لجماعات الثقوب السود على تفخيخ السيارات وصنع العبوات الناسفة في الحي العسكري في الفلوجة. وأخذوا عناوينهم في أي حي وشارع من مدينة (الفلوجة) وعن رفاقهم القتلة في الأعظمية والغزالية وشارع حيفا، والمصيبة الربانية أن (صعاليك القيامة) الأربعة اكتشفوا أن الحواضن الآمنة لجماعات الثقوب السود هي الجوامع والمساجد، التي تحوي ورش تفخيخ السيارات والعبوات، وتنطلق منها فرق الاغتيالات والإعدامات والخطف وتوزيع القناصة فوق منارات الجوامع.

بعدما تقيؤوا كل ماعندهم من معلومات وأسرار وسجلها الأربعة صورة وصوت شنقوهم بحبال تتدلى من فوق السطح. ثم نبشوا جثة الموسيقي (وحيد الله سعدي) وجثة زوجته وضعوا عليها شراشف بيضاء ووضعوا آلة كمان قرب جثة الموسيقي. وفور شروق الشمس أخبروا الشرطة عن جريمة وقعت في بيت خلف منطقة السفينة في الأعظمية.

وقعت حوادث مشابهة نفذها جماعات الثقوب السود، هدف الجرائم كان للسرقة والنهب والسلب والاختطاف يغلفونه بسيليفون الجهاد والدين، وقعت هذه الجرائم في مدينة (المنصور) و(الفضل) و(الكاظمية) و(الدورة) و(الشعلة) و(العامرية) ومدينة (الثورة)- الصدر.

مكتبة الفكر الجديد

تنفست بغداد بملء كرخها ورصافتها بانكسار جماعات الثقوب السود، الذين كفوا عن الاستعراض في الشوارع والساحات وأمام الجوامع والمساجد، وراحوا يتختلون خلف البنايات والأسيجة وخلف أبواب البيوت التي استحوذوا عليها وحوسموها. نزعوا الثياب السود والزي الأفغاني وعمد قسم كبير منهم إلى حلق اللحية ولبس بناطيل كاوبوي وقمصان ملونة واختلطوا مع الناس في الأسواق والمقاهي، حتى أن بعضهم تعلم الاشتغال على الكومبيوتر واشترك بشبكات الأنترنيت. انهار سقف الرعب وشعر أهالي بغداد لأول مرة بعدم الرهبة والخوف، شعروا بأن هناك من يحميهم ويدافع عنهم خاصة بعدما خلت الشوارع من سيارات جماعات الثقوب السود وانعدمت السيطرات الوهمية.

وقع زلزال أخلاقي كاد أن يقتلع (صعاليك القيامة) من الجذور، ضربتهم انتكاسة عميقة هزت وجودهم وزعزعت كيانهم عندما اختطف (صعاليك القيامة) ستة صحفيين ممن باعوا أرواحهم لجماعات الثقوب السود من الذين يروجون للجريمة على أنها فتح جهادي ويزينون القاتل بحلة تقديس وتبجيل.

كما اختطفوا أربعة شعراء يتغزلون بالعبوات الناسفة ويتفاخرون بقتل الأطفال وبنزيف الدم، ويهيمون حبا بالمسدسات وقبلات الرصاص ومعانقة السيف واحتضان المجاهدين الملوثين بالدم، كذلك خطفوا اثنين من كتاب الرواية الذين تمادوا في خيانة الضحية وتزوير روح البلاد،كما قاموا بتسويف الدم بقلب هوية الضحية إلى هوية قاتل.

وقع الزلزال وضربتهم الانتكاسة حين ابتكر بعض (صعاليك القيامة) نوعا جديدا من العقاب والانتقام من هؤلاء خونة الضحية، إذ راحوا

مكتبة الفكر الجديد

ينيكون صحفيا بعد صحفي، يصورونهم ويطلقون سراحهم. ينكحون شاعرا بعد شاعر ويصورون عمليات النيك ويطلقون سراحهم، واختتموا حفلة النيك بالروائيين مع التصوير.

وإذا بأحد (صعاليك القيامة) يهتف بصوت عال حالما رأى (حديد):

ـ ناكوهم عن بكرة أبيهم.

شبت نار الغضب بـ (حديد) وانفجر محتدما يتمالخ بعراك بالأيدي مع النياكة، الذين راحوا يدافعون عن أنفسهم بالقول لـ (حديد):

أنت قلت فكروا بعقاب خالد وفريد، وهنا عندنا في البلاد لا يوجد عقاب أشنع وأخزى من نيك المعتدي وأخذ ثأر الضحايا.. ونحن صورناهم حتى يكفوا عن عبادة القوي المستهتر وتحقير الميت المقتول والضعيف وحتى لا يعودوا مرة أخرى لخيانة الضحية وإلى التزوير والتسويف وتخدير الضمير.

لكن (حديد) اشتعل وانطفأ وانهار على ركبتيه وراح ينتحب بصوت عال ويقول:

ـ حكمتم بالإعدام على (صعاليك القيامة).. شوهتو سمعتنا وصرنا لا نختلف عن جماعات الثقوب السود.. أي عبقري خطر بذهنه مثل هذا العقاب الشاذ والانتقام اللوطي.. كيف يحترمنا الناس بعد هذا الفعل الشنيع.. أين أضم وجهي وأخفيه من نظرات عيون الضحايا.

تكهرب الجو وساد صمت عطن وسكون نتن، كادت الواقعة الجنسية هذه أن تفسخ عروة (صعاليك القيامة) وتفرق شملهم ويندثرون في كل زاوية لولا اعتذار أحد المشتركين بالنيك، ذهب إلى (حديد) وقبل رأسه وهو يقول:

مكتبة الفكر الجديد

ـ كنا نعتقد أن هذا هو أنسب عقاب وأفدح انتقام.. وأنت تعرفنا كما يعرفنا البقية بأننا لسنا شاذين ولا لوطيين.. بل نحتقر كل من يمارس هذه الأعمال الدنيئة القذرة.. اعذرونا يا أخوتي على هذا الفعل الشائن ولا تحملونا وزر قلوبنا المتورمة للثأر من المزورين لوجه الضحايا..هؤلاء الأنذال السفلة خدم الذباحين والقتلة.. اعذرونا ياجماعة فلقد شوهتنا وأعمتنا روح الانتقام.

لكن الاعتذار لم ينفع ولا القبلات التصالحية إذ نسفت حادثة النيك قلعة (صعاليك القيامة). وانفرط وجودهم وتخلخل أساس الإيمان، وهكذا تملخ كيانهم وتبعثروا فالجميع أدرك أن عقدة الثأر تدمر المجتمع وتخرب الدولة، وإن روح الانتقام تفسد البناء النفسي للإنسان وتشوه أخلاقه وتشل ضميره، خاصة إذا كان العنف هو السلاح الوحيد. هكذا انطفأت شمعة (صعاليك القيامة) بليل البلاد البهيم. اندثر تاريخهم وصار الحديث عنهم يشبه الحديث في زمن نغولة العقيدة عن نياكة الريس الفذ أيام صباه، ربما لهؤلاء النياكة حدس واستقراء للمستقبل وهم يرون هذا الصبي المنيوك سوف يكون رئيسا فتاكا غاشما يحرق الأخضر واليابس لذلك هم انتقموا منه حتى يبقى طول عمره الرئاسي يحكم بصفة الرئيس المنيوك. لكنه راح يغتالهم واحدا بعد الآخر وصفاهم جميعا حتى من هرب وعاش في الخارج، وقد اغتال آخر نياك عمره تجاوز السبعين بشعر أشيب وتجاعيد تشبه لب الجوز. وقف هذا الشيخ الهرم في ساحة الميدان حيث موقف الباصات الحمر، وهو ينتظر باص رقم (٨١) لكن سيارة بيضاء رقمها (كويت - خصوصي) خرجت منها رشاشتين ثقبت جسد الرجل الأشيب وسقط ميتا، واستدارت نحو وزارة الدفاع واختفت، آنذاك نام

مكتبة الفكر الجديد

الرئيس قرير الدبر بملء جفونه فليس هناك بعد اليوم من يشهر به ويحكي حكايات تلطخ شرف الوطن.

حالما توقف (هندي الحلاق) عند هذه الانعطافة الرئاسية، وراح يشرب الشاي، ثم فجأة ابتسم وقال:

ـ أنا واحد من صعاليك القيامة ولكني لست من عباقرة العقاب النيكي ودائما أضع النهاية السوداء أمام (حديد) وأقول له بأن الثأر والانتقام بقيادة العنف طريق مسدود بالدم.

سألته وقتها عن هذا الاسم الغريب وكيف انوجد وأذكر جوابه عندما قال بأن معظم (صعاليك القيامة) خرجوا من المزابل والساحات المترية بعد خطفهم وهم قاموا من الموت، هو وحدهم القياموت، ولا أعرف بالضبط من روج ونشر هذا الاسم.

تحسر أخي (عناد) عندما توقفت عند هذا الحد، تحسر وكأنه يعود من مغامرة هائلة صادمة، ورجاني وطلب مني أن أعرفه بـ (هندي الحلاق) لعله يحظى بصداقة هذا الشخص الأسطوري، لكنه استدرك وسألني:

ـ هل هو يصلي؟ فقلت له:

ـ لا.. لا يصلي، ربما لديه طقوس صلاة خاصة لأنه قال لي ذات مرة: إن صلاتي تبطل إذا رآني أحد وأنا أصلي.

ثم انعطفت بتفكير يسبح عكس التيار وأنا أتخيل أسطورة (صعاليك القيامة) موجودة في رأس (هندي الحلاق) فقط، ربما هي ليست بهذا الصيت، وقد تكون مجرد أمنية من اختراعه، لديه حلم أخذ ثأر الضحية والانتقام لدمه المهدور الذي لا يُطالب به أحد.

وهنا ركب الخيال رأسي: احمل كاميرا سينمائية تصور ما يدور داخل

مكتبة الفكر الجديد

رأس (هندي الحلاق) من أحداث القيامة وفورة الناس لتعجيل قدوم ساعتها، وتشاهد مغامرات (صعاليك القيامة)، ثم تبتعد اللقطة عن مسرح رأس (هندي الحلاق) وتصعد فوق منطقة (الجريخي) فأرى بيتي والزبالة مقابله وهناك يجلس (ونوس) مجنون الصور وهو يمزق ما تيسر من إعلانات وبوسترات وصور لعب صغيرة، وعن يمينه ساحة (الطوبى) وعن يساره مدرسة الزعيم، ثم جامع (نبي أيوب). تصعد اللقطة فوق مدينة (الحسينية) المقلوبة رأسا على عقب حيث الكلاب العرجاء مسلوخة الجلد والمطايا النازفة والذباب المجاهد يغوغي فوق جروحها، أرى القطط تتقافز من سطح لسطح هربا من بطش البشر، ثم أرى رؤوس الخرفان والعجول بلا أجساد وهي تشكو قصة الخلق عندها أعرف ماهي أخلاق وثقافة أهل هذه البلاد. تصعد اللقطة بسرعة فوق بغداد المشعثة بالدخان والنخيل والخرائب ونهر دجلة يجري خانسا بصمت يخاف أن تعترضه سيطرة وهمية ويذبحونه من النخيل إلى النخيل. تصعد اللقطة فوق العراق فأرى شعبا يجاهد ضد نفسه ويناضل لتدمير بلاده شبرا شبرا. تصعد لقطة الكاميرا بسرعة فوق الكرة الأرضية فأرى الاندثار الوشيك وتقدم الانقراض يسود القارات والمحيطات والبحار. تبتعد اللقطة بسرعة ليرى المشاهد كيف تسبح الأرض مع ملايين الكواكب. لكن الكاميرا تقترب من شاب وفتاة فوق كوكب مجهول لا يعرف أحد اسمه يشير هذا الشاب بسبابته لترى الفتاة ماذا وراء إشارته، رأت أنه يشير إلى كوكب الأرض الزمردي وهو يقول:

ـ حبيبتي هذا الكوكب الزمردي الجميل، ميت. ميت منذ ثلاثمئة سنة ضوئية، لكن موته لم يصلنا بعدُ لحد الآن.. ولذلك نحن نراه حيا يسبح

مكتبة الفكر الجديد

مع بقية الكواكب، وحالما يصلنا موته يختفي بجوف الثقوب السود مقبرة الكواكب.

فزني أخي (عناد) وهو يقول:

ـ ها إلى أين وصلت؟ أين سرحت وأخذك تفكيرك؟ ثم غير الموضوع وهو يقول:

والله لو كان صديقك (هندي الحلاق) هذا يصلي ويصوم لصار من أعظم رجال الدين كلهم.

لم أطيق عدم إخبار أخي (عناد) برسالة التهديد وبترك زوجتي (حوراء) للبيت وأخشى أن يسمع من غيري ويزعل ويعاتبني، ثم يتخذ مني موقفا لا أريده ولا طاقة عندي لسماع اللوم والعتاب.

عادت جماعات الثقوب السود أشرس من السابق وصار الخطف والاغتيال والإعدام على أتفه الشبهات وأضعف الوشايات والعداوات والأمزجة حتى صار شكل الشخص ونوع ملابسه تندرج في خانة الكفر والفسق والردة والخيانة ففي مدينة الثورة (الصدر) في قطاع (٣٣) قرب شارع دكان كشكول، تم إعدام شاب بجريمة الجمال، شاب وسيم بطول فارع وإطلالة آسرة تريح العيون اسمه (عفيف)، انزعجت منه جماعات الثقوب السود لطول شعره البديع ولحسن ملامحه ونظافة ملابسه، يحبه جميع أهل القطاع لأنه تحفة ربانية تمشي على الارض، أينما يقبل ويسير يزيل طبقات القبح من الجو والشوارع والنفوس، طبقات القبح التي صنعها وكرسها جماعات الثقوب السود، كما إنه لا يعبأ بتحرشاتهم ويدوس فوق ألغام التهديد والوعيد التي زرعوها في طريقه وفي بيته.

خطفوا (عفيف) وقتلوه مباشرة ورموا جثته وراء السدة. والمفارقة

مكتبة الفكر الجديد

الجرباء: أن قتلته اثنان من أوسخ وأبشع العبوسين في جماعات الثقوب السود، قد احترقا بعد اسبوع من خطف (عفيف) وقتله. إذ حامت الشبهات حول بيت يلتقط صورا لجماعات الثقوب السود ونشرها في مواقع الأنترنيت، وأن هذا البيت الذي شكوا فيه يقع مقابل البيت المنكوب بالشاب (عفيف) الذي لم يبرد دمه بعد. شعر أهل هذا البيت بنوايا هجوم وشيك على البيت بعدما وصلتهم أخبار من هنا وهناك خاصة وأن أهل الشارع يراقبون حركات وسيارات القتلة. وما أن لاح ضياء الشمس ترك أهل البيت الشارع والمنطقة وقطاع (٣٣) والثورة، رحلوا إلى مكان مجهول بعدما أفرغوا البيت من كل شيء وأصبح خاويا. اكتشفت جماعات الثقوب السود فورا هروب أهل البيت فهجم اثنان منهم على البيت، هما نفس قتلة الشاب (عفيف) كسروا باب الدار وهشموا الشبابيك واقتحموا الغرف الفارغة فلم يجدوا شيئا يحطمونه، لذلك رشّ هذان القاتلان البيت الخالي بالبانزين يقلدون أفلام الجريمة والأكشن أسوأ تقليد. والجمهور يتفرج من بعيد ومن فوق السطوح ومن خلف الأسيجة ومن النوافذ والشبابيك ومن الأبواب الموارية، حشد غفير من العيون في شارع دكان كشكول. في البدء حمل كل واحد منهما جلكان بانزين وانطلق الرش من غرفة النوم والمطبخ والهول والاستقبال حتى خرجا من باب البيت وهما يرشان، ثم رمى كل واحد منهما جلكان البانزين داخل البيت،ووصلا الى سيارتهم السوداء،أشعل كل منهما سيجارة بحركة سينمائية والجمهور يحبس الأنفاس، يحدقون بفزع إلى هذين الوسخين كيف شفطا دخان السيجارتين. نظرا بصلافة واستخفاف وتهديد للجمهور المتحاشك العيون الجزعة. أخذا شفطة دخان ثانية وبالتصوير البطيء: رميا السيجارتين المُشتعلتين

مكتبة الفكر الجديد

خلفها فاشتعلت النار بملابسها من أسفل البنطلون والحذاء، ثم صعدت النار تلتهم منطقة الفخذين والخصر والحزام فصرخا بعويل ذئب شبت به النار. ركضا مشتعلين من شارع لشارع يصرخان حتى خمدا وانسلخ الجلد واللحم عن العظم، سقطا فاطسين قرب إشارة مرور سوق (العورة). كما احترقت السيارة السوداء وضحك الناس ملء الأشداق حين لم يحترق البيت الذي بقي يعطّ برائحة البنانزين، ضحك جمهور المشاهدين بخشوع صلاة جماعية حيث الوضوء بماء اللهب ودخان انتقام الرب.

هكذا عادت المافيا الدينية تخطف الناس يمينا وشمالا وتغتال القريب والبعيد وتفخخ الأخضر واليابس. عادت سينما الرعب تبث أفلام الإعدام في ليل الساحات المشؤومة. وانكب الناس على الصلاة والدعاء من أقصى الكرخ إلى أقصى الرصافة، يبتهلون إلى عودة وظهور (صعاليك القيامة).

هنا أخبرت أخي (عناد) برسالة التهديد فاصفر وجهه وتعرق جبينه، رأيت عينيه تزوغان بحركات سريعة لا إرادية، هي لا تثبت على شيء. ثم هدأ واستقر وضعه حين قلت له:

رسائل التهديد أكثر من ذباب المزابل.. لا تخاف عليّ ولا تقلق فقد صارت لعب أطفال، حالها كحال الخطف والقتل والتعذيب يمارسها أطفال وصبيان ومراهقون. نادرا ما تجد رجلا ناضجا برأسه عقل يصير واحدا من جماعات الثقوب السود. تماديت أضحك وأسخر وأنا أهون عليه خطر تهديد الرسالة حتى لا يتهور ويجعل منها قضية موسمية تلوكها ألسن القيل والقال في منطقة (الجريخي).

وأخذت منه عهد وقسم بأغلظ الأيمان أن يطوي سر الرسالة كمن يعصرها بكفه، يعقجها ويحولها إلى شبه كرة ورقية ويرميها في سلة

مكتبة الفكر الجديد

مهملات العقل. ثم أخبرته برسالة زوجتي وكيف تركت البيت وأنا غير موجود، وراحت تشترط عليّ: إما الهرب والانتقال من البيت وإلا فلن ترجع مُطلقا.

سألته لو كان مكاني ماذا سيفعل؟ ردّ بسرعة وانفعال:

ـ أنا أطلقها.. خرجت عن طاعة الزوج وتركت البيت فارغا.. لا يعلم أحد أين ذهبت وزوجها لا يدري بتركها البيت... إنها خرقت الشرع وتعليم الله والرسول.

ورشقني بآية وحديث نبوي يختتم به برهان صحة كلامه. طبعا أنا زايده مني أن أسأله ماذا سيفعل، لأني أعرف رأيه الذي لن يخرج عن إطار الشرع والفقه وكتب الفتاوى. المشكلة العويصة أنه يصر ويلح علي بالطلاق، لا من باب الكره والحقد فهو يحترم زوجتي ويقدرها ودائما يشيد بأخلاقها ويعرف تمام المعرفة بأنها ذهبت لبيت أهلها عندما تركت بيتي. لكنه يصر على طلاقها من باب الدين والعرف الاجتماعي فلو عرضنا قضية ترك زوجتي للبيت على رجل دين أو قاضي أو زعيم عشيرة أو أي رجل عادي، سوف يطلقون نفس الحكم: الطلاق. لأن المرأة عندنا مثل حال السمك: مأكول مذموم. وهي حايط نصيص، واطيء على مرّ الدهور والعصور منذ غزو العراق أيام الفتوحات.

أما أنا فسوف أترك القضية وأدعها تبرد وتمحو سطور رسالة التهديد. أعطي (حوراء) الوقت الطويل للتفكير وتقليب مصيرها على كل الوجوه فلا أسرع وأستعجل وأظلم امرأة مسكينة، فالمرأة هنا مكسورة الجناح، تولد وكل شيء ضدها، وتموت بدون ذكر اسمها، حرموها حتى من الاسم في لافتات التعزية السوداء: أما عقيلة السيد فلان بن فلان، أو أم

مكتبة الفكر الجديد

فلان ابن فلان، أو خت فلان بن فلان، وإذا كانت فتاة شابة غير متزوجة فهي ابنة فلان بن فلان، المرأة مكروده في الولادة وفي العيش وفي الموت.

نهضت أودع أخي (عناد): تصبحون على خير.

خرجت من بيت أخي واستقبلتني الظلمة الساحرة ومناخ لا يتكرر ببرودة منعشة مسكرة، ولكن إلى أين أذهب والليل مطرز بالرصاص، إلى أين والحياة عندنا تقفل وتسدّ أبوابها بعد الساعة الثالثة ظهرا. لقد ألغى قادة وزعماء جماعات الثقوب السود الليل، وصرنا نهرع إلى الجحر والقن والخم قبل الدجاج. مات عندنا الليل منذ حرب تحرير الكويت والحصار، راح الظلام يأكل لحم النهار حتى إذا أعلنت الساعة الخامسة والشمس لم تزل عالية ساطعة لكننا نعيش مُنتصف الليل.

مكتبة الفكر الجديد

سرداب الدنيا والآخرة

كيف يكون الجنون بعد: أحمر؟ أخضر؟، وأنا أسمع من يقول: لا يجتمع يوم القيامة مع الولادة وإنجاب الأطفال، واحد عدوّ الآخر مثل الحية والبطنج، وكفّ أغلب الناس عن (الخلفه) وبقوا بدون أطفال، قطعوا النسل وظلوا ينتظرون بفارغ الصبر حلول يوم القيامة بممارسة الجلق وهم يقولون: الاستمناء أرحم من الإنجاب. هكذا عجلوا وسرعوا بقدوم يوم القيامة من خلال إقامة حفلات جماهيرية بممارسة العادة السرية حتى طغت رائحة المني على رائحة البخور.

عزف جهازي الموبايل بنغمة فيروز (أعطني الناي وغني) وأنا مددا على الدوشك ولايزال (هندي الحلاق) نائما فالساعة الآن التاسعة والنصف صباحا. إنه أخي (عناد) يقول بأن زوجة (أبو حسين) جارنا أنجبت ولدا مساء البارحة، وعلينا الذهاب إليهم فهو جار طيب ونعم الجار. هو فعلا إنسان بسيط وطيب ومُشاهد مُدمن على أفلام الرعب في سينما ساحة (الطوبى). بعد الظهر تركت (هندي الحلاق) يقرأ ويخربش على ورق أسمر، وذهبت مع أخي (عناد) إلى بيت جارنا (أبو حسين)

مكتبة الفكر الجديد

الركن المطل على ساحة (الطوبى)، تلك الساحة التي تحيطها البيوت من جهاتها الأربع وهي تعرض أحدث أفلام الإعدام الليلية.

دخلنا غرفة الاستقبال وجدنا الصمت الأسود يخيم عليهم، رأيت الكدر والوجوم والحزن يغطي الوجوه فخمنت مع نفسي أن الطفل الوليد مات. رأيت أغلب الجيران حاضرين، وبعد التحية صاح أخي (عناد):

ـ رحم الله من قرأ سورة الفاتحة.

رفع الجميع أيديهم وانهمكوا بالتمتمة يقرؤون سورة الفاتحة بلا صوت مسموع، وأنا أحرك شفتي فقط وأفكر: هل فعلا مات أحدهم وأنا لا أدري، لماذا لم ينبهني (عناد) إلى هذا المأتم والعزاء الذي نحن فيه الآن في بيت (أبو حسين). ولكن من هو الذي مات، كل ما أعرفه أن البارحة جاءهم مولود جديد، وهو سبب قدومنا، هل ناصبين عليّ في مقلب اتفق الجميع عليه مثل مقالب الكاميرا الخفية، لكن هذا مُستبعد فعلاقتي بهم سطحية لاتتعدى التحية والحديث عن هموم الكهرباء وسعر الأمبير في المولدات الأهلية وكيف أن أصحاب هذه المولدات على شاكلة واحدة وأخلاق موحدة شعارهم الدينار وليسقط الضمير كأنهم واحدٌ تافل بحلق الآخر، والجميع اعتاد على سماء المدينة المشطب بموس الأسلاك العشوائية، التي تنتشر مابين المولدة وبيوت الناس بأبشع صورة، وكأن الفضاء مليء بخدوش وحزوز سيوف المجاهدين الباشطة.

مُستحيل أن يفكر أصحاب المولدات بلم الاسلاك المشعثة إلى حزم وربطها بشناطات في أعمدة الكهرباء التي بقيت مجرد ديكور. وإذا اقترحت على أحد أن نجمع هذه الأسلاك وننظم مساراتها حتى لا تتشوه السماء بهذا المنظر المقرف، لو اقترحت على أحد هذا العمل فسوف يضحك وتنط عيناه

مكتبة الفكر الجديد

للخارج من الضحك ويتمدد على الأرض فاطسا من الضحك: الناس كل الناس طامسين لحد الأذن بهموم يوم القيامة وجنابي الكسيف يقترح تجميل فضاء المدينة، المدينة التي ستنقلب فوق تحت بالصيحة الأولى، صيحة يوم القيامة لأنّ جميع العلامات في طور الاكتمال وبقي علامتين أو ثلاثة أحدها شروق الشمس من المغرب وانطلاق الصيحة الأولى التي يسمعها كل حي وميت في البر والبحر والجو وما تحتَ الأرض.

بعد إتمام قراءة سورة الفاتحة وانطلاق: الله بالخير. رأيت أخي (عناد) يخاطب (أبو حسين) المنكسر والمغموم ودموعه بطرف عينيه، قال:

ـ خوي أبو حسين.. والله أمس عرفنا بالخبر الأليم بولادة صبي.. انقبضت قلوبنا ورثينا لحالك.. الله يعينك على هذا المصاب الجلل.. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

جهش (أبو حسين) بالبكاء وراح ينشج ويقول:

ـ المصيبة انولد بصحة بجيدة وهو قوي وبعافية ممتازة.. ليش ياربي ليش.. آني عايز مصايب.

أجابه (فواز) صاحب وكالة الحصة التموينية يهون عليه ويبث فيه أمل موت الطفل المولود، وهو يقول:

ـ يمعود.. ولا يهمك ولا تحزن.. اليوم باجر يموت وتخلص من هذي الشدة.. ويصير لك شفيعا يوم القيامة.. من أين يفلت والأمراض ما شاء الله تحصد الأطفال بمنجل الموت.. بس الحمّى القلاعية كافية ويفطس بمكانه.. وترتاح من هم شراء الحليب والحفاضات ومن هم المدرسة.. ويوميا جاك الذيب جاك الواوي.

نبّ (وعد) صاحب الدكان القريب من مدرسة الزعيم، نبّ بوجه

مكتبة الفكر الجديد

عابس مكدر تزيده اللحية الرمادية وجوما وهي تغمر مساحة وجهه كله وتبالغ في حدة تقاطيعه:

ـ البقية بحياتك خويه (ابو حسين).. الفاس وقع بالراس.. المصيبة السودة: الطفل ولد حلو جميل وقوي وبصحة زينة.. يلا بعد ما بيدك شي نسويه.. الله يعينك على هذا المصاب.. وخيرها بغيرها إن شاء الله.. إن شاء الله يصير شفيعك يوم القيامة إذا مات.

تهستر (أبو حسين) وراح يلطم جبهته بكفه الأيمن وينوح:

ـ ياجماعة دبروني.. انصحوني شسوي أذبح روحي؟

وانخرط في بكاء مهين وجسد يهتزّ مع كل نشيج.. احتضنه (زناد) المتقاعد يربت على كتفه وهو جالس بقربه عن يمينه. طبطب (زناد) على كتف (ابو حسين) وهو يقول:

ـ نذير شؤم طفل يولد قبل يوم القيامة.. إلى أين سيذهب الأطفال إذا حل يوم القيامة غدا؟.. ستكون كارثة لو تأجل موعد يوم القيامة لخاطر عيون الأطفال.. لا..لا بسببهم سوف يطول عذابنا وعيشنا القذر في هذه الحياة السوده.. لكن إن شاء الله يموت ويصير من الملائكة يستقبلك يوم القيامة.

هنا تدخل (عناد) أخي وهو يقول:

ـ إذا قتلنا الأطفال سوف نكون نحن حطب جهنم.. ويطول علينا يوم القيامة إلى سبعين ألف سنة.. في حين ينقضي يوم القيامة برمشة عين إذا عندك طفل ميت يتحول هناك إلى ملاك أخضر يطير من مكان لمكان.

تكلم (محيي) لأول مرة، هو الآخر صاحب دكان مقابل (بيتي) تفصل ما بيننا المزبلة، كما إنه ينافس وبزاحم دكان (وعد)، وكثيرا ما تحدث

مكتبة الفكر الجديد

مشادات كلامية وعراك بين أبنائهم لا تنتهي وتنفض إلا بتدخل جميع وجوه المنطقة وتتم المصالحة من أجل جولة عراك أخرى في قريب الأيام الآتية.

قال (محمي) حانقا ضيق الصدر:

ـ ماذا نفعل: هل نقطع زبوبتنا؟ عيب علينا استعمال الواقي الذكوري وخزي علينا أي مانع و(فلاش لذر).. ياجماعة لا نستطيع القذف خارج رحم نسائنا.. ياناس يا عالم ماذا نفعل وصرنا نحسد العقيم والخصي العنين؟

قال (عناد) يؤكد على كلام (محمي):

ـ مستحيل أن يجتمع يوم القيامة مع ولادة الأطفال مثل الكلب والبزون.. آني أعرف ناس لم يخلفوا أي طفل.. قطعوا نسلهم وظلوا ينتظرون يوم القيامة بممارسة (الجلق).. الاستمناء أرحم من الإنجاب... وهكذا عجلوا وسرعوا قدوم يوم القيامة من خلال إقامة مهرجانات جماهيرية بممارسة العادة السرية حتى طغت رائحة المني على رائحة البخور.

أنا بقيت منزويا صامتا لم أنطق بحرف واحد ولم أحوص وأتململ كيلا يحسوا بوجودي، لقد نسوني ولم يعد يراني أحد.. كنت أفكر عميقا بكلام (هندي الحلاق) عن جنون القيامة واستفحاله على حياة الناس، وكيف فرض سطوته على تقاليدهم وعاداتهم التي انقلبت وصار العكس هو الصحيح.

أدركت الآن: أن كل حدث خطير عام وشامل يخلف أثرا في نفس الفرد وفي بيئة المجتمع، أحداث خطيرة مثل: الحرس القومي لنغولة العقيدة خلف شرخا. وإعدام التجار في باب الشرقي وسط الجماهير خلف أثرا.

مكتبة الفكر الجديد

وسيناريو أبو طبر ترك جرحا، وعدنان القيسي وحلبات المصارعة خلفت ندبة الدكتاتورية. وبيع الكلاب والقطط. والحرب العراقية الإيرانية وغزو الكويت وانكسار الجيش المخزي بعد تحريرها، ثم الحصار وحرب سقوط نغولة العقيدة وقائدها الفذ. ثم بدء حرب التفخيخ وغزو المدن ومهرجانات الذبح العلني أمام الجماهير، بحيث لم يعد باستطاعة أي قوة إيقاف نزيف الدم اليومي. تسللت جهنم وخرجت من الكتب السماوية وتجسدت هنا عندنا كواقع يومي حتى اعتاد الناس على جهنم، فاختلطت الدنيا بالآخرة والتقويم الميلادي والهجري ليوم القيامة. لقد استدعى أهل بلادنا يوم الحساب بكل ما لديهم من طاقات روحية ونفسية وجسدية فتحققت علامات يوم القيامة ما عدا بعضها، وهي في طريقها صوب الظهور والتجلي.

من أين عرف (هندي الحلاق) جنون القيامة، وهل عنده ميقات الساعة وبدء انهيار البلاد، الذي سوف يعقبه انهيار العالم وانقراض الحياة، هل سيكون العراق أول منطقة للقيامة وانطفاء الحياة والحضارة بينما هو أول منطقة تفتح فيها عقل الإنسان وارتقت الحياة وصارت حضارة؟

سوف أناقش (هندي الحلاق) بهذا الموضوع. وأناقش التناقض في جغرافيا يوم القيامة لأن بلدا مثل بلدنا تعيش في جهنم في حين تعيش بلدان أوربا وأمريكا وبعض بلدان في العالم، يعيشون في الجنة. جنة هم صنعوها لذلك استغنوا عن الجنة الموعودة في الآخرة، وهم يقولون: الخلود صخرة سيزيف سواء في الجحيم أم في الجنة: الخلود هو الجحيم. وهذا ما يجعلهم حريصين على الحياة يستثمرون الدقيقة الواحدة بكل ما فيها بدون هدر ثانية واحدة وتلك هي الجنة: الحياة هي الجنة فقط.

مكتبة الفكر الجديد

استيقظت من هذا الحوار مع نفسي وصحوت من المنولوج عندما سمعت صياح (فواز) وهو يخاطب (ابو حسين):

ـ من كل عقلك يبقى ابنك الرضيع هذا حيا يُرزق، كيف.. كيف يعبر هذا الطفل ألغام الأوبئة والأمراض والحروب والسيارات المفخخة والعبوات الناسفة والكواتم والخطف...

انقطع صوت (فواز) صاحب وكالة الحصة التموينية، ورحت أسمع صوت نفسي وأنا أقول لنفسي وللحاضرين وللعالم:

مستحيل أن يفلت هذا الطفل: أي مرض يخدع وأي موت يراوغ.. سوف يسقط ميتا لا محالة في أرض موبوءة تغص بالأعداء والفايروسات والجراثيم، والقنص العشوائي كما حدث أمامي لشرطي المرور حين قتله قناص الفرقان فوق جسر (صليخ).. أنا وحدي معجزة، في كل يوم أجترح معجزة لبقائي حيا وكذلك (هندي الحلاق) الذي يملك رصيدا هائلا من المعجزات لأنه بقي يتنفس.. حيا إلى هذه اللحظة.

رجعت إلى الواقع إلى غرفة في بيت (ابو حسين) وجيرانه جالسين متكئين على الحيطان وصوت (فواز) يرن في جو الغرفة وهو يقول:

ـ يمعود لا تحزن ولا تلطم.. لعل مرض حنون سريع يلف الطفل وأمه وإياك فتموتون موتة سعيدة.. وإذا عندكم حظ المؤمنين سوف تخطف أنفاسكم بلمح البصر سيارة مفخخة وتطيرون بأجنحة الفردوس.. وتخلصون من ضراوة العيش ومحنه وسقم الحياة.

قال أخي (عناد) وهو يضيف على ما قيل:

ـ أين المفر.. هذا المقسوم.. طفل حي وجميل وبصحة ممتازة.. حرامات مع الأسف.. كنا سنحتفل بموته وموت أمه معه وأنت تذهب وتلتحق

مكتبة الفكر الجديد

بهم وتموت، لكن القدر والقسمة والحظ.. ها هي ما باليد حيلة.. البقية بحياتك خويه (ابو حسين).

فجأة دخل علينا للغرفة ابن عباس المطريجي وهو يقول:

- ونوس ماكو.. ونوس ضاع.. دورنا عليه بكل مكان.. ماكو ونوس ماكو...

نهض الجميع وتوزعنا إلى مجموعات للبحث عن (ونوس) مجنون الصور، أخوه الصغير يقول لا أثر له في منطقتنا عندما بحثوا عنه هو وأمه، اختفى ونوس المجنون. صادف هذه الأيام موسم انتخابات والصور تملأ الآفاق والإعلانات والبوسترات وطلبات التوسل أو التهديد للانتخاب. صور في الفضاء معلقة بحبال بين البنايات، وصور فوق أعمدة الكهرباء وجدران المدارس والبيوت حتى فوق الجدران الوسخة المكتوب عليها: كلب بن الكلب من يرمي الزبالة هنا. صور ملصقة على حيطان جخمة تعط برائحة البول مكتوب عليها: البول للحمير. لم يتركوا مكانا شاغرا وفارغا وخاليا إلا ولصقوا وعلقوا عليه الصور والشعارات والإعلانات للأحزاب والأشخاص وبوسترات كوميديا سوداء تحرض على عدم انتخاب أي حزب وشخص سواهم.

مهرجان الصور هذا عيد أبو هلالين لونوس. عيد لا ينتهي هو عيد تمزيق الصور، التي يغص بها الفضاء والجدران وأعمدة الكهرباء. صور لا تعصي على أنامل (ونوس) الخبيرة في التمزيق.

كنت مع أبيه عباس المطيرجي وأخي (عناد) ونحن نمشي طوال الطريق نرى أشلاء صور تتطاير مع العجاج ومع فسوة الواوي، حين خطرت لي فكرة الذهاب لمركز شرطة الزهور للعثور عليه. وها نحن أمام السوق

مكتبة الفكر الجديد

(الزغير) وقفنا وقد انفتحت عيوننا على وسعها عندما رأينا مجزرة صور. تحت أرجلنا بقايا صور وعلى حواف الشوارع وأمام المحلات شريط صور ممزقة، لا يخلو مكان من بقايا الصور المتناثرة على الأرض. ولا أحد يتخيل كيف وصل (ونوس) إلى فوق البنايات وتحت أسلاك الكهرباء الوطنية، أي سلم طويل استخدم ومن أين حصل عليه وناش تلك الصور العالية البعيدة؟ كل هذه أسرار لا يعرفها سوى ونوس وحده. كما لا حظنا تجمعات لشباب غارقين في الضحك وهم يشيرون إلى مجزرة الصور، وبعضهم يرفع أشلاء الصور الممزقة وهو يضحك ويشاركه الجميع.

اقترب (عناد) من مجموعة شباب وسألهم عما حدث هنا، فأجاب الواقفون بكلام واحد متشابه: جاء شاب يتقافز فرحا يغني واشتغل مثل حاصودة صور، يمزق ويمزق بدون أن يثير انتباه أحد حتى أجهز على كل الصور بدون أن يميز بين هذا وذاك، كان على مسافة واحدة في التمزيق. ولولا كوم الصور الممزقة الكثيرة من حوله لما هجم عليه بعض جماعات الثقوب السود وكادوا أن يمزقوه بأسنانهم من الحنق والغيظ لولا المصادفة وحدها حين مرت دورية للشرطة ورأوا الموت المحقق لهذا الشاب فانتزعوه من بين براثنهم وأخذوه إلى مركز شرطة الزهور، ربك خلص هذا الشاب، لولا الشرطة لكان جثة في واحدة من المزابل.

استعجلنا نهرول أنا وعباس المطيرجي وأخي عناد، وجدنا ونوس المجنون محبوس في مركز شرطة الزهور فاتصلنا ببقية الجيران المنتشرين يبحثون في شوارع وساحات مدينة (الحسينية) حتى اكتظ مركز الشرطة بكثرة الناس المطالبين بونوس المجنون. أخرجناه من الحبس مثل عريس وربعه يزفونه لكن الشرطة أخذوا تعهدا من ابوه: أن يراقبه عن كثب ولا

مكتبة الفكر الجديد

ه كه يمشي في الشوارع إلا بصحبة مرافق له، وأن يمنعه من تمزيق صور الانتخابات.

خرجنا من باب مركز الشرطة محتفين بالعثور على ونوس وعلى إنقاذه من وحوش جماعات الثقوب السود واطلاق سراحه من الحبس وإذا بشرطي جاء يركض مسرعا أمسك بخناق (ونوس). خلصناه من يدي الشرطي وسألناه عما حدث وما سبب هذا التصرف، فزعق الشرطي بصيح:

ـ مزق هذا المخبول كل الصور والإرشادات والتعليمات والبوسترات المعلقة على حيطان مركز الشرطة..وهي الآن خالية تماما.. ماذا سنقول للآمر مدير مركز الشرطة؟

رجعنا إلى بيوتنا نزف خبر العثور على (ونوس) وخبر تمزيق صور الانتخابات، ودعني أخي (عناد) ودخل البيت وأنا أرى شعر رأسه الرمادي من فوق السياج الفاصل بيننا. قفلت الباب بالسلسلة ودخلت فوجدت (هندي الحلاق) منكبا يرسم خريطة بيت، لم أدرك أنه بيتي ولاحظت أن قلمه يستقر تحت السلم يحفر به على شكل دائرة.

حالما حييته ترك القلم يسقط، وقلت له إن جنون القيامة نخر البلاد والمجتمع، نخر العقول والقلوب، وراح يدبّ في جميع أوصال الحياة، ونحمد الله أنه لا يصيب الأطفال.

قال (هندي الحلاق) وعينه على الخريطة لا أحد يرى الدمع الجاري تحت وجنتيه:

ـ برغم.. هذا مرض الكبار لكنهم ورطوا الصغار.. هل رأيت الأطفال والصبية المراهقين، الذين يشكلون تسعين بالمئة من عصابات

مكتبة الفكر الجديد

الجهاد لجماعات الثقوب السوداء. الطفولة وقود لمكائن وآلات العقيدة.

الجميع هنا استدعوا يوم القيامة وسحلوه يجرجرونه من زمن الأبد ليحل هنا والآن.. جروه بجميع الوسائل وبكل طاقتهم ليجتاز مئات السنين وينبت في أرضنا هذه الساعة. الجميع يدفع إلى التصديق بتكفير الدنيا والإيمان المطلق بيوم القيامة: سياسيين ورجال دين ومثقفين وأدباء وكتاب، كانوا يدسون ويحشون رؤوس الناس بيوم القيامة واحتقار الحياة وكان المساكين أبواب مشرعة لاستقبال مثل هذا الهراء والخرافة.

وهذا ما جعل الناس البسطاء يهربون إلى استدعاء يوم القيامة بلا وعي وبلا إدراك. في حين راح السياسيين ورجال الدين يلعبون على الحبلين: حبل الدنيا وحبل الآخرة.. وها هم اليوم يقصرون حبل الدنيا ويمدون حبل الآخرة حتى تعلق به جميع الناس المساكين فلا يستطيع أحد تركه والفكاك منه لئلا يسقط في العدم، العدم الذي لو قارناه بجهنم فستكون مجرد لسعة جمرة سيجارة خاطفة.

بقي قلائل من الذين أنقذوا ضميرهم من الخراب والموت والشلل والاحتضار، قلة قليلة جدا يرفضون التصديق ويحاربون الدجل وينورون الناس بعدم الاعتقاد واليقين بيوم القيامة الذي رسمه التجار ودلالين العقيدة. كل خسارة تعجل بيوم القيامة، هذا هو ربح الدلالين، كلما يخسر الناس ضحايا وفقدان الأمن والخدمات والكهرباء والتعليم، كلما يشعرون بأن يوم القيامة اقترب وصار أقرب من حبل الوريد. كل يوم نفقد شيء ونخسر قطعة من أرض العقل، تلاشى الصمت والسكون والأمان نهائيا، تلاشى الحب والوفاء والإخلاص والشرف، وأدرجت ضمن خسارات المجتمع المنكوب، لكن كل خسارة تعجل بيوم القيامة.

مكتبة الفكر الجديد

تناول (هندي الحلاق) ورقة الخريطة وتجول بعينيه في أرجاء بيتي وقال:

ـ هل تعتبر نفسك رخيصا لتدع جماعات الثقوب السود تجرك من بيتك وتغتالك برصاصة في ساحة الطوبى؟ هل أنا رخيص إلى درجة أن أنتظر يسحلونني مثل خروف ويذبحوني؟

كل هذه الفترة وأنا أفكر، منذ اليوم الثاني في بيت (دخان) وأنا أفكر خاصة بعدما تهدمت قلعة (صعاليك القيامة) وتملخ كيانهم، وطشوا داخل وخارج البلاد. وابتعد وخفت الضوء في نهاية نفق الواقع.. ولكن هل نسلمهم رقابنا يذبحوننا مثل الدجاج؟

وصلت في تفكيري: أني أعيش ذات المحنة اليوم، محنة الحرب العراقية - الإيرانية.. الفرق هنا: إنني أعظم أرعن وغبي في الكون لأنني لا أحتمل السفر خارج البلاد.. لا زلت أرضع من ثدي وطني ولم أفطم حتى الآن.. قل ماتريد واوصفني بما شئت: أنا أكبر مطي وأعظم زمال في حب العراق.. جربت اقتلاع جذوري فقلعت أوهامي.. أيقنت بأن جذوري ضاربة تغور ممتدة إلى الأعماق.. أعماق سومر وأكد وبابل وآشور، وحين أسمع المنشد (مسعود العمارتلي) أدخل في تجاويف البردي وحلزون القصب.. هناك أرى أهلي وأعمامي وأخوالي وأبناء منطقتي.. أراهم ينفخون في الطين فتطير أزهار النفاش من القصب والبردي حتى يسد عين الشمس. ويتحول الجو إلى ضباب، جو حليب يقطر بحروف وأختام الطين الأسطوانية، يقطر كلمات نعي ورثاء.. ينعى فيها المغني المنشد نفسه.. ينعى وجوده بصوت ذاك المغني، الذي يركض حافيا فوق موجات ماء الهور... يركض بحبل سرة طويل مثل نزيف سومر لحظة غزو الصحراء حيث السيوف الهلالية

مكتبة الفكر الجديد

المعقوفة تقطع شرايين الأم والطفل والكتب.. يغني (مسعود العمارتلي) مخنوق بملاحم الضيم.. يصيح ويحشم مقطع الأوصال، متناثر إلى بلور شظايا موسيقى لا يفهمها أحد وكأن حنجرة المغني ترتجف من شدة صقيع الجمر: جمر العيش، وجمر المعنى، يصيح المكرود متوسلا بكل حي وبكل ميت أن يدركوه: أن ينتشلوه من لحظة وجود حادة باشطة تحز قلب الهور فتفصم كيانه.. وتشطر حياته المرئية وغير المرئية إلى رعب قادم.. رعب مهول، بحيث تضحك وتسخر من الرعب القديم..

يجرنا صوت المغني، يجرنا بحبل سرة طويل كقطار العزاء.. يعوي في براري المجهول.. يعوي بصوت المغني الراكض صوب طفولة يلعب الغميضة مع رصاص تائه.. يتراكض صوب ملاعب شظايا حروب لا تنتهي أبدا.. هي ملاعب حرمان ومراجيح دموع وحقول بؤس.. يركض صوب مراهقة ينبت الشعر في راحة اليد من كثرة ضرب الجلق وضراوة الاستمناء وصوت ينعى نفسه وأهله ومن معهم من أبناء منطقتي.. الذين هم ينعون أنفسهم في صوت المغني كمسعود العمارتلي، وصوت حضيري وداخل حسن وصوت طيور الماء.. وهي تلبط في الهور.. فانطرح فوق (تهله) متحاشيا (الشمبلان) وأصرخ بوجه السماء.. أصرخ: هلي يا من ضيعوني.

تلك هي جذوري، فكيف أقتلعها وأخون روحي وأمي وأرحل تاركا ذاك الطفل الذي كنته واقفا في الجزرات الوسطية لشوارع راكدة بدخان السيارات، واقفا يتلفت يستجدي رصاصة تائهة نحو رأسه.

برغم، أنت أغلى وأثمن من جميع الناس ولست رخيصا، أنت شاهد عيان على هذا العصر وعندك قلم ومسرح وكاميرا، وكذلك أنا، فهل نخون الشهادة والضمير ونسلم أنفسنا مثل الخرفان لجماعات الثقوب السود؟

مكتبة الفكر الجديد

حفرت سرداب في بيتنا ودفنت نفسي ثماني سنوات حتى لا أتلوث في الحرب العراقية - الإيرانية، يوميا أسمع الأخبار وبيانات الحرب وأبكي على ضحايا الطرفين، أمي المسكينة بقيت مطهمة بالسواد بعد موت أخي (فاضل) في الجبهة في قاطع نهر (جاسم)، ومات أخي الصغير (عدنان) في قاطع (الفاو) ولحقهم أبي العريف المتقاعد، الذي مات من القهر والشعور بالذنب لأنه نكث بأولاده ولم ينقذهم من غول الحرب، كان يوميا يصعد فوق سطح البيت يتكلم مع شبحي ولديه (فاضل وعدنان). وفي ليلة خميس لم نسمع له صوت فصعدت للسطح أنا وأمي: رأيت أبي منطويا يحتضن ريش طيور بيضاء لكنه بلا حس ولا نفس فشهقت أمي وانكبت فوقه.

وعندما نويت حفر السرداب رحبت أمي بالفكرة وساعدتني لأني بقيت وحيدها الأعزل. ظلت المسكينة طوال سنين الحرب تجلب الكتب من باب المعظم وشارع المتنبي والسراي وباب الشرقي وشارع السعدون. أكتب لها قائمة بأسماء عناوين الكتب، وهي تلهث وتسأل إلى أن تعثر على بعضها. تحولت أنا إلى آفة كتب، ألتهم وأرفع رأسي جائعا لا أشبع أبدا من ثريد الورق والسطور والكلمات. وفجأة في يوم ثمانية آب اللهاب الزراب بن الزراب سمعت بيان نهاية الحرب، آلاف الليالي السود الدموية الموحشة كانت فيها الأشلاء تتدحرج من الجبهات إلى بغداد والمدن المفجوعة. فجاة بدأت وفجأة انتهت وبقي كل شيء على حاله: لا النظام الايراني سقط ولا نظام نغولة العقيدة سقط، لم ينتصر أحد فالجميع خسر الحرب لكن حكومتنا قلبت الدنيا بمهرجانات الانتصار والفرح لأن القائد الفذ بقي على كرسي السلطة لا يدري ما تخبئه الأقدار وكيف سيتحول إلى جرذ. لحظة نهاية الحرب كنت في السرداب منكبا ألتهم كتاب لعبة الأمم. لا أعرف لماذا تبلل الورق، هكذا وجدت نفسي أبكي وانخرطت أثغب

مكتبة الفكر الجديد

أسبوعا كاملا ليل نهار، أثغب (يابه يا بويه)، نصبت جادر مأتم ضخم بحجم إيران والعراق داخل السرداب، سويت مأتم للقتلى العراقيين والإيرانيين،دعوت أهالي الضحايا لحضور المأتم، وفعلا لبى الجميع الدعوة وجاؤوا بوجوه مهشمة منكسرين، يواسي أحدهم الآخر بدون لغة، الإيراني يحتضن العراقي ويقول له (البقية بحياتك) من دون كلمات. خرج الجميع خسران الحرب والمنتصر الوحيد هو الموت.

اليوم لا أريد أن أتلوث بدمي عندما تغتالني جماعات الثقوب السود وأنا أسلم نفسي بلا مقاومة ومن دون حيل التخفي والزوغان ومراوغة الموت كما فعل الكثير أيام حكم نغولة العقيدة. أنت مثلي لا تريد التلوث بدمك حين يقتحمون البيت ويسحلونك إلى ساحة (الطوبى) ويطلقون رصاصة في رأسك. لا يزال هناك شوط إضافي في لعبة البقاء للأضعف، سوف نلعبه ونفضح سر هذا العصر.

سكت (هندي الحلاق) لحظة يسترد أنفاسه من مشوار سفر محتوم، ثم عاد يكمل المشوار وهو يقول:

ـ نحفر سرداب في بيتك، هل توافق؟.. أنا معتاد على السراديب والأقبية، أختل فيه لحين سقوط جماعات الثقوب السود، لدي خبرة سنين طويلة في حياة العالم السفلي.. أما أنت فلا تحتاج للاختباء دوما فقط عندما نتأكد بأن جماعات الثقوب السود تطرق الباب، حين نراهم من فوق السطح نختبئ، ها ماذا قلت: هل توافق؟

قلت مرتبكا في حيرة بماذا أجيب:

ـ فاجأتني.. حفر سرداب لا يخطر على بالي أبدا.. أنا أختبيء في قبو شيء مثير وجديد.. سمعت الكثير من القصص عن أشخاص مطلوبين لسلطة نغولة العقيدة وهاربين من الجيش والحرب حفروا سراديب وبقوا فيها

مكتبة الفكر الجديد

عشر سنين وعشرين وثلاثين حتى سقوط النظام، كادت هذه القصص أن تكون أسطورية.. أين برأيك نحفر السرداب؟

أشار (هندي الحلاق) إلى تحت السلم:

ـ هنا تحت الدرج.. أفضل مكان للسرداب فقد رسمت خارطة البيت (وأراني ورقة الخريطة). لم أجد مكانا بعيدا عن التوقع ولفت الأنظار مثل مكان تحت الدرج. ربما أنت مشغول بالتفكير في مشقة الحفر ومن سوف يعمل ويسوي هذا السرداب، وكيف نخفي التراب المحفور.. لا تشغل بالك.. عندي أصدقاء يكملون حفر السرداب بظرف يومين ويصير جاهزا للسكن والمبيت في اليوم الثالث. المشكلة الوحيدة في نقل التراب خارج البيت.

قلت له وأنا مفتون ومأخوذ بفكرة السرداب:

ـ كوموا التراب في الطرمه.. ومن هناك أكلف عامل بناء من المسطر ينقله بسيارة، وإذا سألني أحد عن التراب أقول: أصلح مجاري البيت.

سألني (هندي الحلاق):

ـ إذا كان عندك مكان تبيت فيه ثلاث ليال لحين اكتمال القبو (ضحك ساخرا)، انقضى عمرنا بالهروب والاختباء.. وهذه المرة نهرب من عدوى جنون القيامة. سألته كمن وجد ثغرة في مخطط السرداب:

ـ كيف نسد فتحة السرداب؟ لكنه أجابني بمرح:

ـ بخشبة فوقها فراش عتيق للتمويه.. وفوق الفراش أدوات وأغراض مهملة لا يحتاجها أحد.. سوف لن يعرف أي عبقري مكان السرداب.

قلت له ضاحكا:

ـ أنت تخلص عمرك مدفون تحت الأرض.. وأنا أخلص عمري

مكتبة الفكر الجديد

أتحاشى العضّ واللدغ.. هل كنت تشتغل دفان سابقا... من أين لك خبرة حفر السراداديب؟

أجاب بغصة ونظرة دامعة:

ـ الحرب.. الحرب علمتنا كل الأعمال والخبرات السيئة.. عندي صديق طبيب اسمه (سفير) قال لي: نحن الأطباء صرنا خبراء في الجسد البشري، يوميا نجري كل أنواع العمليات الجراحية بأجساد الجنود المساكين، كانوا يموتون تحت أيدينا بلا أسف وبلا شعور بالذنب خاصة بعد القصف والهجوم حيث لا ترى سوى جثث وجرحى على امتداد الأفق، ولا تسمع سوى الصراخ والأنين، كنا تائهين وسط مجزرة. وهكذا يوما بعد بعد يوم فقدنا شرف مهنة الطب وقسم أبيقراط وتحولنا إلى جزارين.

هذا الصديق الطبيب (سفير) انفجرت عليه عبوة ناسفة أمام مطعم (حبايبنا) يوم القبض على الريس في سرداب. (برعم) لاحظ الفرق بين سرداب الريس وسرداب (هندي الحلاق)، ذاك هارب ومختبيء من جرائمه، وأنا هارب من التلوث بالحرب ومختبيء لأصون براءتي، ليس كل من اختبأ بسرداب مثلنا يحمي قلبه من التشوه والعطب. تملخ جسد صديقي (سفير) بداخل سيارته وبالكاد انتزعوا أشلاءه من مقعد وحديد السيارة. ذهبت مع أهله وأقربائه إلى مقبرة النجف، وهناك رأيت خفة وسرعة الدفان في حفر القبر كأنه على عجلة تنتظره عشرات الجثث لدفنها، عندها اكتشفت أن سوق الدفانة مزدهر منتعش في ذروة عصره الذهبي، وكنت أسمع جملة تردد على لسان كل من يزور المقابر: حالما نرى المقبرة نقول: هل بقي بشر؟

مكتبة الفكر الجديد

عزرائيل الثوري

الانتحاري هو أكثر مجانين القيامة خطرا، ولكن من دس برأسه فكرة الجهاد الانتحاري، من حشا رأسه بالجواري والغلمان ليقتل نفسه ويقتل غيره؟ نطت هذه الأسئلة من رأسي وقد تجاوزت الساعة الثانية ليلا ولم يداهمني النعاس، كذلك رأيت (هندي الحلاق) بكامل يقظته لا رغبة له في النوم إطلاقا. قلت له إن كان يشعر بالجوع لكنه نفى واكتفى بطلب الشاي.نهضت بسرعة واشعلت نار الطباخ ووضعت قوري الشاي، وحسبت أن (هندي الحلاق) أنهى قصة صديقه الطبيب (سفير) ولم أتوقع منه العودة إليها وهو يقول:

ـ بعدما دفنا صديقي (سفير)، رجعنا لمدينة النجف وهناك رأيت لأول مرة موكب (عزرائيل).. (برعم) لا بد أنك سمعت الكثير من الناس يقسمون بأغلظ الأيمان أنهم شاهدوا عزرائيل: واحد رآه وهو يشتري قماش كتان أبيض في سوق الشورجة، وآخر شاهده يؤجر سيارة تكسي في منطقة (حي أور)، وجماعة لمحوه يمر من أمام مسجد (آل البيت)، وآخرون ركضوا خلفه حين تعرفوا على شخصيته أمام كنيسة (مار يوسف). المفارقة الميتافيزيقية: أن عزرائيل شديد التخفي وتغيير شكله

مكتبة الفكر الجديد

وملابسه لكن الناس مفتحين عيونهم بالتيزاب وسرعان ما تعرفوا عليه وكشفوا هويته وهم يطاردونه من مكان لمكان، يتوسلون به أن يقبض أرواحهم وينعموا بالموت والفكاك من ضراوة الحياة.

هل نبستم من خرافات الناس هذه أم بالفعل حل عندنا عزرائيل وترك جميع بلدان العالم لوكلائه ومن ينوب عنه فزحمة العمل هنا تتطلب حضوره الشخصي على الرغم من كثرة وكلائه ونوابه في المدن والقرى، الذين يحملون صفات عزرائيل وسطوته وبشاعته، كل واحد منهم يحمل بيده جهاز (هارد) لحفظ أرواح الموتى ولا أعرف قدرة استيعابه كم ألف (كيكا).

بقيت صامتا في حيرة وتلعثم من شدة يقين الناس الذين رأوا (عزرائيل) بأمهات أعينهم، وركضوا إليه يقبلون يده ليخطف أرواحهم ويرتاحون من شر الدنيا وذل العيش لكنه وبرمشة عين توارى واختفى ولم يخلف وراءه سوى رائحة كافور الموت. أخي (عناد) رآه عين بعين، وهو يقول رأيته بعيني هذه التي سوف يأكلها الدود، بالغ وهو يقسم ويحلف بكل مقدس أنه، أخي (عناد) احتضن عزرائيل وتشبث بحزامه متوسلا أن يأخذ روحه الآن وهنا ليخلص من هول العيش وأن لا يرتكب المزيد من الآثام والذنوب برغم حرصه الشديد بالحلال والحرام والتزامه بالشرائع السماوية لكن عزرائيل تملص منه ووجد (عناد) نفسه يحتضن دخان منقلة التكة والمعلاكَ. كما أكد لي بعض الجيران مثل (محيي) صاحب الدكان المقابل لبيتي تفصل بيننا المزبلة، راح يقسم مفرد وصلي بأن: أخي (حقي) اتصل بي على جهاز الموبايل وهو يستعجلني بالمجيء إلى شارع (حيفا) فها هو يرى عزرائيل يقبض الأرواح بالجملة، وهو يقول لي أسرع تعال أنا

مكتبة الفكر الجديد

أنتظرك لكي يأخذ روحينا معا ونرفل بالموت الوديع. ثم يرجع (محيي) ويقول: وصلت إلى شارع (حيفا) واستغربت حين وجدته فارغا ساكنا يصوصي..لكني رأيت من بعيد بعض الأشخاص يتلفتون يمنة ويسرة وهم يقلبون كومة أجساد...هناك وجدت أخي (حقي) ميتا فعتبت عليه كيف لم يصبر وينتظرني لنموت سويا...وعندها رأيت وجهه الطاعن بالاصفرار وثقب رصاصة في رأسه من جهة الصدغ الأيسر.

وسألني(محيي): هل عزرائيل يخطف الأرواح بالرصاص أيضا؟

كذلك يقسم جاري المتقاعد (زناد) وهو يخرج مصحفا صغيرا من جيبه ويقول لي:

غبشت إلى استلام راتبي التقاعدي..وكنت أمشي وراء مدرسة الزعيم وإذا برجل أفندي يرتدي بنطلون أسود وقميص أخضر لكن الريش الأبيض يغطي كتفيه مثل الجناحين...ألقى عليّ التحية وصافحني وهو يحذرني من سرقة راتبي التقاعدي..ثم قال لي: خذ هذا رقم هاتف موبايل عزرائيل. وضع بيدي كارت أسود صغير.. وأوصاني أن لا أعطي الرقم لأي مخلوق. حسبته واحدا من أهل المنطقة يعرفني أو فرد من العشيرة نسيت شكله واسمه...نظرت إلى الكارت الأسود..وجدت فيه أحد عشر رقما لشركة (زين) للاتصالات..وتحت الرقم زخرفة جمجمة وعظمين مثل إشارات التحذير من الألغام ومن خطر الكهرباء...وفورا سمعت خفق أجنحة قويا وحفيف هواء دفعني للوراء بالكاد رأيت جسما طائرا انضم إلى جوقة طيور ضخمة تدور وتلتف حول منطقة الجريحي.

يواصل (زناد): استلمت راتب التقاعدي من مصرف الرافدين في مدينة الشعب.. وكنت أمشي باتجاه سيارات (الحسينية) مقابل سوق

مكتبة الفكر الجديد

مشكلتك.. ربما يصححوا الخطأ وتولد سنة (2054) في روما.. لماذا تستعجل وتتضايق من قبر بيتك في (الجريخي).. وتخرج بدون غطاء قانوني وتعرض نفسك للخطر بينما قضيتك قيد التباحث والنقاش في الطابق السابع.. اصبر.. اصبر قليلا.. في حياتك الأولى ورطت نفسك ببحر من المشاكل مع الجميع.. واليوم في حياتك الثانية دشنتها بفتح أبواب جهنم.. يمعود.. يمعود صارحني: أنت ميت لو عدل.. لو شبح.. صارحني من أعطاك بلازما الأشباح.. من أين حصلت عليها؟

ـ أرجوك يا عزرائيل أخبرني كيف مات أصدقائي في مدينة الحرية؟

ـ عجيب أمرك.. اسألني عنك أنت.. على مصيرك.. كيف متَ وقمت.. أين ومتى وهل عانيت وتعذبت بآلام مخاض القبر.. (أوكي) لا بأس.. سوف أحكي لك بشرط أن تعود للمكان الذي منه أتيت.. موافق؟

ـ نعم موافق...

ـ إسمع: صديقك (صباح) قتلته رصاصة تايهه وضاع دمه بين قبائل المافيا الدينية.. وصديقك (عبد الأمير) قبضوا عليه متلبسا بجريمة الحب الذي حرمه جمع المشايخ بفتاوى منوية.. وحكمت عليه المحكمة الشرعية بالرجم حتى الموت.. وصديقك (ثائر) انعزل ونفى نفسه.. وراح يعزف على كيتاره.. يعزف ويشحب لون وجهه وينحل جسده.. يعزف ويفقد وزنه كأن الموسيقى تشرب دمه.. استمر يعزف ويعزف حتى وشل دمه لآخر قطرة ونشف.. شربته الموسيقى فوجدوه منطويا ملتفا على الكيتار جلد وعظم.. حتى صار الكيتار هو تابوته.. أما صديقك (حلو) فمات شهيدا بكس مفخخ.. تعرفه أنت كم كان يحب النساء.. تبرعت واحدة من مجاهدات النكاح وفخخت فرجها.. كانت جميلة حسناء لم يصمد (حلو)

مكتبة الفكر الجديد

أمام غنجها ووحشية جمالها فأخذها إلى شقته في شارع عشرين في مدينة (البياع).. وهناك ارتعب سكان العمارة لحظة دوي الانفجار.. اهتزت جميع الشقق وانخلعت الأبواب والشبابيك.. ولم يعرف أحد إلى اليوم كيف قتلوا (حلو).. هل أخبرك عن موتك أنت.....

ـ لا.. لا.. أرجوك.. أنا لا تنقصني الكوابيس.. حياتي سلسلة طويلة من الجيثوم.. ولا يأخذك الظن بأني أهاب الموت وأخاف القتل.. ذاكرتي منقوعة بالدم الذي يقطر من سقف العالم فوق صلعتي المسكينة ذات خصل الذوائب.. يقطر الدم بلا انقطاع.. ربما تساقط شعري من طول انتظاري للموت.. لا..لا بل من نجاتي وإفلاتي من ميتات محكمة لا يفلت منها (جاكي شان)..وها انا اختض مرعوبا فربما تنتظرني أنواع ميتات جديدة.. وأفلت منها أيضا كأني سيزيف وشقاؤه مع صخرة الموت.. طبعا جربت وصف صورة رسمتها لحياتنا.. هنا في هذه البلاد وكم نزوغ ونراوغ أشداق الموت.. كانت حياتنا أول الأمر فيلم عربي ثم صارت فيلم هندي وبعدها فيلم صيني.. والآن صرنا فيلم كارتون.. كم استنزفت خيالي وأنا أجرب وأرسم صور أنواع الموت.. وأخيرا فشلت.. جربت كل الحيل اللغوية في الوصف وفشلت في تصوير أشداق الموت المنقضة علينا نحن العراقيين.. وأنا واحد منهم.. أرى كيف تهجم علي...أينما وليت وجهي فثمة أنياب.. حياتنا قد عبرت وتجاوزت ميلودراما الأفلام العربية والصينية والهندية.. وقد عجزت أشداق الموت من اصطيادي كلما حاولت أن تبتلعني وتسرطني.. وصلت دراما حياتنا إلى فيلم كارتون سريع اللقطات:

أركض في نفق ضيق طويل.. أنا اللقمة الوحيدة.. مع موسيقى

مكتبة الفكر الجديد

(الاربع تلاف) فسألتني عجوز تعتعها الكبر وهي في أرذل العمر: يمه وين مصرف الرافدين مال التقاعد؟ كنت أجيبها وأشير بيدي إلى المصرف وإذا برجلين أمسكا العجوز وأشبعاها شتما وسبا.. أحدهما يصيح: قلبنا الدنيا نبحث عنك، أين وليتي؟ أجابه الآخر: متى تموتين ونخلص من شرك. ثم أراد أن يضربها فتدخلت ومنعته وحاول الثاني الإمساك بها وجرها لكني دفعته...ثم أخذا العجوز وركبا سيارة تكسي كانت واقفة بانتظارهم وانطلقت بهم...لما وصلت البيت لم أجد راتبي التقاعدي... هم زين ربك لم يسرقوا الهوية التقاعدية وهوية الأحوال المدنية...رأيت الكارت الأسود ورقم عزرائيل.

أخرجت جهازي الموبايل واتصلت بعزرائيل.. سمعت رنين نغمة غريبة لم أسمعها من قبل..وفجأة دوت في أذني ضحكة مجلجلة وهو يقول:

ـ ألم يحذرك وكيلي من سرقة راتبك التقاعدي.. تعال.. تعال أنا أعوضك.. وإذا فعلا أنت جاد وعندك نية الموت.. تعال إلى مدينة (اللطيفية) غدا.. أسأل عني وسوف يدلونك.. لن تضيع أبدا.

اختتم (زناد) المتقاعد حكايته مع عزرائيل بقوله: لكني لم أذهب فليس عندي نقود أجرة الذهاب إلى (الحلة) والنزول في الطريق إلى مدينة (اللطيفية). وأخرج كارت أسود من جيبه وناوشني إياه وهو يقول: خذه ربما تستفيد منه رغم أنه حذرني وأوصاني أن لا أعطيه لأي مخلوق.

أخرجت من جيبي هويات وأوراق، أمسكت بكارت أسود صغير وقلت لـ (هندي الحلاق): هذا هو رقم عزرائيل.

أخذ الكارت الأسود من يدي وقال سوف أجرب حظي وأشكو له قضيتي على شكل تمثيلية، وسوف أجعل الصوت عاليا في الموبايل لكي

مكتبة الفكر الجديد

تسمع كل شيء، وراقب ماذا يقول. ضرب على الأرقام ورن الموبايل بنغمة غريبة ليست من الأرض كأنها تأتي من صوت نخاع العظام:

ـ ألو..؟

ـ ألو تفضل

ـ عزرائيل؟

ـ نعم.. من أنت؟

ـ أنا زبونك.. معميلك المفضل.. أنا هندي بن بهيه.. إنكم هناك لا تتعاملون مع أسماء الآباء بل أسماء الأمهات... أرجوك لا تقطع الخط وتحملني لأول وآخر مرة.

أجابه عزرائيل وكأنه يتذكر حادثة عتيقة دوخت السماء:

ـ عجيب.. أنت ميت.. ميت منذ فترة طويلة واسمك مدون عندي.. كيف بقيت حيا.. أصدقاؤك وأهلك كلهم ماتوا.. كيف بقيت حيا لحد الآن.. كيف حدث هذا الخطأ في موتك.. آيباخ.. ها.. توا تذكرتك.. حدثوني عن مشكلتك هنا فوق.. أنت ضحية الخطأ المطبعي.. مشكلتك أحدثت دويا ولغطا هنا فوق.. لم يصادفنا أي خطأ منذ آدم وحتى الآن.. وقع الخطأ والاشتباه وصارت ضجة في جميع الطوابق السبعة: ميلادك سنة (2054) وليس (1954)، وفي مدينة (روما) لا في بغداد.. وقع الفأس بالرأس.. ماذا نفعل، وحظك خرا.. هذا الخطأ في الميلاد جرك إلى الخطأ في الموت.. وتعقدت المشكلة وصارت أعوص.. لكنك ميت على أي حال.. من أي قبر اتصلت الآن ومن أي قطاع من قطاع البرزخ ومن أعطاك رقمي؟

أنت الآن تعقد قضيتك أكثر فأكثر.. لماذا لم تنتظر حتى يبتوا في حل

مكتبة الفكر الجديد

تصويرية تلاحق خطواتي وتركض معي هي الأخرى.. موسيقى خلايا ذاكرة الأرض.. وحوش تخمط وتشفط وتبتلع وأنا أركض في النفق.. أتملص من مخلب مثمن وأقفز طافرا من منقار هائل يشبه آلة الحفر التي نسميه (قزمة) أجد ثغرة صغيرة بين أنياب فولاذية وأنا مسجون خلفها بطريقي إلى العلس والهرس...أجد ثغرة بحجم خرم الأبرة فأحول نفسي إلى خيط لحمي.. ثم ألضم هذا الخيط بعدما أفتله بيدي وأبلله بلعابي..أركز وأدخل الخيط بثقب الأبرة..وعندما يخرج طرفه من الجانب الآخر... أبدأ بسحب بقية خيط جسدي اللحمي.. وأركض في النفق الطويل الضيق.. أنا اللقمة الوحيدة.. وفورا تنقض علي أشداق ترغي دخانا وتسيل لعابا أحمر.. وأضيع في لجة زئير ضاري.. وها أنتم تشاهدونني على شاشة الواقع.. تشاهدونني أتدلى بواحد من ألسنة هذا الوحش الكثيرة... أتزحلق مستسلما تلوكني وتقضمني حال انطباق الفكين.. لكن الحظ أو القدر الدرامي يدخرني إلى مصير أبشع وأفدح.. قوة القدر تدخلت وجعلت الوحش يشخر ويعطس ليقذفني خارج شدقيه... يسيل من جسدي لعاب أحمر يقطر مع سوائل دخان وقطران.. وما أن سقطت في النفق الطويل الضيق نهضت بسرعة.. أركض وأركض حتى تلقفني والتف علي ذيل صمغي طويل.. راح يصعد بي إلى رأس وحش غائر في سديم فضاء النفق.. رأسه يتقاذف حمما زرقاء.. وقبل أن أصل فوهة بركان شدقيه سرقني وحش بمئات الأرجل.. إذ اقتلعني بمشقة من صمغ الذيل فانسلخ جلدي.. أنا اللقمة الوحيدة هنا.. والوحوش كثيرة تتضور جوعا.. قذفني الوحش ذو مئات الأرجل في الفضاء وفتح شدقيه مثل هوة لأسقط فيها بعدما زاحمته بعض الوحوش علي أنا اللقمة الوحيدة..

مكتبة الفكر الجديد

لكن طائر مر بسماء النفق.. طائر هائل الحجم يشبه طائرة (ايربص).. مرّ فوقي ودفعتني ريح سرعته بعيدا عن هوة الشدقين.. سقطت في النفق الضيق الطويل.. وها أنا أركض حتى الآن.. لا أعرف نوع الوحش القادم نحوي الذي يتحين الفرصة لخمطي...

يا سيد عزرائيل.. إنك أعرف مني كيف تحولت حياتنا من ميلودراما الأفلام المصرية والصينية والهندية إلى أفلام كارتون.. هل هذا يعني أن الموت بسطوته القهرية ولونه الطاعن في العدمية.. صار بنفس القيمة الدرامية لأفلام كارتون.. صار بنفس الخفة والطيش واللامعقول؟

ـ عزيزي سندي.. أووو.. العفو هندي.. هناك أسرار كثيرة لا يتحملها عقل ولا يطيقها تفكير.. أسرار لو هبت على عقلك دفعة واحدة لخر ساقطا من شاهق.. مثلا: إذا كنت تعرف أنا ملك الموت، كيف تتخيل أن أحضر موت شخص في (طوكيو) وبذات اللحظة أحضر موت شخص آخر في (كابل).. بل كيف أحضر موت آلاف الناس بذات اللحظة في كارثة أو حرب.. هل تتصورني ملك بلا حاشية وحرس وجيوش ورعية.. كل هؤلاء يعملون تحت يدي وبأوامر مني. وإذا كنت أنا ملك الموت.. هل تتوقع أن تجد ملكا للميلاد؟ وهي تعرف كم موت تموت بعد موتك هذا؟

ـ ياسيد عزرائيل.. أنا لا تهمني أسرار عويصة الفهم.. إنني أحتاج إلى حيوات كثيرة لأدرك أسرار نفسي فكم حياة أحتاج لإدراك أسرار الوجود.. ما يهمني فقط: هو أنا الآن وهنا.. وأعتقد أنني كلما أكتشف سر نفسي سوف يدلني وأكتشف خيطا من سر الوجود.. وهكذا تتفتح وردة السر وأشم عطره.. ولكن بمساعدة الخيال.. سمعت من فوق ناطحات سحاب الخيال: أن لكل إنسان حي يعيش على الأرض شبكة قناة تشبه

مكتبة الفكر الجديد

القنوات الفضائية لكنها قناة خاصة به.. تصوره من لحظة التكون في رحم أمه وولادته وحياته إلى لحظة موته.. إذ يمكن لبعض الأموات قدرة مشاهدة الحياة بمجرد أن يفك رقم الشيفرة..مثلا أنا ميت الآن وعرفت رقم شيفرة صديقي (برعم).. يمكنني أن أراه أين هو وماذا يفعل وهل ما يزال خاتلا في القبو أم أن جماعات الثقوب السود صارت من الماضي سيء الصيت.. كما يمكنني التسلل والدخول إلى أحلام صديقي.. لكن المصيبة إذا رأيت القتلة من جماعات الثقوب السود يحومون حول بيته.. ويصعدون السطح تلو السطح لينزلوا إلى داخل بيته وهناك يقتلونه بدم بارد.. المصيبة أني لا أستطيع التدخل وإنقاذ صديقي.. كما إن الميت يتسامى ويتطهر ويرتفع فوق فوق الغرائز والعواطف والتفكير الذاتي.. يسمو فوق الحب والحقد.. يتخلص نهائيا من أسمال العواطف الأرضية.. وهل صحيح أن الميت المتطور يمكنه تقليب القنوات الفضائية لجميع مخلوقات الكون.. التي لا تعد ولا تحصى.. من أصغر الكائنات المجهرية في أعماق المحيطات إلى المجرات والكواكب بشموسها وأقمارها.. والدخول إلى رؤية كوارث وبلايا الثقوب السود.. وهل توجد حياة من نوع ما في الكواكب البعيدة؟ وهل يستطيع الميت المتطور رؤية بداية نشوء الخلق وكيف تطورت الحياة حتى اللحظة الراهنة.. هل هذا صحيح... ويقولون....

ـ ثبرتني بـــ يقولون ويقولون.. دوختني ولعبت نفسي كأنك طفل يرى السيرك لأول مرة.. كل هذه اليقولون التي ثبرتني بها مجرد بديهيات أزاء معجزة الحياة.. وهذه أيضا مجرد عتبات للدخول إلى أسرار أعمق وأعمق.. يتوقف مدى رؤيتها على نضوج الميت وتأله روحه.. عندنا أموات تائهين لم يستوعبوا لحد الآن أنهم ماتوا.. انتهت حياتهم وصلاحية

مكتبة الفكر الجديد

وجودهم في الدنيا.. خلص أكسباير الحياة الأرضية.. هؤلاء الأموات قضى نحبهم منذ عشرات السنين.. وهم يعيشون في برزخ الضياع غير قادرين على تصديق موتهم ونهايتهم في الدنيا.. لذلك هم مثل معدن قلق حائر بين قطبي مغناطيس.. يعيشون مترددين لا هم أحياء في الدنيا ولا هم أموات في القبر.. وأكثر هؤلاء من الشباب الذين ماتوا فجأة..

ـ لي رجاء أخير يا سيد عزرائيل.. دلني على طريق العودة للموت..

ـ نفس الطريق الذي خرجت منه أرجع إليه.. ولكن تخلص أولا من مظهرك الشبحي...

ـ لكني أضعت الطريق.. أنا الآن تائه...

ـ أبحث عنه.. هذه مشكلتك.. أنت وضعت نفسك فيها.

ـ إذن.. تعال إلى وأمتني.. أرحني.. خلصني من الدنيا

ـ هيهات.. هيهات.. أنا لا أميت الشخص مرتين.

ـ تعال وارحمني.. أنا أموت يوميا بلا موت.

ـ عبثا تحاول.. أنا بلا عواطف.. عندي أوامر أنفذها حرفيا فاعتمد على نفسك ومت.. مت.. مت..

ـ حتى أنت يا عزرائيل..

أقفل الخط حتى بدون وداع، التفت نحوي (هندي الحلاق) بوجه متصدع متهالك كمن يعود من مغامرة روحية فاشلة كادت تودي بحياته، وراح يجمع ذويبات شعره إلى الخلف ويشدها وراء صلعته مثل حكيم ياباني عريق، وقال ضاحكا:

ـ هذا عزرائيل علماني يختلف عن جميع العزرائيليات المتداولة في سوق

مكتبة الفكر الجديد

القيامة.. أخيرا اكتشفت أن لكل جماعة من جماعات الثقوب السوداء عزرائيلها الخاص ينصبونه مديرا لشؤون الموت.. وبين فترة وأخرى يدسون له قائمة بأسماء المرشحين لقبض أرواحهم.. وأحيانا تتضارب مشيئة عزرائيلين.. إذ يحمل كل واحد منهما مشيئة زعيم جماعة تختلف وتتعارض مع الأخرى فتحدث معارك دموية بين جماعتين لا تنتهي إلا بتدخل عزرائيل ثالث...

قاطعته وأنا لا أصدق أن (هندي الحلاق) هو نفسه من كان يتكلم مع عزرائيل:

ـ رأيتك وأنت تخابر عزرائيل مثل أي شخص مصاب بجنون القيامة.. حيرتني وأنت تتوسل بعزرائيل لتموت..

ضحك (هندي الحلاق) وعادت الدماء إلى وجهه والحيوية وقال:

ـ كنت أتوقع أنك حزرت كيف يتم العمل بتقية غريزة الحياة.. أنا أتدرب على إخفاء ما أؤمن به.. واصرح بكلام يعجب السامع لكي احفظ حياتي واحفظ ما اؤمن به ويتم العمل بتقية غريزة الحياة وقت المحنة الكبرى والخطر الداهم.. تخيل ماذا سيفعلون بنا لو اكتشفت جماعات الثقوب السود.. أننا ضد عقيدة الموت والقيامة الإجبارية والقسرية.. لو اكتشفوا.. أننا مع الحياة وعشاق الدنيا والحب والفن والكتب.. تأكد بأنهم سوف يرجموننا صباحا في ساحة (الطوبى) وسط احتفال جماهيري.. يتوافد عليه الناس حتى من خارج مدينة (الحسينية).. العمل ضروري بتقنية غريزة الحياة.. وسوف يأتي وقت إعلان انتصار الحياة وانهيار عقائد الموت.. ويتم فضح أسباب جنون القيامة.. أخي (برعم) أرى في عيونك سؤال عن شخصيات ورموز عظيمة ضحت بنفسها من أجل ما تؤمن به..

مكتبة الفكر الجديد

أقول لك: هذه الشخصيات العملاقة التي صارت رموز إشعاع مضيء.. صارت مثل منارات تنقذ الغرقى والسفن التائهة... هؤلاء العمالقة اختاروا الوقت المناسب والمكان المناسب لإعلان قضيتهم... لذلك بقوا خالدين لحد هذه الساعة.. بينما هناك عمالقة وعظماء أخطؤوا التوقيت المناسب وضحوا بأنفسهم وبما يؤمنون عبثا بحيث لا أحد يعرفهم الآن.. أحيانا التوقيت المناسب أهم من أي فكر وإيمان وحب....

قاطعت (هندي الحلاق):

ـ يمعود.. يا تقية يا بطيخ.. آني علسوني برسالة تهديد وأنت فلتت بمعجزة من الاغتيال.. هذا الكلام ليس لي ولا لك.. العمل بالتقية لا يشملنا. ربما صحيح من يعمل بتقية غريزة الحياة يتحول إلى شبح.. يفعل ما يريد بدون أن يراه أحد.. وربما صحيح وفعلا توقيت إعلان حب الحياة أهم من الإيمان بالحياة والموت في سبيله مجانا وعبثا.. أو بقاء الإيمان بالحياة مسجونا بداخل رأس الشخص فقط.. وعندما يضحي بنفسه ويموت يأخذ الإيمان معه إلى القبر.

قلت هنا نصف ما عندي وبقي النصف الآخر محبوسا في حلقي وعلى طرف لساني، لكني خجلت من القول بأن (هندي الحلاق) وهو يتوسل بعزرائيل، رأيته صادقا ومتحرقا للموت، ربما الموت الذي يختاره هو لا الموت الذي يختارونه له.

رأينا انبلاج ضوء الصباح وهو يخترق زجاج النوافذ والأبواب، نظرت إلى الساعة فكانت الخامسة والربع فجرا، قلت متثائبا:

ـ أخذتنا السوالف وطرّ الفجر.. نام.. نام.. ساعة ساعتين.. واحلم.. احلم بعزرائيل ثوري لا يخطف سوى أرواح السفلة.

مكتبة الفكر الجديد

في الميدان يبيعون أحشاء التاريخ

في رأسي ضجيج سوق هرج على الضفة الأخرى مقابل سوق القيامة، ينافسه على جذب الزبائن والمتسوقين، ويناكده بالعري من ثياب الزيف، والتخلي من أحذية ونعالات الذهاب إلى مُتحف الأقنعة، حيث انتحال أفكار وعقائد وطقوس من أجل ربح الدنيا والآخرة في صفقة واحدة. كذلك يناكده سوق هرج برؤوس حاسرة من شعث هموم الماضي والحاضر والمستقبل، رؤوس لا تقبل القسمة على الدنيا والآخرة.

صحوت من النوم قبل منتصف النهار وبقايا ضجيج سوق هرج يندلق من أذني تذكرت أن اليوم جمعة حين رأيت أخي (عناد) يقف في باب بيتهم متأبطا سجادة الصلاة وعلى رأسه طاقية بيضاء وبيده اليمنى مسبحة سوداء مية وواحد. قلت له إن مجاري البيت طافحة وكلفت عمال بحفرها وتصليحها. قلت له ذلك كي لا يشك بما يجري في بيتي من حفر سرداب وتلال التراب.

سألني إن كنت أحتاج إلى مساعدة فشكرته وقلت له: تقبل الله صلاتك مقدما. تحرك وانضم الى الحشود المتوجهة إلى الآخرة. لولا اختلاف ألوان الدشاديش لكان الزي موحد: سجادة تحت الأبط، طاقية بيضاء

مكتبة الفكر الجديد

فوق الرؤوس، مسبحة سوداء، وطبعا الدشاديش مع قليل من البناطيل والقمصان ورؤوس حاسرة، الجميع متجه إلى صلاة الجمعة أفواجا أفواجا. لقد تخلصوا مرة واحدة وإلى الأبد من بدلة الزيتوني وشوارب (8) شباط ومسدس في حزام الخاصرة عند البعض، ودفتر صغير متسخ من كثرة حمله مع كراس ثقافة نغولة العقيدة.

مشيت مع الحشود ورأيت أن الوجوه تخزرني مربدة مزبدة تحوقل وتبسمل وتستغفر بكراهية وشزر إلى الدنيا وأهلها حتى إني لمحت صبيا مراهقا بصق باتجاهي بسرعة، اشتعلت عيوني غضبا وسمعت صريف أسناني فانطلقت أهرول نحوه، ولما رآني أتوجه إليه أريد التهامه أدار وجهه وزاغ بين الحشد يهرول، يلتفت وهو بعيد ينظر صوبي، لكني ركبت رأسي وتبعته متجاهلا كونه مراهقا ومدفوعا بشعارات جنون القيامة وإن شكلي يبدو من أهل الدنيا لا أحمل سجادة ومسبحة وملابسي متصالحة مع الحياة، كل هذه الإشارات والصفات جعلته يبصق علي، يكفرني ويفسقني من خلال الشكل الظاهري بدون أن يعرف من أكون، ازدادت سرعته وقد تحولت الهرولة إلى ركض بين الأجساد حتى اختفى من عيني، بقيت أمشي مع الحشود التي انشطرت إلى نصفين: الأول يجري باتجاه الشمال عند رأس شارع (الجريحي) حيث جامع سيد حسين. والنصف الثاني يجري جنوبا باتجاه السوق (الجبير) حيث مسجد الامام المهدي، وأنا بطريقي لبيت (دخان) أتفق معه على المبيت عندهم ثلاثة ليالي، لم أقل له بفكرة حفر السرداب بل على فكرة تغيير مجاري البيت.

انطلقنا من بيتهم إلى ساحة الميدان حيث سوق هرج، وقبل أن أصل سمعت نداء الباعة الذين يفترشون الأرصفة والأرض، سمعت نداء

مكتبة الفكر الجديد

وصيحات لباعة دنيويين لا علاقة لهم بيوم القيامة والآخرة وساعة الحساب وطبقات جهنم وعذاب القبر والبرزخ وأبواب الجحيم، ولم أشاهد منكر ونكير هناك ولا مر في سوق الهرج عزرائيل.

لأول مرة وجدت نفسي أفكر في هذا الاتجاه: أهل الميدان وباعة سوق هرج بلا أقنعة يتصرفون واضحين بشكل فج وسافر، سكارى بخمرة الوضوح الساطع: القواد يقول لك بصراحة: أنا قواد. اللص الحرامي يقول لك بشهامة وطيبة: إني حرامي..سارق..لص..لا تقترب مني فأنا خطر..أسرق الكحل من العين. والعاهرة القبيحة والجميلة تقول لك بعفة ونبل وشرف: إني عاهرة متلبسة بالبغي عن سابق تصميم وترصد.

هنا في الميدان لا أحد يدعي بعكس ما هو عليه مثل بقية مناطق بغداد المتشحة بالوجوم وزحمة الأقنعة والبراقع والأحجبة والنقاب، يتكلمون مع الناس باستخفاف وخشم عالي من وراء القناع، لكل مناسبة قناع، والجميع يردد المثل المستهلك (لكل مقام مقال) وفي واقع الأمر: لكل مقام قناع. وطبعا من شدة استفحال جنون القيامة لا يفطنون لوجود الاقنعة، بل إن بعضهم يعتبره واجب شرعي وعرف اجتماعي لا يجوز التخلي عنه،، ويبررون جواز لبس القناع بالقول: ماذا تفعل في حضرة قائد وزعيم وقيادي ووزير ونائب وسياسي، هل تتمضحك وتتمازح ويرتفع صوتك أعلى من أصواتهم أم تنزوي وتحترم نفسك وتصمت فلا يسمع أحد أنفاسك.

ولكن هنا في ساحة الميدان تتساقط عنك جميع الأقنعة والقشور والأغلفة، تتمزق كل ثياب الزيف وتتطاير في هواء سوق هرج، هنا تنزع كل ما علق بوجهك من بثور الواقع وثآليل العيب المنافق، تشعر بزوال

مكتبة الفكر الجديد

لل غامض فتمشي بحرية وألفة وراحة: هنا تكون أنت نفسك لا أحد غيرك يلبس وجهك ويشوه ذاتك ويمسخ روحك ويسوف خفقات قلبك، هنا في الميدان الحياة عارية، والناس الموجودين فيها يعمقون عريها.

ندسني (دخان) وهو يوميء برأسه إلى ثلاثة أشخاص واقفين قرب بائع باقلاء بالدهن. واحد منهم شعره طويل أحمر فوق وجه أسمر مجلوط مفوف بالعهر، والآخر مدبوغ الوجه مقشر البشرة مفتوح القميص، والثالث بدشداشة نايلون سوداء تبرز مفاتنه القبيحة من بين طيات الدشداشة. كان الثلاثة يتمايلون بغنج وضحكات نسائية ورؤوسهم تلتفت إلى جميع الجهات كمن يشتهي الرقص لكن سبب قاهر يكبح هذه الرغبة فيضطر إلى الرقص الموضعي بالعنق وحركة الأيدي واهتزاز الورك. لمكلهم المفضوح هذا يقول: إي.. نعم.. نحن هم.. هم الذين في رأسك.

لكني رأيتهم أطهر وأنظف من المراهقين الثلاثة لصوص الجثث.

قال (دخان) ينبهني لعدم الاقتراب من هؤلاء. ثم تركني صوب شارع (المتنبي) الذي يغص بأغلفة الكتب وأغلفة البشر.

جلست على تنكة فوقها (مندر) قطن وسخ وطلبت استكان شاي على ناصية رصيف مقهى ارتجالي. شربت الشاي بمتعة وهممت أن أطلب آخر لمذاقه ولذته،من أين هذه الخبرة الراقية في تخدير الشاي وإعداده فوق منقلة فحم برغم أنه شغل نسائي، لكني نهضت ودفعت ثمنه،أقول لنفسي لا بد من العودة له فلا يمكن الشرب من هذا الشاي إلا مرتين. دحست جسدي بين أمواج الناس الموبوءين بجنون القيامة، الذين وجدوا أنفسهم هنا في الميدان بالصدفة أو الفضول، وجدوا أنهم قد سقطوا بورطة الحياة فتصاعدت عندهم حدة الفصام: كيف يقلبون بحاجات الدنيا وهم مجانين

مكتبة الفكر الجديد

القيامة يفترس قلوبهم يوم الحساب، جاؤوا إلى هنا لتنفس هواء الحرية فاصطدموا بثقل أنفسهم وكيف يجرجرون وراءهم كل مقابر الدنيا، وقد تشوشت عقولهم خاصة عندما سمعوا صوت رجل أشعث، صعد فوق صناديق طماطة فارغة وراح يلقي قصيدته العصماء، كان مطلعها:

نمزّق ديننا بترقيع دُنيانا

فلا دينُنا يبقى ولا ما نُرقّعُ

انشغلت بصياح ومُناداة الباعة الدنيوي الأرضي البعيد عن مستلزمات القيامة والموت. سمعت أحد الباعة يصيح: تعالوا.. هلموا انظروا.. هذا خنجر هند الذي قطعت به كبد الحمزة وأكلته.. تعالوا شموا رائحة الصحراء.

نظرت للخنجر.. هلالي أسود مزنجر يتساقط منه رذاذ الصدأ، قبضته بلون الرمل منقوش فوقه أفعى بسبع رؤوس. شك البائع هذا الخنجر في حزامه، ورفع قطعة بلور بحجم الطابوقة يتوسطها شعر أسود خشن على شكل شوارب، فصاح البائع: انظروا.. هذه تحفة لن تموت.. انظروا شوارب جنكيز خان.. هذا كل ما بقي من ملك العالم.. كونوا على موعد معي غدا.. سوف تصلني من السوق السوداء للموتى شوارب ولحية الريس مختومة ومحفوظة داخل زجاج العوجة.

سرق انتباه الجمهور بائع آخر يضع على رأسه قبعة مناجم فيها مصباح، جعر يصيح: هذا صولجان (اسماعيل الصفوي) يحمل رأس تنين ينفث النار بحيث يمكنك أن تشوي عليها سمكة. ثم جذبنا صوت بائع يلفي بطريقة استعراضية ينافس بها بقية الباعة وهو يشرح بإسهاب وإطناب حول خرقة جرباء فرشها فوق الرصيف هي بقايا بساط عتيق مهلهل

مكتبة الفكر الجديد

الحواف منقوش عليه سعف نخيل ونجوم على شكل بقع دم. صاح البائع يشرح: هذا البساط الذي اغتصب فوقه خالد بن الوليد زوجة مالك بن نويرة، ويشير إلى ثقوب نجوم على أنها بقع دم. ثم ترك البساط وأشار إلى قدر كبير أسود مخسف رفعه بيده ووضعه فوق البساط وهو يصيح ويشرح: هذا هو القدر الذي طبخ فيه المسلمون العشاء حيث وضع خالد بن الوليد رأس (مالك بن نويرة) كثيف الشعر كوقود للقدر. وبحركة مسرحية استعراضية ونداء جلب الناس القريبين والبعيدين وتحلقوا حول البساط وصاح: الآن تعالوا معي لنرى أحشاء التاريخ.. هاكم.. انظروا، ورفع غطاء القدر بتلك الحركة السحرية والتي يكررها يوميا عشرات المرات، حالما رفع الغطاء طارت حمامة نقية البياض ساطعة وصاح: هذه روح الحلاج.. صلبوه هنا على شواطيء الدجلة وحرقوا جثمانه بعجلة وذروا رماده فوق سطح الماء بلا خجل. يوميا تطير روح الحلاج هذه إلى مكان الصلب والحرق.. تحط فوق شجرة صفصاف وتسأل ماء نهر دجلة: هل تتذكر عطري.. هل قرأت ريحانة ضوئي وأنا أقول:

ألقاه في اليم مكتوفا وقال لهُ

إياك إياك أنْ تبـــــتلَّ بالماءِ

ثمّ تعود الحمامة روح الحلاج إلى داخل قدر التاريخ هذا، وأشار إلى القدر الأسود المخسف المطعج.

اخترقت حلقة الجمهور الواقفين عربة مدولبة للمعوقين تجلس فيها امرأة شعثاء أسنانها مثلمة مكسرة تفوح منها رائحة عرق مغشوش، انقضت على البائع حامي روح الحلاج تسب وتشتم وتفشر بدون مقدمات: أبو العيورة أخ الكحبة ليش تبوك الكَدر من الحوش. يبدو أنها

مكتبة الفكر الجديد

تتهم البائع بسرقة قدر التاريخ من بيتها، لكن البائع الحذق غير الموضوع وهو يصيح ويعلق:

ـ أقدم لكم حفيدة الخيزران زوجة الخليفة هارون الرشيد.. ولكن شتان ما بين العصرين وبين الفتاتين.

ضحك الجميع وتفرقوا إلى باعة آخرين لكنوز أحشاء التاريخ التي سوف تأخذ طريقها الطبيعي إلى مكبات الزبالة.

سمعت أحد رواد الميدان المخضرمين يقول:

ـ كنا نحبس النفس ونحن نجتاز وزارة الدفاع القريبة من الميدان، مشيدة بالطابوق الجمهوري الذي اصفر لونه وشحب لكثرة ما يرى من بلايا وجرائم داخل الجدران حتى الأشجار لا تصمد ثلاثة إلى أربعة أيام وتموت واقفة مرعوبة، لكن عملية التشجير بقيت متواصلة والشتل في كل أسبوع لأن النبات يذبل وينكمش على نفسه من الرعب ليموت منتحرا إلى أن انتقلت وزارة الدفاع إلى طريق باب الشرجي وبقيت البناية القديمة خالية، عندها اخضرت الأشجار وتفتحت البراعم والورود والأزهار، لكن النبات بقي متوجسا من رعب قديم.

وحالما نعبر وزارة الدفاع مهرولين بخفة وسرعة ورؤوسنا محنية نتحاشى سؤال (هويتك أخي)، حالما ندخل سوق هرج في الميدان نطلق الزفرات لمجرد بقائنا على قيد الحياة غير مُعتقلين ولا سجناء بتهم يسد خشمه منها (قرقوش). نتنفس أوكسجين النشوة في الحياة بعدما يحتضننا هواء الميدان، وتحتفي بنا أسراره، تلك الأسرار التي يعرفها الجميع حتى الأطفال، أسرار سوق هرج مفتوحة الأبواب والشبابيك على ملائكة السموات وصعاليك الأرض.

مكتبة الفكر الجديد

تفسخ عصر الميدان الذهبي وبيعت مخلفاته فوق جسده المنحل بنفس الساحة التي كانت تعجّ بكل ما لذّ وطاب، تفسخ مثل بائع يسطر وينضد على بسطيته أشلاء جسده يبيعها لمن يدفع أكثر، لكن الميدان بقي يناكد يوم القيامة ويطرح بضاعة تعطّ برائحة الدنيا ويغرق سوق هرج: بعصارة كريم مزيل شعر اللحى والعانة، مع كبسول وبخاخ لمواصلة انتصاب القضيب وتطويله، كذلك مساحيق تضييق الفرج وتصغير حجمه، واخترعوا وصفات ارتجالية للشهوات وزيادة عدد ووقت الرهز والنطز من أعشاب هندية مخلوطة بجوزة بوة والجرجير وملحقاتها الشبقية التي تقلب الآدمي بلحظة إلى ثور سفاد لا يمل ولا يتعب من الرهز. وابتكروا خلطة أعشاب تايلندية مع شراب (الفياكرا) يمحو يوم القيامة ويجدد الخلايا الميتة في الخصيتين.

كل هذا الكفر والزندقة أغاض شيخ (فضل الدين اللهيبي) ومسح خطبه الرنانة بالوحل. خطبه العاصفة عن يوم الحساب في جامع (الأحمدية). محنة هذا الشيخ وامتحانه الصعب أنه يقع في منطقة الميدان، ويتكئ سوق هرج على جدار الجامع العالي السامق والكبير. الشيخ (فضل الله اللهيبي) منكود الحظ والسمعة الحمراء، يبني في كل جمعة قلعة الإيمان وساعة صفر القيامة فيأتي سوق هرج لينسفها برمشة عين تغمز، تنسفها لحظة شبقية، فلما يصعد الشيخ بالمصلين لعنان السماء يسقطون من شاهق بعفطة زبج من سكران في الميدان. توغلت شياطين القلق في روح الشيخ المسكين وهو يسف لحيته الصهباء شعرة شعرة، وهو يفكر ويخطط لطرد الباعة وحرق سوق هرج والتخلص نهائيا من رواد الميدان: فكر في استخدام الشرطة البلدية والصراصير والجرذان، لكنه سرعان ما ألغى الفكرة لأن الشرطة

مكتبة الفكر الجديد

والبلدية يعتاشون على أوكسجين الرشوة، أما الصراصير والجرذان فهي صديقة البشر وها هي تتآلف وتتكيف مع بضاعة الباعة وأسمالهم. لذلك شيد شيخ (فضل الدين اللهيبي) حديقة بأرض سوق هرج لكنها بدل أشجار الكالبتوس والبرتقال والنخيل أشجار دخان نمت وتعالت وهي تفوح بعطر (الحلولس) والشلغم واللبلبي وأينعت بساط ثيل من خرق العورات وسراويل عاهرات ممزقة الشهوات، وحمالات نهدين يفوح منها براز الفئران وشالات تسيل بالقمل والصئبان، مع بقايا (أرواب) نوم بائدة بالنعاس المجوني.

لاحظ الشيخ تكشيرة هزيمته في حديقته التي أينعت بروائح الصنان والمني وجوارب الحروب حتى صفق بيديه كربا وهو على وشك البكاء يتمتم (ضاع.. ضاع يوم القيامة ضاع)، ثم أجهز على ما تبقى من لحيته الصهباء، نتفا وقهرا على تملص الدنيا والآخرة من بين يديه. هكذا اعتكف الشيخ، يدعو الله بكرة وعشيا بمعجزة تخسف الأرض بالميدان وأهل الميدان وسوق هرج، وانكب ساجدا على الأرض وهو يتخيل بورع أن يبني سورا بالصلاة الكونكريتية وبشيش الدعاء الحديدي وطابوق التراويح الجمهوري حول الميدان وسوق هرج فتنقطع رجل الرجاء الصالح.

المسكين شيخ (فضل الدين اللهيبي) فاته أن الباعة ورواد الميدان طحالب فقر وعوز وإهمال أزلي، كلما اقتلعوهم من مكان انبثقوا ينبتون في مكان آخر، وتلك هي حال أبناء الأرض الفقراء.

رأيت المجانين من بقايا نجوم العصر الذهبي للميدان وسوق هرج، هذا مجانين لديهم رخص شهادة بالجنون، وبعضهم حتى لا يملك أوراق ثبوت له ولجنونه. في الميدان مجانين من كل الفئات والموديلات والماركات، لكل

مكتبة الفكر الجديد

أغلبهم من تركات الحروب التي لا يعرف أحد متى تنشب ومتى تنطفئ. يعزوها رواد الميدان إلى نزوات القائد الفذ الشبقية.

لقد وجدت في الميدان وسوق هرج المنطقة الوحيدة في بغداد من قاومت جنون القيامة وتصدت ببسالة للجراثيم والبكتيريا والفايروسات، بقيت بمنأى عن المرض، لذلك يكتسب مجانين الميدان علامة صحو فارقة عن مجانين القيامة. ثم إن الجنون يعيش معنا كقطط أليفة، وأحيانا يتبخر سائل العقل ثم يتكثف غيوم جنون تمطر ريشا داخل قحف الرأس لكي يحمي الجسد من تلف الإعدام والخطف والاغتيال، صار الجنون درعا نلبسه ضد رصاص الواقع، هو جنون فشل الأمل.

يخترق المجانين كوابيس السيطرات الوهمية صوب الميدان حتى ينامون بفوهة مداخن هولاكو من شدة البرد، وفي الصباح يصحون مثل الزنوج يطالبون بإلغاء سخام التمييز العنصري. أما في ليالي الصيف فينام المجانين داخل جروح الأرض المكيفة بأنفاس الهوام. تجرهم من أنوفهم دخانات سوق هرج وعبق اللامبالاة، يزاحمون القطط والكلاب فطورهم المجاني، الميدان هو المكان الوحيد الذي لا تخاف منه القطط والكلاب وتختلط بألفة مع البشر. ثم يتفرق جميع المجانين في منابع طمث بغداد ومجارير نزيف أبنائها. رأيت الكثير من سكان مناطق بغداد من الأحياء والمدن المصابون بجنون القيامة يسدون أنوفهم ويمتعضون إذا مروا بساحة الميدان، ويستنكفون من تقليب بضائع سوق الهرج، لأن الميدان يتمتع بصيت فاجر وسمعة باهية في الماضي التليد، في عصر الباه الذهبي.

كم أراد المسؤولون في النظام السابق والنظام اللاحق تغيير اسم سوق (هرج) لكنهم فشلوا وبقي عصيا لأنه اسم عفوي تلقائي، يستوعب كل

مكتبة الفكر الجديد

شيء وأي شيء، نجد فيه خليط البر والبحر وطواقم السماوات والأرض، يزخر بحاجات الدنيا مع حاجات لا يحتاجها أحد: مدفأة كهربائية يتدلى من مشابكها أنياب كوسج، ترى شوارب السلطان سليم الثالث تلمع بين فرش الأحذية، نجد مخطوطات أفلتت من محارق هولاكو، ومخطوطات نجت من مكتبة الأسكندرية الضخمة التي أحرقها عمرو بن العاص بأمر من الخليفة الثاني، يقول المصريون: بقيت حمامات الإسكندرية توقد بالكتب لمدة ستة أشهر. وها نحن في الميدان نرى هذه المخطوطات مكتوبة بلغات غريبة وهي مُلقاة فوق لحاف يلمع من الوسخ ومنتوف القطن، تسيل من ثقوبه جحافل قمل النصر الشنيع لحروب منسية، هو لحاف تعشش بين طياته وثناياه عناكب الأرق، التي تنتظر السلام منذ غراب قابيل. نرى الحجاج يبيع البراغي السايفة ورؤوس الدجاج ملثما بسروال العباسة وهو يترنم بمعلقات (سعدي الحلي): دنكَـ يا حلو/ ليلوحك القناص.

رجعت إلى المقهى الارتجالية فوق الرصيف وجلست على ذات التنكة والمندر، طلبت استكان شاي فلاحظت امرأة سمراء قدرت سنها بالثلاثين سنة، تلبس عباءة سوداء كدرع ضد ذئاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. تجلس وسط رجلين مشعوذين بشعر أبيض، يسمعون تراجيديا العاهرة:

ـ أبي أخ الكحبة تزوج امرأة ثانية بعد أمي المسكينة، كنت أنا الكبيرة لأخواتي الأربعة وأخي الصبي صغيرنا.....

انظر واسمع هذه العاهرة الضحية، اسمع وابكي تحت وجنتي بلا دموع على خدي، أبكي واسأل: هل مرت هذه العاهرة بقصة حب في

مكتبة الفكر الجديد

مراهقتها وشبابها أم تلقفتها أيدي الرجال الضباع وتركتها فطيسة عهر. هل مرت بقصة حب ودمر كيانها العشق حتى صارت مجنونة بالحب، لا تعرف وتقدر سجن واقعها الصارم وسجن المجتمع الذكوري القاتل، الذي يذبح الأنثى على الشبهات فقط، أو مثل شخص قذر تافه يعير أخ بأخته بأنها كانت تمشي مع فلان، وهي بريئة طاهرة لا تدري لماذا هذا الأخ يذبحها. حوادث الشرف القذر كثيرة، والمصيبة الدموية أن الذباحة القتلة هم الوحيدون بلا شرف يغتصبون الاطفال والصبيان ولا يذبحهم أحد.

رأيت العاهرة تبكي بدموع لها حجم الدعبل، تتدحرج على خديها وتهبط مسرعة تتوارى فوق الرصيف، تبكي وتبكي وتقول: أبي المنيوك أبو العيورة تركنا وأهمل أمي لا يقترب منها، وأخذ يبتعد عنا خطوة خطوة بتشجيع وسحر زوجته الثانية (سعدية) التي راحت تؤلبه على هجرنا وتركنا نهائيا. اضطرت أمي للشغل في معمل خياطة في الوزيرية لكي نعيلنا ولا نموت من الجوع والحرمان، وحالما سمع أبي القذر بأن أمي تشتغل راح يبتزها ويريد حصة من راتبها فرفضت أمي وأراد طردها من البيت لكنها هددته بالصراخ وفضحه ولملمة الناس عليه والتشهير به لأنه يسرق قوت الأطفال ولقمة عيشهم.

هنا خططت زوجته (سعدية) على جلب أخيها المطيرجي (محمد) لبيتنا وراح يغازلني مرة ويهددني مرة، أينما أذهب أجده خلفي فأدركت فورا أن اخته (سعدية) من حرضته على التحرش بي. وفي يوم ثلاثاء من أواخر شهر آذار صعدت إلى السطح أنشر ملابسنا على الحبل، وإذا بـ (محمد المطيرجي) ورائي يلتصق بي، وشعرت بزبه يتشممني ويحاول دس رمحه في لكني احترقت بنار شهوة الثأر من أبي وزوجته (سعدية) فهجمت

مكتبة الفكر الجديد

على زبه بعضة شفت غليلي. صرخ وعاط هاربا يتقطر من تحت سرته دم لوث السطح والبيت، هرب ولم يعد لكن (سعدية) اخته تحولت إلى ذئبة مسعورة نقلت جهنم من الآخرة إلى بيتنا وجرت القيامة إلى يومنا الأسود هذا فصار كل يوم عندنا قيامة، وحلت ساعة الانتقام يوم دهست سيارة ركاب أمي ولا أستبعد أنها من خطط (سعدية)، نقلوها لمستشفى الكندي وبعد ثلاثة أيام ماتت. طردنا الوالد المنيوك وهمنا على وجوهنا لا عم ولا خال ولا أي قريب، هنا تلقفتني (الصابونجية) واستقبلتني بالأحضان، صرت عاهرة رسمية لها دفتر صحي ورقم مهنة عند مختار المحلة.

توقفت العاهرة عن البكاء والكلام وأشارت إلى صبي مراهق يبيع مناديل (الكلينكس) وأكياس نايلون ملونة، وقالت: هذا أخي يعيل أخواته الثلاثة ويصر على إبعادهن عن العهر والفساد، وأن لا يسلكن طريق أختهن.. أنا.

سردت العاهرة، التي لم أعرف اسمها مع الأسف، قصة حياتها خلال زمن شرب الشاي، فكم رخيصة هي الحياة عندنا. تكون المأساة بزمن شرب الشاي، ثم أيقنت: لا توجد عاهرة إلا وراءها رجل.

مكتبة الفكر الجديد

سرقة الزمن

طفحت مجاري بغداد بقيح التاريخ ووحل الماضي، لقد تفجرت جميع البالوعات المرئية وغير المرئية فلا تنفعنا اليوم سفينة نوح ولا جبل عاصم. الكل يغرق ويطمس ويركس بمياه جنون القيامة الثقيل؟

لكن بعضنا مجنون بالأمل فلا نعرف من ينتصر بعد هذا الصراع الروحي والعقلي: مجانين القيامة أم مجانين الأمل؟

واليوم كلي أمل بتحقيق تمرين على مسرحيتي (حليب أسود) في دائرتي: النشاط المدرسي لوزارة التربية. منذ أسبوعين لم نحقق أي (بروفه) والأسباب كثيرة، أعظمها الوضع الأمني وإصابة المخرج (بلاسم) بجلطة قلبية.

ما أن فتحت باب قاعة المسرح حتى لطمني على جبيني منظر صادم ومشاز: على خشبة المسرح أربعة رجال دين معممين، يجلسون وراء طاولة طويل تنتشر فوقه أوراق، ويجلس خامسهم في الوسط المدير العام. يبدو من شكل العمائم أنهم اثنين من السنة على اليمين واثنين من الشيعة على اليسار أحدهم عمامته سوداء. رأيت موظفي دائرة النشاط المدرسي

مكتبة الفكر الجديد

يجلسون في كراسي القاعة ومعهم غرباء لم أشاهدهم سابقا. أعتقد أنهم كانوا ينتظرونني لأن القاعة ران عليها صمت غامض مريب، ثم سمعت صوت المدير العام يقول:

ـ تفضل هنا استاذ برغم.. اجلس هنا.

جلست في المقدمة أمام خشبة المسرح حيث المدير العام ورجال الدين وخلفي حشد الموظفين، تطلعت إلى الوجوه من حولي رأيتها ليست معي، وجوه ممسوخة بلا تعابير وبلا شكل آدمي ولا حيواني كأن ممحاة عملاقة اشتغلت تمحو الإنسان فيهم سطرا بعد سطر من نظرات العيون وتقاطيع الحواجب وخطوط الطول والعرض للجبين، تمحو شكل الأنف البشري، وسطور الوجنتين لحد الحنك، ماتت كل ما في الوجه من ملامح وبقي مجرد قناع أبكم، قتلها نظام نغولة العقيدة ودفن الإنسان ليولد مكانه موظفي مسلكي.

بدأ المدير العام يقدم ضيوفه: الشيخ فلان بن فلان من مؤسسة الثقلين والسيد فلان من المسرح الإسلامي، والشيخ فلان بن فلان من جمعية الإمام الأعظم الفكرية، والشيخ فلان بن فلان من دائرة المعارف الحنفية. وعلل المدير العام سبب حضوره والضيوف بأنه مجرد عمل روتيني لمناقشة المسرحية كي لا تنحرف الأعمال الفنية عن المسار التربوي وخطة الوزارة في محاربة التطرف والإرهاب والانحلال الفكري والفساد الخلقي. التفت إلى ضيوفه وهو يقول: إننا قرأنا النص المسرحي وعندنا ملاحظات سوف نناقشها واحدة تلو الأخرى.

داهمتني الوساوس فهذه أول مرة يخترق رجال معممون دائرتنا ويدسون أنوفهم بفن وعلم لا يفقهون منه شيئا. لا بد من وجود محرض

مكتبة الفكر الجديد

(زلغ عليّ وايز)، عندهم عميل فتح باب الدائرة وأدخلهم علينا لأننا نعرف معظم المعممين قد حرموا النشيد الوطني فكيف الأمر مع مسرحيتي؟

افترستني الهواجس لأن أيديهم طويلة وبإشارة واحدة منهم أتحول إلى خبر عاجل. طبعا هذا إذا عثروا على جثتي وعرفوا هويتي، وإذا سمحت القناة الفضائية نشر هذا الخبر العاجل. هل أستسلم لهم وأنفذ ما يملونه عليّ وما يقررون فأفقد احترامي لنفسي واحترام الآخرين لي أم أتصرف بهدوء وبدون استفزاز لعقائدهم، أتركهم يقولون ما يشاؤون وينصرفون. ثم أكنس ما قالوه وأنفذ ما برأسي فأترك النص بلا تغيير وشطب وتحوير. أو أرفض تدخلهم السافر بعمل لا علم لهم به. اني ميت.. ميت.. سوف لن أدع شرع الكهنة يدمر المسرحية ويشوهون أفكارها ورؤيتها، لا.. لا.. سوف أرفض ولكن بلا تحدي ومهاترات واستفزاز. أبسط فراش النص على مهل وبدون إثارة غبار، أوضح لهم الخيوط الدرامية الرئيسية في شبكة النص، المهم أن لا أدعهم يستغلون انفعالاتي وأقترف الأخطاء وأقع في الفخ الذي نصبوه لي، قلت لنفسي: اهدأ يا برعم وامتص الغضب والثورة وسيطر على نفسك ولا تدع الحماقة والرعونة تسلب عقلك.. أرجوك يا برعم دع العصبية ونفاد الصبر.. يمعود: هذه المُناظرة لن تتكرر معي مرة أخرى ولا توجد أثمن من هذه الفرصة لرصد آثامهم وإرغامهم لرؤية ماذا فعلوا بالبلاد، ضع إصبعك في عيونهم وقل لهم: إنهم وراء هذا النزيف اليومي، هم من صنع وأنتج الكوارث، ولكن أرجوك بهدوء وخلق رفيع اكشف لهم عورتهم، وضع سلسلة الجرائم أمامهم واسألهم من فعل هذا؟

إنها حرب يا برعم.. أنت اليوم في ميدان قتال وخوض معارك فأما أن تخسر نفسك وتخيب ظن جميع الضحايا، وأما أن تنتصر بالبقاء على قيد

مكتبة الفكر الجديد

الحياة وعدم فصلك من الدائرة والعمل على نصك المسرحي بدون تغيير.

قطع حواري مع نفسي صوت المدير العام وهو يقول:

ـ يا جماعة تبدأ المسرحية بوجود ساعة كبيرة وسط المسرح لها دقات نبض قلب. يدخل شخصان أسطوريان يتسابقان على سرقة عقارب الساعة والأرقام، ثم يتعاركان على ميناء الساعة فيتهشم ويأخذ كل واحد منهم بعض الأجزاء المبعثرة، يخرج واحد من اليمين والآخر من اليسار. مباشرة يدخل صحفي يعلن عن أضخم سرقة في الكون: سرقة الزمن. حيث اختلط الليل بالنهار والأحياء بالأموات وما بينهما، اختفى الوقت وتساقطت أيام الأسبوع فلا يفرق الناس بين الأربعاء والجمعة، واختلطت الأشهر مع بعضها فشباط يدخل في آب وتشرين أكلته قيامة الذئاب، وانفرط عقد السنين فلا يعرف الناس رأس السنة من الرجلين، وتشابكت القرون وعمت الفوضى والبلايا والفتن فلا يعرف أحد: هل نحن في عصر الخلفاء الراشدين أم في عصر الكهرباء والذرة والألكترون، تاه الناس وضاعت المدن وراحت بغداد تبحث عن نفسها.

والتفت المدير العام إلى ضيوفه وأشار إلى صاحب العمامة السوداء وهو يقول: مولانا السيد، عنده استفسار حول سارق الزمن، فاتركه يتفضل بذكر أوجه الغموض في هذه الشخصية.

مسح السيد طرفي فمه بأصابع كفه وبسمل وحوقل وصلى على النبي وآله، ثم نظر إلي باحتقار جارح وهو يقول: في النص المسرحي هذا حيل مبتكرة لدخول العقول، فيها مكر وإغواء سرعان ما يقع القارئ والمشاهد بين براثنها. وخطر هذا النص ليس في السطور بل فيما بين السطور، الكاتب هنا يمارس عمل التقية بحرفية داهية بحيث يطلعنا على سيف

مكتبة الفكر الجديد

الرقابة المسلط، الذي أرغمه على كتابة ظل أفكاره وليس أفكاره نفسها، لنأخذ مثلا (سارق الزمن)، أنا أول مرة أقرأ وأسمع عن سرقة الزمن، وربما هو ابتكار شيطاني لزرع بذور الشك والريبة في عقول المشاهدين، كيف بمقدور شخص مهما كان أسطوريا أو خرافيا أن يسرق الزمن؟

قاطعته بقولي:

ـ هل أستطيع توضيح هذه النقطة بسهولة.....

فأجابني مسعورا:

ـ لم أنتهي بعد، ولأنني أسمع بكثرة هذه الأيام عن اغتصاب الحاضر وتدمير المستقبل من خلال تقديس الماضي، هل قصدك بسرقة الزمن هو هذا؟

ابتلعت شظايا القهر والغضب وهشيم زجاج الصبر وأخذت أسرد له محنة بغداد أمنا، كيف تاهت بغداد في مدنها وأحيائها وشوارعها، بغداد ضاعت ولم تعد تعرف نفسها، تهيم داخل نفسها ولم تتعرف حتى هذه اللحظة على ملامح وجهها: هناك جماعة تضع أمام بغداد مرآة تعكس صورتها على كونها مجرد بستان قريش في عصر الخلفاء الراشدين. وجماعة يضعون مرآة العصر الأموي حيث البلايا والفتن والتناحر على كرسي الخلافة بين الابن وأبيه، واشتدت المحن والكوارث حتى صار القتل على النوايا، وكثرت الفرق والأحزاب وصراعات المذاهب والطوائف، وجاءت جماعة بمرآة كبيرة يعرضون شكل بغداد كعاصمة لهارون الرشيد فلا تزال بصمة العصر العباسي تحتل وجهها وجسدها مع أزياء ذاك الزمان حتى جاءت جماعة أداروا وجه بغداد صوب مرآة دموية فرأت خراب وجهها باجتياح المغول والتتر، أجهشت الجثث وتطافرت دموع

مكتبة الفكر الجديد

دم ساخن من عينيها وهي ترى عمالقة الدخان تتلوى فوق البيوت، والنار تلتهم أحشاء المدن حتى غصّ نهر دجلة بالجثث والكتب كما هو الآن، وصار عندنا أعظم مقبرة مائية في العالم، وأقبلت جماعة ترتدي الطرابيش والعقال والسدارة وهي تحمل مرآة العصر العثماني حيث الطاعون والبرص والكوليرا يعيثون بوجه بغداد، وتفشت عنصرية القومية العربية لطرد إيران من المنافسة في التبعية لتركيا لكن الصفويين هجموا بمرآة ترفرف فيها الرايات السود والحمر والخضر فتعالى من ثغر بغداد النواح ولطم الصدور وضرب الظهر بالزنجيل. وها هي جماعة خرجت من تحت التاج بأيديهم مرآة زمن الملوك لترى بغداد: هل فعلا هذا وجهها؟ وفجأة دوت مظاهرة عارمة شقت جميع الصفوف وهم يحملون مرآة جمهورية عبد الكريم قاسم، وهنا رفعت بغداد وجهها لترى هتاف الزعيم في القمر. والآن اسودت الشوارع بمصارين الناس واظلمت المدن بتلال الجماجم عندما اخترقت جماعة البعث جدران الناس المتراصة، وهم يحملون مرآة حالكة السواد فلم ترى بغداد غير اليباب، وكانت غريبة عن نفسها تعيش في منفى العروبة، إذ ركضت جماعة البعث سريعا للوراء فسقطوا وها هم يُحاولون تكرار الماضي باسم حزب العودة. واليوم جاءت جماعات العقيدة كل جماعة تسحب وجه بغداد إليها حتى تكسر واستحوذت عليه جماعات الثقوب السود. وبغداد تنتظر من يلملم شظايا سومر وبابل وأكد وآشور لتعود فتاة تمشط شعرها أمام مرآة القمر.

تهدج صوتي وأنا أسألهم: أين وجه بغداد الآن، أين زمنها وعصرها وتاريخها الحاضر وأين مستقبلها، هل رأيتم كيف سرقوا الزمن؟ أنتم تلبسون هذا الزي وأنا ألبس هذا الزي فمن سرق الزمن؟

مكتبة الفكر الجديد

لاحظتهم أثناء كلامي يحوصون ويتململون كأن تحتهم بيض تنين، رأيتهم ينودون يمنة ويسرة ويشمرون بردن قفطانهم الواسع. غصت أشداقهم بالكلمات والجمل والعبارات، وهي تتحاشك فوق ألستهم فلا يجدون طريقة للتقيؤ فوقي بضربة فم واحد، وهنا طفرت جملة تقيأها الشيخ من جمعية الإمام الأعظم وهو يرفع سبابته ويتهمني:

ـ أنت شعوبي تكره العرب والمسلمين.

حاولت الدفاع عن نفسي بجملة واحدة فقط: اي شخص يحب شعبه تتهمونه شعوبي...لكن الشيخ الذي يجلس جنبه من دائرة المعارف الحنفية نب بصوت مرتجف يقول:

ـ كل ما قلته هراء في هراء في هراء..فبغداد عاصمة العرب..وكل من لم يرضى ينطح راسه بالحائط.

وما أن فتحت فمي لأجيب سمعت رنين صوت طعن الهواء بسيف لسانه، نظرت إلى صاحب هذا الصوت فوجدته الشيخ الذي يجلس بجنب السيد بالعمامة السوداء،شيخ مؤسسة الثقلين:

ـ لا.. لا.. بغداد إسلامية ثم عربية وأخيرا عراقية.

شعرت بصخرة فوق لساني، أعتقد أنها صخرة التاريخ المتكور والملفوف على أربعة عشر قرنا من الغزوات والحروب والفتن والتزوير والخرافات والأساطير. وأثقل مافي هذا التاريخ هو الدم، ما أن تفتح صفحة كتاب حتى تلوث وجهك رشقة دم. سددت خشمي من بالوعة جيفة السقيفة التي تفوح عفونتها إلى هذه اللحظة فلم يستطع أي حكيم سد هذه البالوعة بغطاء كونكريتي محكم، إذا تحولت الخلافات الحادة داخل السقيفة إلى سيارات مفخخة، وعبوات ناسفة.

مكتبة الفكر الجديد

سقطت صخرة التاريخ فوق رؤوسنا وتناثرت إلى أحزاب وطوائف وكتل وكيانات، كل واحد منهم يقول: الله معنا.

الجميع وضعوا الله في الوسط وراح كل واحد يجره إلى نفسه، وهنا تذكرت مطلع قصيدة شاعر الميدان الذي لا أعرف من أين سرقها:

نمزق ديننا بترقيع دنيانا

فلا ديننا يبقى ولا ما نُرقّعُ

صخرة التاريخ تدحرجت فوق جرائم غزو الشعوب باسم الفتوحات حتى جثم الرمل فوق الصدور وصارت العقول كلها صحراء. الدولة الأموية تقيأت فوق رؤوسنا واختلطت أحشاؤها مع مجاري بغداد وتمخض وحل مقدس فوق لسان نغولة العقيدة: أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة. وتقيأت الدولة العباسية تماسيح تتقيأ هي الأخرى جثث القرامطة وجثث الزنج والعلويين والمعتزلة، حتى سرت عدوى التقيؤ إلى بطون أربعة عشر قرنا فخرجت مخلوقات مجاهدين بشعة بزي أفغاني يحملون السيوف العربية ورشاشات كلاشنكوف وقاذفات، خرجت من القيء سيارات مُفخخة وسيارات رباعية الدفع تحمل رشاشة أحادية (بي كي سي)، مع حشود بزي قماش الظلام في سيارات حديثة، يخرجون نصف أجسادهم من نوافذها وهم يحملون أسلحة رشاشة. وفورا تشكلت من القيء محاكم شرعية تقيم الحد على الحلم والعقل والحرية والحب والورد.

كنت على وشك البصق بوجه الواقع الدموي لكنني بلعتها وفضلت السكوت أسمع صوت قيء الكهنة، إذ قال الشيخ من مؤسسة الثقلين مستفسرا عن معنى ورمز (السخلة)، وأراد مني الإيضاح بلساني أنا فقد لمح بأنهم يتفرسون في النص المسرحي ويكشفون الباطن والمخفي من

مكتبة الفكر الجديد

خلال أسرار بناء رصف الكلمات، كما يقرؤون ما بين السطور وحتى قبل ما ينوي الكاتب أن يسطره على الورق. فقال: أخبرني.. أنت الكاتب.. ما هو رمز (السخلة)؟

كانت القاعة غارقة بصمت الرعب ومختنقة بشحة الهواء فقد رأيت من عيني الخفية وراء رأسي فوق القذال، رأيت جموع الموظفين في شلل تام، وكأن الطير فوق رؤوسهم كما يقول أجداد الوصف وسلف الرصف.

انطلقت بانشراح واندفاع بعدما عبرت الخطوط الحمر، ودخلت حقل ألغام الواقع أردد مع نفسي: اني ميت.. ميت.. وخرا بهذي العيشه نخلصها بالخوف والرعب، بكل لحظة جاك الذيب جاك الواوي. انطلقت وقلت:

ـ أكيد.. أنتم قرأتم النص ووقفتم عند كل سطر وكل ركن وزاوية وكل بيت معنى وحديقة ألغاز.. هل تعرفون بأن أكبر فخ مموه يسقط فيه الجميع إلا القلة القليلة النادرة من المحترفين: إنه فخّ اللغة.. قرأتم كيف أن الصحفي يسمع صليل سيوف وبنادق ونشوب معركة بلسان السلاح الأبيض.. وهو يرى جماعتين تتنازعان على (سخلة):

جماعة (س) تقول: السخلة سخلتنا، والدنيا تركع لنا، توارثنا السخلة أب عن جد منذ أقدم العصور، أسلافنا حصلوا عليها بالتضحيات للغالي والنفيس، وهي اليوم أمانة في أعناقنا.

ثم يرى الصحفي كيف ان جماعة (ش) تقارع جماعة (س) وترد عليهم بحزم: سرقوا منا السخلة في ليل أليل، وكان النفاق والجلف والخداع والصلف يمتطي الرؤوس حتى فسدت النفوس، واستحوذتم على السخلة بالمكر والخداع.

يجيبونه جماعة (س) ساخطين حانقين:

مكتبة الفكر الجديد

ـ هذا كلام رخيص وفهمه عويص.. نحن سادة الأرض وحماة العرض.. فهل يتساوى العشب مع العرانيص؟

طبعا، أثناء الاحتدام والمشاجرة بالألسن تقوم كلتا الجماعتين بنزع ملابسها العصرية وارتداء ملابس تراثية، ثم ينزعونها مرة أخرى أثناء النقاش الدموي ويلبسونها بحيث تبقى الملابس تدور من شخص إلى شخص طوال فترة الجدال التاريخي حول السخلة.

ترد عليهم جماعة (ش) بحزم وصرامة:

ـ لا حجة لكم.. هذا كلام خنانيص.. وكل ما تقولونه لا يقنع حتى أبو بريص ما تفوهتم به في الماضي والآن وفي المستقبل كله دعافيص في دعافيص.

ثم ترد جماعة (س) عليهم:

ـ إلزم لسانك.. لسانك حصانك وإلا قطعته بالمقاصيص.. وما أنتم سوى حفنة من الوصاويص.. مذعورين تركضون من عصر إلى عصر مثل الدعاميص.

هنا تدخل الصحفي ليستفسر منهم عن سر هذا العراك الأزلي ومغزى (السخلة) فيكتشف أن (السخلة) ميتة منذ أكثر من عشر قرون. يبكي الصحفي ضاحكا وهو يقول لهم:

ـ امداكم.. وامدا حظي المسخم.. أكثر من عشر قرون وأنت تتعاركون على سخلة ميتة.

تنتفض الجماعتين، جماعة (س) وجماعة (ش) وهم يهتفون: نموت.. نموت وتحيا السخلة. ويخرجون من المسرح وهم يمعمعون مثل الماعز.

مكتبة الفكر الجديد

التفت صوب الكهنة أقول بأنهم ربما عرفوا ما تعنيه (السخلة) ورمزها لكن سرها يكشفه القاريء والمشاهد.

ثم أكملت بصوت هاديء وقور كأني أتكلم من تحت قبري:

ـ أنا يوميا.. قبل أن أخرج من البيت أتعطر بالكافور وألبس كفني تحت جلدي.. ثم إني ميت ميت فلا رجولة ولا شجاعة بقتل الميت.

حملت حقيبتي وخرجت من القاعة وسط شموع منطفئة من الموظفين الذين خلت وجوههم من أي قطرة دم، خرجت وأنا أسمع صوت خطواتي ترن من شدة الصمت وضراوة السكون، كأني وحدي أمشي على سطح كوكب الأرض في آخر لحظة من يوم القيامة فالناس جافلين مذعورين بفم مفتوح وجمود جسدي، هم مجرد تماثيل وأنا وحدي ترن خطواتي لا أعبأ بيوم القيامة.

خرجت من الدائرة إلى الشارع العام بمرح أمشي على الرصيف، مفتوح الصدر للرصاص إذ وقعت الآن على وثيقة إعدامي والحمد لله لا يعرف مكاني بيتي أي من الموظفين.

المفارقة الميلودرامية أن كل هذه الضجة والتهديد والوعيد على مشهد واحد فقط فكيف إذا تناولنا بقية مشاهد المسرحية عندما نرى الناس هائمين تائهين، كل واحد يحمل ساعة جدارية محل رأسه، وجه ساعة بلا أرقام ولا عقارب، وهم يقفون في طابور طويل أمام مصلح الساعات المنقذ، الذي سوف يصلح عطب فقدان الزمن وضياع الوجود. لكن المنقذ مصلح الساعات هذا يلبس نظارات طبية سميكة كعب استكان وشعره أشيب، معوق الكفين بانحراف للخارج بالكاد يستطيع إمساك الساعة، وبين لحظة وأخرى يخرج من جيبه زجاجة قطارة عين، يضع قطرة في عينه

مكتبة الفكر الجديد

اليمنى وقطرتين في عينه اليسرى. خلفه لافتات كبيرة مكتوب عليها شتى العبارات التي تتعلق بالساعة والزمن والوقت، مثل لافتة سوداء كبيرة وراء ظهره مباشرة مكتوبة بخط الرقعة:ساعة يوم القيامة. وتحتها إلى جهة اليسار لافتة أخرى صفراء مكتوب عليها: يوم الساعة. ولافتة إلى اليمين مكتوب عليها: باب الساعات. ولافتة مكتوب عليها ساعة القدر. ساعة السودة.

ولو امتد جدلي مع الكهنة ووصلنا إلى مشهد (المزاد) لن يتركوني أفلت بجلدي فقد ينقضون عليّ ويأكلوني بثيابي. لو فسرت لهم مغزى الشاب الذي يقف وهو يدخن سيجارة يمين المسرح وعلى يساره ضجة مزاد علني لا يعرف أحد ما هي البضاعة وعلى ماذا تقوم المزايدة. لكن المزاد يبدأ بالهبوط من مليون دينار إلى الألف إلى المئة إلى دينار واحد إلى (ابلاش) مجانا. هنا يعرف القاريء والمشاهد بأن بضاعة المزاد هي ذلك الشاب الذي يدخن سيجارة. عندها يبدأ المزايدون بتقسيم جسد الشاب: واحد يريد الرأس والآخر يريد الصدر وذاك يريد الأطراف، وهكذا ينقض الجميع على الشاب يربطونه بحبل لتقطيع جسده. وقبل تفسيخ الشاب واقتسام أشلائه يعلن سمسار المزاد عن حضور شاعر سوف يشارك بقصيدة لهذه المناسبة. يأتي الشاعر يصعد على تنكة دهن فارغة ويحدق بجموع المزايدين على المسرح وبالجمهور من اليمين إلى اليسار ثم يعيد التحديق من اليسار إلى اليمين ويطلق بصقة على الجميع وينزل.

انسحابي المفاجيء من قاعة محكمة التفتيش الدرامية، جرّ البساط من تحت الكهنة في النطق علي بالحكم. أثناء خروجي وحيدا تخيلت رؤوس الموظفين والمشاهدين في القاعة قد استدارت معي، وعيونهم مشت

مكتبة الفكر الجديد

مع خطواتي لحظة بلحظة وبأنفاس مقطوعة وصمت حارق دمر حكم إعدامي وطردي من الدائرة، وحوله إلى عجاجة رماد يذري بعيون كهنة محاكم التفتيش، ولولا ميراث الخوف والجبن المتأصل بالنفوس لضجت القاعة بتصفيق مدوّي يسقط لثام جماعات الثقوب السود.

مكتبة الفكر الجديد

حلاق عقول

المفروض أن أنجب طفلا واحدا فقط لا أربعة، وبقيت كلما يسألني شخص: كم طفل عندك؟ أجيبه فورا: عندي أربع جرائم. المفروض لا طفل واحد ولا هم ينجبون، المفروض عدم الزواج أصلا، لا.. بل المفروض عدم الوصول لمرحلة الشباب والمراهقة، لا.. لا المفروض أن أبقى طفلا لا أكثر، والافضل أن أبقى طفلا رضيعا،لا..لا المفروض أن أبقى في رحم أمي أعيش بلا تهديد ولا خوف ورعب واغتيال، في رحم أمي لا جوع ولا عطش لا حر ولا برد. لا.. لا.. لا الأفضل والأحسن والمفروض هو عدم وجودي أصلا.

بهذه الشكوى الوجودية التي بثها (دخان) وأنا أقضي معه في بيته ليلتي الثانية، وكلي حذر أن تطفر من لساني كلمة تفضح وجود (هندي الحلاق) معي في بيتي وتكشف سر حفر السرداب تحت الدرج.

ها هو (دخان) أقبل يضحك ويدخل الغرفة، يحمل صينية العشاء ويضعها على البساط التراثي الملون المصنوع من صوف الغنم. رفع (دخان) رغيف خبز فواح وهو يقول:

مكتبة الفكر الجديد

ـ تمتع بخبز القيامة.

وانسرد يشرح كيف أن ابنه (سنان) الذي يبيع الخبز في السوق (الجبير) سمع نداءات صبيان طغت على السوق وهم يبيعون الخبز:

ـ تعالوا قبل الندم وذوقوا خبز القيامة.. لا يفوتكم طعم خبز القيامة.. كلوا ووصوصوا مع خبز القيامة..

حصل (سنان) على رغيف من خبز القيامة وجلبه إلى أمه لكي تعرف سر العجين ونوع التنور الذي تخرج منه أرغفة القيامة. تذوقت الأم طعمه ثم فتحت طبقات الرغيف. وجدت الأم أن الطحين مخلوط مع الكافور، وتم عجنه بزيت بذور عين الشمس مع ماء مبيت فوق السطح مكشوفا للسماء تتمرآى به النجوم والكواكب ومخبوز بنار تحترق فيها عظام. ناوشني (دخان) رغيفا وهو يقول:

ـ لا يفوتك خبز القيامة.

المفارقة العجينية عندما دخلت تركيا على خط القيامة ودمرت سوق البضاعة المحلية بعدما أنتجت خميرة القيامة، التي تحمل طعم ونكهة ومذاق خبز القيامة، حبيبات الخميرة هذه تحمل أسرار طحين الكافور وزيت بذور الشمس والماء السماوي ونار العظام. أنقذتنا خميرة القيامة التركية من الإفلاس لأن زوجتي اشتكت من عمل الخبازة وهي تقول:

ـ الكلفة والتعب والشقاء لخبز القيامة خسارة في خسارة.

كنا على وشك ترك شغلة الخبز نهائيا فالناس لا يشترون سوى أرغفة القيامة. المشكلة أن عملي في بيع ملابس (البالات) محصوله قليل وغير مستقر لا يسد نفقات العيش. ولكن حبيبات خميرة القيامة التركية أنقذتنا، ورجعنا إلى حياة التنور والخبز. ثم ناوشني رغيفا آخر وقال:

مكتبة الفكر الجديد

ـ هاك أشبع واملأ بطنك.. تزودوا بمتاع القيامة.. هاك ادخر زاد القيامة قبل أن تتحقق آخر العلامات وشروق الشمس من المغرب.

سألت (دخان):

ـ كيف حدس أبوك مصيرك مع التنور والخبز فأطلق عليك اسم (دخان)؟

ـ لا.. لا أبي المرحوم قرأ مستقبل الأيام الآتية وعرف بأني سوف أعيش بتنور اسمه العراق.. ولو كان جدي بنفس قوة حدس أبي لأطلق عليه اسم (حطب) بدل سوادي.

قبل أن يفرش (دخان) دواشك النوم اشتكى لي من زوجته، التي ترفض النوم معه وممارسة الحق الزوجي في المضاجعة. المسكينة تؤمن إيمانا راسخا بأن الجماع يلوث يوم القيامة ويشوه حسن استقباله. أما إذا حبلت وكبر بطنها فسوف يشمئزّ الناس منها ويبصقون عليها، وربما بعد كم يوم تصدر فتوى برجم الحامل.

جرّ (دخان) حسرة طويلة وهو يقول:

ـ ماذا أفعل هي ترفض التقرب مني، وتخاف حتى من القبلة فقد تحبل منها... ماذا أفعل: هل أرجع لأيام الجلق.. أرجع مراهق أمارس العادة السرية وقد انحرف زبي لليسار من كثرة الاستمناء، صار يساريا.

فعلا، سمعت الكثير عن هذه الحالات والشكاوى حتى وصلت للطلاق، خربت بيوت وتشرد أطفال بسبب انفصال المتزوجين بخط استواء القيامة. لكن أفواه الغريزة تعوي وتجأر ليل نهار، وهي تهدأ وتسكت بفتات أي لذة عابرة. وجد (دخان) العذر ليطلق العنان لعفريت الغريزة، عفريت بدأ يتشمم عطر الأنثى حتى قاده إلى تأجير دكان في سوق

مكتبة الفكر الجديد

(حنون) لبيع ملابس البالات وشراء حاجات الجسد. هنا بدأت الخيانات الزوجية وجرب الجنس مع نساء كثيرات، حيث دائما تنقض عليه وحوش الذنب ويلسعه لهيب الإثم بعد آخر دفقة لقذف المني ويعاهد نفسه وربه بأنها الأخيرة ولن يعود إلى خيانة زوجته وخيانة نفسه، لكنه يعود ويحنث بقسمه حالما يصعد المني إلى رأسه ويحتل دماغه فيتوقف عمل الدماغ ليبدأ عمل المني في التفكير وقيادة حياة (دخان)، وبقي يبرر بأن زوجته تمادت في هجر فراش الزوجية، كما لاحظ نمو زغب شعر أسود فوق شفة زوجته العليا، وزغب لحية متفرق الشعرات، وانتبه إلى انكماش أثدائها وضمور عجيزتها وأفخاذها. يوم بعد يوم تختفي الأنثى ويحل بالجسد ذكر. انصدم (دخان) ولعب الفأر في عبه وهو ينظر لزوجته وقد استرجلت خاصة بعدما خشن صوتها وبان خيط الشوارب وتزجره بشراسة، توبخه حين يطلب منها الخلوة للجماع. أدرك (دخان) بأن حبل الوصل قد انقطع ولا جنس ولا مُضاجعة بعد اليوم.

قال لي وهو يضحك ويسخر من نفسه:

ـ اني اليوم أخاف.. أخاف هي تنيكني.

انقضت أيام طويلة، وهما يعيشان زوجين بالاسم فقط بدون ممارسات جنسية ولولا عطفه عليها لكان طلقها وتزوج بأخرى، يعطف عليها لأن المسكينة بلا أهل ولا أقارب كأنها مقطوعة من شجرة يابسة ميتة، إلى أين تذهب إذا طلقها ثم هي أم أولاده الحنونة، وهم يحبونها ولا يستغنون عنها أبدا.

من هنا بدأت صولات الخيانة بعدما يصعد المني من خصيته إلى رأسه، وبعد كل حفلة جنس يتوب، وبقيت كل توبة تجر معها توبة أخرى حتى

مكتبة الفكر الجديد

تكدست في قلبه تلال من التوبات الأخيرات، لكن امرأة اسمها (قبلة) كنست باحة قلبه من غبار النساء ومن تلال التوبات، ورشت فيه عطر الغموض فاستكان ضميره وما عاد يحاسبه على الخيانة، وانهزمت وحوش الذنب ولم يراوده هذا الشعور، كذلك انطفأ لهيب الإثم واشتعل مكانه فتيل العشق، في كل لقاء جسدي مع (قبلة) كانت تهمس بأذنه: (القيامة لا تجيء ولا تحل ولا تقوم إلا بملاحم الجسد).

تعلق بها (دخان) وانخطفت معها حياته، شغف بها قلبه ورأسه ويديه ورجليه وصدره وبطنه وعانته بمجموعتها السرية. يشب عيره من تحت اللباس الداخلي والبنطلون، يمد رأسه الأصلع يتشمم عطور وروائح نكهات النساء يبحث مغرما متيما عن عطر الغموض.

طبعا، نسينا النوم وفرش الدواشك و(دخان) سكران يتعتعه الهيام، يتكلم عنها لا بلسانه إنما بكل كيانه، يتكلم عنها بخشوع وتبتل كأنها إناء مقدس، وكلما يذكر اسمها (قبلة) يحتضن ويبوس غيابها الحاضر أمامه الآن.

يذوب وهو يتحدث عنها ويثمل بطعم ذكراها، تدمع عيناه كلما يتلمس آثارها على جسده، يهيم بمجرد تذكر حفيف ثوبها ويكاد يفطس ويموت حين أسأله على شكلها وملامح وجهها. يشحب لونه ويتعرق وتتيبس شفتاه فيتناول قدح الماء ويعب، يشرب حتى يترك القدح فارغا لكي ينسى السؤال، ويحلم برذاذ ضباب هالتها التي تحيط بجسده، وفجأة يجهش بالبكاء ويسد فمه لئلا يرتفع صوت نشيجه، وهو يقول:

ـ السافل زوجها.. الكلب بن الكلب لا يطلقها.. القذر يعرف أنها تحتقره.. النذل زوجها يشعر بالعار والخزي لو طلقها، هو متزوج أربعة

مكتبة الفكر الجديد

وحبيبتي (قبلة) هي الثانية. خدعها على أنه غير متزوج وهي صدقت كذبته إلى أن سمعت أحد التلاميذ وهم يخرجون من المدرسة يصيح عليه (بابا.. بابا).

هنا سقط قناعه لكنه انتفض وكابر وهتف: الرجل يتزوج ألف وحده.

منذ تلك الـ (بابا.. بابا) طلبت منه الطلاق، وبقيت تطلبه وهو يرفض ويُعاند فتزوج الثالثة، التي باعها أهلها، هم يعرفون وهي تعرف بأنه متزوج بامرأتين. ولكن ما تفعل المسكينة وهي سجينة الأعراف والتقاليد لا حول ولا قوة، مستلبة من الأهل والمجتمع والعقيدة والعشيرة والقانون. الجميع ضدها، ومع مرور الوقت تتحول المرأة لتكون ضد نفسها.

استدرك (دخان) اندفاعه وهو يتزحلق بزلاجة الهيام، استدرك وانقلب يتفلسف بذات الحمية والعشق والسكر:

ـ قرأت مثل ياباني يقول: إن الصراع الطويل مع الوحش يجعل منك وحشا آخر، لا تختلف عنه. كذلك هو صراع المرأة الطويل مع الوحش الرجل، جعلها تكتسب صفاته وقسوته بحيث صارت أخيرا مثله، راحت تقلده بوحشية لدرجة أنها تقف وتصطف مع الرجل ضد بنات جنسها وضد نفسها.

تقف جنب الرجل ضد المرأة، تقف مع المجتمع الذكوري ومع العقيدة والأعراف والعشيرة والتقاليد والشرع والقوانين حتى تمادت وأخذت تحاسب بقية النساء عن النقاب، تحاسبهن أكثر تشددا من الرجال على لبس الجوارب السميكة وإخفاء الشعر تماما تحت الحجاب،وترفع سوط التهديد والوعيد إلى عدم ترك ثياب الكونكريت المسلح،وإلى إخفاء أي ثغرة أنوثة أو طية جمال في الثياب التي تفضح عورة المرأة، لأن المرأة كلها

مكتبة الفكر الجديد

مع بعضها عورة. صارت هي الوحش بخيانة جنسها. لقد استرجلت وأنكرت خلقها وراحت تزور العضو الأنثوي بآخر رجولي، زورت النعومة بالخشونة والرقة بالغلظة والقسوة، وزورت الحنان بالجفاء والصلف، هكذا انهمكت بتزوير طاقم أنوثتها كلها فصارت الوحش بكامل براثنه. لكن حبيبتي (قبلة) رفضت وحاربت كل أنواع التزوير، حافظت على نفسها وبقيت أنثى كاملة تخلو من أي ذرة للرجولة.

هي عندي أم الكون وسر بقائه، هي الأم الوحيدة للخليقة، فورما ألمس يديها أتحسس الخامة الأولى للخلق، أول كف أنثى يتشرف بها الكون. أقبل كفها الأيسر ثم كفها الأيمن كمن يقبل عتبات معبد مقدس قبل الدخول إليه. كلما أدنو منها أشعر بالرهبة والسمو، وعندما ألتحم بها ونمارس طقوس الذوبان أفقد جسدي وروحي، وأتحول إلى طيف يصلي في محراب العشق. القضية الجوهرية الكبرى هنا: عندما يتحول الجنس من قذارة إلى ارتعاشة وجد وسمو، تكون الحياة قد أكملت وأتمت رسالتها.

قلت لـ (دخان) ضاحكا:

ـ خرب عرضك دخان على هاي الفلسفة.

تركته طامسا لأذانه في الماء المقدس لعشقه حيث تتصاعد فقاعات ملونة تتفجر قبلات هيام. رجعت للبيت بعد ثلاثة أيام بيضاء في بيت (دخان)، الذي حولها إلى ليالي حمراء مع (قبلة). وأنا أفتح باب بيتي رحت أتساءل: هل حقا هي مجرد ثلاث ليالي فقط. رأيت بقايا تراب طيني في شقوق الطابوق وعند حافات السياج، كأنها فترة طويلة تلك الثلاث ليال حتى اني تذكرت (أوديسيوس) وهو يرجع للبيت لـ (إيثاكا) حيث زوجته وابنه ويتذوق خبز الوطن بعد فراق طويل.

مكتبة الفكر الجديد

لكني هنا في منفى غربة مفترسة وسط وحوش لا مثيل لهم في البر والبحر، رجعت بلا زوجة ولا ابن، فقط (هندي الحلاق) إذا كان موجودا ولم يغير رأيه ويترك كل شيء ويعود هو الآخر إلى منفاه الدموي. عندما رأيت التراب الطيني لم أتوجس وأخاف من جماعات الثقوب السود أو من شكوك الجيران فمستحيل أن يتوقع أي عاقل أن (هندي الحلاق) وأنا نحفر سرداب في البيت: زمن السراديب انتهى بعد سقوط نغولة العقيدة، وقائدهم الجرذ، لم يبقى أي مبرر أو حاجة لحفر قبو والاختباء فيه. سابقا كانت المطاردات السياسية والحروب وأحكام الإعدام على أتفه تهمة، والسفر ممنوع، كل هذه الأسباب وراء حفر السراديب وقد انتهت وتلاشت، لكن رعب جديد حل مكانها، رعب تفتق من جذور الرعب القديم بحيث بقي القتل ولم ينقطع النزيف.

لمحت (هندي الحلاق) يستطلع من وراء زجاج الشباك عندما سمع صوت وحركة باب البيت. خرج إليّ واحتضنني كمن فارقني سنين وليس ثلاث ليال، قادني مباشرة إلى سر البيت. رأيت مدخل القبو عموها بشكل معقول، ومستحيل أن يشكل أحد بوجود سرداب هنا. سحب الغطاء الخشبي الذي تتكدس فوقه صحون فافون عتيقة وقطع ابلاستيك وخشب قديم، سحبه وظهرت فتحة القبو تنحدر بدرج طابوقي ينزل إلى أسفل السرداب، رأيت جدران القبو الأربعة مُستوية ومغطاة بمشمع أزرق وأرضية مرصوفة بالطابوق، فوقه بساط ملون. السرداب لا يستوعب أكثر من نفرين. هنا قال (هندي الحلاق): أننا لا نجلس فيه ولا ننام، ننزل إليه وقت الخطر فقط، إذا اقتحموا البيت ولم يجدوا أحدا فسوف يذهب كل ظنهم: أننا هربنا أو أنت هربت من فوق السطح.

مكتبة الفكر الجديد

كنت أحوص متلهفا لكي أحكي له قصة غرام (دخان) وحبيبته (قبلة). وقلت له عن دوافع هذا الغرام لأن زوجته الخبازة انجرفت بموجة جنون القيامة وهجرت الدنيا وانطفأت شهوتها للحياة، بعدما استرجلت ونبتت لها شوارب وزغب لحية. همدت أثداؤها وترهلت وبقيت مجرد خرقتين لحميتين تتدلى حدّ السرة، ماتت الأنثى فيها قتلها جنون القيامة كما قتل الكثير من الأشياء الجميلة عند الناس.

تعاطف (هندي الحلاق) مع موت الأنثى عند الزوجة الخبازة أكثر من حفاوته بغرام (دخان) و(قبلة). أعتقد أنه مخلوق لرثاء العالم وحب آلامه، تلك الآلام التي تندلع وتضج عندما يموت كل ما هو جميل ويختفي.

قلب (هندي الحلاق) طاولة الغرام على رأسي وهو يشير إلى الأثر الأسود في جبهته، نطق، وسكت وهو يغص بأسرار لا يريد لها البوح والانتشار، تلمس أثر الضربة التي أفقدته الوعي أثناء اختطافه وقال:

ـ هناك الكثير من الناس الأبرياء لديهم علامة أو أثر أسود في الجبين مثلي ولكن جماعات الثقوب السود عندهم في الجبين شيء لا تصدقه العين ولا العقل.

شعرت بـ (هندي الحلاق) يتوغل داخل حقل ألغام فلا يستطيع الرجوع ولا مفر من التقدم، يتحدث، وكأن لسانه حقل ألغام يتوجس بخطوات كلماته لئلا يدوس على لغم ويتناثر إلى أشلاء لغة ومعنى وكيان. تحدث عن أصدقائه الأربعة من (صعاليك القيامة) الذين حفروا السرداب وباتوا معه ثلاث ليال:

بين فترة وأخرى يقوم الأربعة بجولات إنقاذ لمخطوف. وكانت آخر جولة أنقذوا فيها شاب اسمه (عساف) من منطقة راس الحواش في

مكتبة الفكر الجديد

الأعظمية. خطفوه لأنه جاهر بالإفطار في شهر رمضان، شرب الماء بعدما ابتلع قرص حبة بارسيتول لأنه كان مريضا. يقول (عساف) وجدت قبلي ستة عشر مخطوفا بعدما أزالوا العصابة عن عيوني ورأيت وجوه المجاهدين وهم بالزي الأفغاني، حين تكون وجوههم مكشوفة يعني نحن ميتون لا محالة، تقاسمونا فيما بينهم وكنت مع أربعة من حصة أبي حفصة التونسي الذي ساقنا إلى مخزن صغير لمعلبات التمر، الغريب في الأمر أنه أعاد وضع العصابة على أعيننا وفجأة فتح حزامي وأزرار بنطلوني وكشف عورتي، طبعا كانت أيدينا موثوقة، ثم أعاد رفع لباسي الداخلي وزرر البنطلون وأحكم الحزام. قبل حلول الظلام أسقطت عصابة العينين لكثرة ما حركت رأسي فقد اختنقت، ويبدو أني أختنق إذا أغلقوا عيني، ولا أعرف حتى هذه اللحظة ما سر العلاقة بين غلق العيون والاختناق.

بعد صلاة العشاء دخل أبو حفصة التونسي وسحل اثنين منا للخارج وسمعت أربع رصاصات فبقينا ثلاثة في مخزن التمر. كل دقيقة تمتد وتستطيل وتنمط حتى تصير أبد الآبدين، تحولت الدقائق سيوف تدور فوق رؤوسنا مثل المراوح. دخل أبو حفصة التونسي وجر واحد منا كان جالسا بجوار باب المخزن، لم يغلق الباب أو ربما نساه وهنا رأيت الكابوس بأم عيني في الظلام تحت نور الهلال والنجوم، رأيت أبا حفصة يركع ويفتح حزام وبنطلون المخطوف ويخرج زبه، وبدأ يمص ولحيته الطويلة الحمراء ترفرف، يمص وينود للأمام والخلف حتى رأيت انفتاح ثقب أسود في جبينه، ثقب يشبه الفرج، وبحركة سريعة وخفيفة أخرج زب المخطوف ودسه في ثقب جبينه الأسود وتسارعت حركة النود للأمام والخلف. حبست أنفاسي وكلي يقين بأنّ ما أراه مجرد كابوس لعين، وها أنا أرى

مكتبة الفكر الجديد

جسد المخطوف ينحل ويذوي كأن أبا حفصة التونسي يشفط كل عصارة جسد وروح المخطوف، وها هو يسقط مثل خرقة بالية سمل، خرقة من جلد وعظم لا روح فيها ولا نفس.

بعض الناس رأى مثل هذه الجثث مجهولة الهوية، جثث بلا رصاص في الرأس ولا في الصدر ولا حتى جرح.. ومن المستحيل التعرف على هوية الجثة لأن وجه صاحبها مشوه مصوص وجسده جلد على عظم والملابس محترقة لا يغطي العورة سوى رماد أسود يلتصق ببقايا الجثة.

في الليلة الثانية سحل أبو حفصة التونسي المخطوف الثاني وبقيت وحدي في مخزن التمر، وتكررت عملية فتح الحزام والبنطلون مع المخطوف ولم يعد، أعتقد أنه خسر كل عصارات جسده وروحه بعدما شفطه الثقب الأسود وخرّ صريعا كخرقة بالية لا حس ولا نفس مثل المخطوف الأول.

كشف الجريمة طفل يلعب فوق السطح مع طيوره في البرج حين لاحظ حركة مريبة في المخازن المتروكة للكلاب والقطط، شاهد من بعيد لحى طويلة تقود شبابا معصوبي العيون وسمع أربع رصاصات فأخبر أمه، التي أخبرت زوجها عما يدور في المخازن، وهذا الزوج يعمل مضمد صحي في العيادة الطبية مقابل إعدادية الحريري،حيث يعمل (قهار) المعاون الطبي صديق (حديد). لا يبقى عندنا سر مكتوم ولا خبر مضموم فالناس يتبادلون الأخبار بشكل غريزي، كل واحد يفرغ جعبته مما رأى وما سمع وما قيل. هكذا عرف (قهار) قصة المخازن فأخبر (حديد)، وانطلق الأربعة يستطلعون المنطقة التي تقع فيها المخازن المتروكة في الأعظمية.

هنا سمع (عساف) صوت ضرب وصرخة مكتومة، ثم انفتح باب

مكتبة الفكر الجديد

مرن التمر ودخل شخص يحمل مصباح كهرباء يدوي، حل وثاقه وقاده مارج المخزن. رأى (عساف) جثة المجاهد أبا حفصة التونسي. وراح يدقق بجبين الجثة تحت ضوء المصابيح اليدوية لأربعة أشخاص. رأى الأثر الأسود في جبين المجاهد الذي تحول قبل قليل إلى ثقب أو فرج أو دير لا يدري بالضبط. وبكى بلا دموع وهز رأسه فوق بقايا المخطوف الثاني، بقايا ملابس وجلد وعظم ورأس مخسف بملامح مشوهة مستحيل أن يتعرف عليه حتى أهله.

توسل (عساف) أن يلتحق بهم وينظم إليهم من أجل إنقاذ الأبرياء من الخطف والقتل لكنهم رفضوا فلا يريدون إعادة نبش الجروح وارتكاب جرائم الانتقام والثأر. اكتفوا بإعطاء (عساف) رقم هاتف موبايل ربما يحتاجونه وربما يخبرهم عن جريمة كبرى ويدلهم على أوكار الخلايا النائمة.

عاد (هندي الحلاق) يلهث مصفر الوجه من حقل ألغام الثقوب السود، وتذكرت كيف أهمل قصة غرام (دخان وقبلة) وتعاطف مع الأنثى المنتحرة بداخل الزوجة الخبازة. إنه مجبول على الألم ورثاء الحياة حتى قال بانكسار وغصة بأنه منذ ثلاث سنوات لم يرى فراشة، وراح يرتعد من الخوف لئلا تنقرض فعلا وتتلاشى العصافير والطيور، ثم تندثر الأشجار وينشف الماء فلا يبقى سوى الرمل والمجاهدين، الذي قتلوا الله في قلوب الناس قبل قتل الناس. الأرض في خطر، لقد هرمت وشاخت وعجزت بسرعة مخيفة بسبب أفعال البشر. أمنا المسكينة تحولت من الطفولة إلى الشيخوخة بفعل طمع وقسوة أبنائها البشر. ولا نعرف اليوم من يهتم ويسعى جاهدا لإنقاذها وتخليصها من براثن البشر. إن ساعة القيامة التي ابتكرها بعض العلماء المخلصين للحياة وللحب والحرية. ابتكروها

مكتبة الفكر الجديد

لتحذير الإنسانية من الدمار الكوني الشامل، وها هي اليوم ساعة القيامه تشير قبيل الفناء إلا خمس دقائق فقط.

اكتسى وجه (هندي الحلاق) بلون الحياة ورأيت الألق يلتمع في عينيه يسألني هل تشعر معي بأن رأس العالم صار أشعث القيامة، العالم بحاجة إلى حلاقة، تكدست خصل الظلام فوق العقول، تعوسج شعر الموت فوق دماغ الحياة، صار العقل أسود يقود الناس للفناء، كم عقل اليوم بحاجة إلى نور الحلاقة. كنت أحلم، منذ المراهقة أحلم أن أكون حلاق عقول.

تعلمت الحلاقة بشعر رأسي، جربت كل الموديلات والتسريحات من القصات الهندية واليابانية إلى الخنافس والزلوف إلى حفر الشعر والتسريحة الرومانية، وكان الفشل حليفي حتى توصلت بعد تفكير طويل إلى أن شكل وجهي البيضوي وملامحي الناعمة لا تناسبها قصات الشعر الطويل.

اهتديت إلى عدم التطرف لا شعر قصير نمره أربعه ولا طويل يخرب وجهي، اهتديت إلى الاعتدال الشعري الذي يتناغم مع بيضوية الوجه والملامح الناعمة. لهذا صار زبائني وروادي من الأذكياء فقط عدا الطارئين أو من يغريهم صيت اسمي. كنت أقول وما أزال أقول وأنصح الناس والحلاقين: لكل وجه حلاقة خاصة به. لا يوجد موديل لكل شعر الرؤوس، وليس هناك تقليعة تصلح لكل شعر. كل وجه يحمل قصة شعره معه. لقد ابتلى بي شعري من هوسي به: مرة أمشطه للوراء ومرة بكله، مرة أصفه للجانب مع فرق أيسر ثم أقلبه إلى فرق أيمن، وكانت أمي تراقبني وتتأفف وهي تنصحني: (ولك خطية شعرك.. على كيفك وياه). لكني أتجاهلها وأدير لها شعري وأعاندها، أفوج ببحر شعري المظلم إلى المجهول فأسمعها تقول:

مكتبة الفكر الجديد

ـ جيره بفركَك يمه.

مشكلة شعري الوحيدة: لا يهفهف، لا يطير في الهواء مثل أبطال الأفلام ومثل المطربين خاصة شامي كابور وهو يغني (أجا أجا). تذكرني امي دائما: أن أبي سماني (هندي) بعدما رأى فيلم (أم الهند) الذي أدمى قلبه وحفر ذاكرته بحيث بقي يقصه علينا صيفا وشتاء، وفي كل مرة يقصه علينا يبكي.

وأنا كنت حائرا بشعري الذي لا يطير ولا يتناثر في الهواء حتى وجدت نفسي أفتش وأسأل وأتحرى عن صابون، شامبو، مسحوق، أي شيء يجعل شعري يتطاير في الهواء وتتزاحم البنات يركضن خلفي ويتعاركن على الفوز بي، هكذا دفعني شعر (كازنوفا) إلى شارع السعدون، بعدما ملئت جيوبي بالفلوس وساقني قدر شعري إلى حلاقة (هانيبال) حالما تجاوزت سينما بابل، التي كانت تعرض فيلم حب مصري لم يغريني كما إغراء تسريح شعري ليتطاير مع أتفه نسيم. طبعا ليس تسريح شعري من الخدمة العسكرية التي لا يفلت منها سوى أبناء الريس وأبناء الوزراء وأعضاء القيادة القطرية والقومية، بل تسريحه من الجمود، وهو ليس أجعد مثل جلافة غسل مواعين، شعري دمث الأخلاق لا تحركه إلا عاصفة هوجاء أو فسوة واوي.

صالون حلاقة (هانيبال) مترفع راقي يخدع الناس البسطاء أمثالي حين يقدم لهم النادل الأنيق كوب نسكافه ويضع أمامهم مجلات مصورة تافهة. على ذكر التفاهة والعظمة التي يقول فيها الحكيم الاغريقي(منسياس): العظمة والتفاهة كلاهما في الإنسان، فالعظيم يسعى وراء عظمته، والتافه يسعى وراء تفاهته. تذكرت هنا سخرية الحلاق (منعم) قبل أن أكتشف

مكتبة الفكر الجديد

أنه ترك مهنة الحلاقة وراح يشتغل بسرقة وتهريب آثار البلاد، تعرف عليه عند محل شحذ المقصات في شارع الرشيد قبل الدخول إلى أسواق الشورجة. تذكرت سخريته الخبيثة عندما رآني أمسح صلعتي بكفي وهو يقول:

ـ لا بد أن يتمخض من هذه الصلعة عبقري خطير.

وفعلا نط إلى ذهني صلعة الإمام علي بن أبي طالب وصلعة غاندي وبرنارد شو وكل العظماء الصلعان، لكن الصلعة لم تكن في يوم من الأيام هي القاسم المشترك للعظمة. وقتها كنت مغرما بالعدمية، أتخيل نفسي دوما مدفونا مع شباب مثلي في مقابر أرض السواد الجماعية.

أعشق قدري الجميل هذا وأتقبله بروح رياضية وصوفية. أقول لنفسي ما أجمل الموت مغمورا كأنني شخص عظيم تخلى عن الشهرة والنجومية، أهرب من تراكض المعجبين خلفي لرؤية شكلي والفوز بتوقيع على كتب وأفلام وألبومات. أقول:

ـ الشهرة نوع من سخرية القدر عندما يتكالب الناس على نبش كل ما يخص هذا النجم المشهور ثم يبالغون في أسطرة هذا النجم وتحويله إلى طوطم كاركتيري، سرعان ما يبدأ عشاقه أنفسهم بالتهكم والسخرية منه ليصبح مادة للهزء والنكتة وعلكة للهمز واللمز والضحك منه وعليه.

ذلك أنا، أمقت الشهرة وأحتقر النجومية لكي أحيا مجهول وأموت مجهول بلا مجد ولا خلود كأني ما ولدت وما انوجدت أصلا ولا عشت حياة صاخبة دموية في هذا العصر. هذا هو القدر الجميل، جميل في المجهولية والعيش في الظلال بعيدا عن الأضواء، تلك هي السعادة الخفية التي لا يقدرها الناس ولا يفقهون حكمتها. المجهولية مثل نعمة

مكتبة الفكر الجديد

العافية ونعمة الأمان كما يقول الإمام علي بن أبي طالب، الذي أشترك معه في الصلعة مع الفارق العظيم لأن شعري تساقط من فرط رعونتي ومن خلال كيمياء البلاهة. وها أنا في صالون حلاقة (هانيبال) وقد حان دوري على كرسي الحلاقة لإجراء عملية تسريح شعري.

جاء شخص يشبه القوادين يلبس قفازين مطاطيين شفافين، ملط شعري بخلطة كيمياوية لا أعرف مكوناتها، لكنها بلون ورائحة خراء الكلب.

تحملت صابرا مثل النبي أيوب وكأي مريض بالسرطان يائس من العلاج فتقبل وضع الخراء فوق رأسه، مستسلم للموت فلا مفر من القدر المحتوم.

أوصاني القواد الذي يلبس قفازين: لا تغسل شعرك إلا بعد ثلاثة أيام.

لو سألت نفسي آنذاك: لماذا كل هذا العذاب والشقاء والخسائر والتعب والمصاريف على شعرك فماذا سوف أجيب:

ـ لكي تركض الفتيات ورائي ويتعاركن عليّ، ثم أن شعري ليس (سيم مواعين)، صحيح أن شكلي شكل نجم سينمائي ما عدا شعري، وأنا أدرك أن جميع أبطال الأفلام مثلي بفارق أن شعرهم يهتز ويتطاير بلقطة التصوير البطيء (سلولي) عندما يسقط ويموت ويغطي الشعر جبهته وعينيه فتضج صالات السينما بالبكاء والنحيب حتى أنهم يتزحلقون برطوبة الدموع.

غسلت شعري في اليوم الرابع وصرخت كأن رصاصة لدغت قلبي، صرخت وأنا أرى منظر (الطشت) الأسود بشعري المتساقط. كانت مأساة يتطاير فيها الدمع من شدة الضحك. غرق الجميع بالضحك حين التم عليّ أخوتي وأمي وأبي وأبناء وبنات عمي، يشاهدون هذا المنظر:

مكتبة الفكر الجديد

كنت أجلس أمام الطشت بعد التسريحة الكيمياوية، وبعدما غسلت عيوني من رغوة الصابون وفتحتها، رأيت الماء أسود، رأيت شعري كله سقط في الطشت فصرخت مذعورا: تعالوا.. تعالوا أدركوني. هرع الجميع ضاحكين ما عدا أمي، أمي الوحيدة شهقت مرعوبة وسط قهقهات الضاحكين.

جلست على طيزي مذعورا: أحدق بذهول: شعري، تاج رأسي، تاج الوسامة راكد هنا في الطشت تحت الماء والصابون. يعني لم تبقى شعرة واحدة فوق رأسي.

وبتوجس ورعب امتدت يدي اليُمنى فوق رأسي أتحسس الرأس المقطوع، وحالما تلمست الشعر فوق رأسي أطلقت زفرة ارتياح وضحكت مع الضاحكين الشامتين. تلمست تاج رأسي الأسود وبنفس الكثافة والغزارة، هنا شعرت بنشوة الانتصار والفوز، نشوة من يمثل فوق خشبة مسرح فارغ من الجمهور في القاعة، أعرف أن قاعة المسرح فارغة لكني سمعت دوي تصفيق الجمهور، وتمايلت خصلات شعري تتطاير مع ريح دوي التصفيق عند انتهاء العرض المسرحي.

ها هو شعري يتطاير الآن مع ضحكات الريح مثل أبطال الأفلام، ولكن بعد سنة ذهب شعري مع الريح، ذهب تاركا صلعة عريقة تليق براهب بوذي.

تلمست صلعتي العظيمة فعثرت أناملي على خصلات شعر وذؤابات تشبه خصلات (سميغل) في فيلم سيد الخواتم. وانهمكت أنسج ما تبقى من شعيرات مستعينا بفنون الحلاقين الخارقين وبحيل ملائكة الشعر حتى كورت أناملي خصلات الشعر فوق هامة الصلعة كأي مقاتل من الساموراي.

مكتبة الفكر الجديد

نغولة مكية

ثقبت أذني رنة السخرية مرة ثانية، وسمعت (منعم) الحلاق سارق الآثار وهو يقول بخبث:

ـ لا بد أن يتمخض عن هذه الصلعة عبقري خطير.

يواصل (هندي الحلاق) العوم كأنه يدردم مع نفسه:

ـ أنا أعرف أن منعم الحلاق قالها بزعاف سم حاقد لم يستطع عسل كلماته إخفاء وتمويه قصده وما يريد قوله لأن شرار عينيه فضح لسانه. أنا على يقين بأن جملته مزدوجة المعنى:

الأول ظاهري، يحاول أن يستفزني من خلال الصلعة لولادة عبقري. الثاني خفي ومبطن، يضمر ويختزن فيه طاقة الحقد والكراهية ليدفن صلعتي ويدفن التوق والمثابرة لولادة عبقري.

المصيبة الجوانية، وقتها أني تلعثمت كعادتي مع هذه الحالات الاستفزازية الروحية، وزاد ارتباكي، تحيرت لا أعرف كيف أجيب منعم الحلاق، وعن أي المعنيين: الأول أم الثاني؟ المهم ارتبكت ونسيت ماذا قلت، لا أتذكر الكلمات التي قلتها جوابا عن تمخض الصلعة لعبقري خطير. لكني بقيت

مكتبة الفكر الجديد

إلى هذه اللحظة أتساءل: لماذا يكرهني منعم الحلاق، وهو لا يعرفني إلا منذ دقائق، هل أن الكره مثل الحب من النظرة الأولى؟

والله عجيب: منعم الحلاق لا يعرفني إلا عند محل شحذ المقصات وبالكاد عرف اسمي لكني شعرت بنار الكراهية تلسعني،كراهية لا تستطيع العيون إخفاءها وإخماد نارها لكني حقا لا أعرف لغاية الآن لماذا يكرهني.

عموما، أنا الآن بعيد عن التعليقات وقصات الشعر وموديلات الحلاقة، ربما ظهر اليوم موديل حلاقة القيامة.

قاطعته مازحا، أريد تغيير موضوع منعم الحلاق الذي دوخني به:

ـ خابر عزرائيل.. شوف معاملة موتك وين صارت؟

أجاب (هندي الحلاق) مازحا هو الآخر:

واسأله عن سر الكراهية لشخص لا يعرفك، هو لا يقولها صراحة لكن عينيه تقول.. (رفع جهاز الموبايل) راح أحاول مع عزرائيل لعله متفرغ بمثل هذه الساعة؟

نقر على أرقام جهاز الموبايل ورفع الصوت على المكبر لكي أسمع ما يقال، كانت المُفاجأة: رن مرة وثانية والثالثة فيها المنايا. أجاب من طرف العالم الآخر صوت حازم متضايق مثل موظف يقف على رأسه عشرات المراجعين، وقال:

ـ منو.. يلا فضني.. ترى لازمين سره من زاخو للفاو...

قاطعه هندي الحلاق:

ـ آني هندي بن بهيه.. معميلك اللي صار خطأ بزمان ولادته وموته حتى وصل للسماء السابعة...

مكتبة الفكر الجديد

ـ ها.. ها عرفتك من اسمك الغريب ومن الخطأ الشنيع في الولادة والموت.

قاطعه (هندي الحلاق) مرة ثانية وهو يتوسل لئلا يغلق الهاتف:

ـ أرجوك.. لا تغلق الهاتف.. اسمح لي بسؤال عسير حيرني: شخص لأول مرة يراني.. وكرهني فورا من النظرة الأولى.. بماذا تفسر هذا السلوك، وهناك وجوه ضارية تحاول علسك بين أسنانها بلا سبب.. وأنت لا تعرفها وهي لا تعرفك؟

أجاب عزرائيل يمط كلماته بأهتمام لكي يفهم المقابل المشكوك في إستيعابه:

ـ بالتأكيد.. هي وجوه داخل جغرافيا اللاوعي أو العقل الباطن كما تسمونها عندكم في مصطلحاتكم الأرضية.. لقد انغرس في العقل الباطن لهذه الوجوه الضارية شكل شخص جلب لها التعاسة والأذى في الطفولة.. صادف أن شكل هذا الشخص يشبه شكلك.. فيتطابق هنا شكل الشخص القديم مع وجهك.. لذلك يكرهك من أول نظرة وبلا سبب.

كما أنّ هذه الوجوه، هي داخل جغرافيا عالم الذر في المصطلحات السماوية.. العالم الذي رأت فيه الروح كل حياتها منذ الولادة وحتى الموت،وعندما وافقت الروح وبصمت بجميع أصابعها على المجيء للدنيا.. هنا يتطابق وجه من ذاكرة ما قبل الولادة مع وجهك فيكرهك أو يحبك من النظرة الأولى وبلا سبب.

لكن الوجوه الضارية كما تصفها.. والتي تحاول علسك.. هي وجوه تكرهك لسبب واضح وبديهي.. تكرهك لأنك موجود.. وأنت المسكين تنظر لها بدهشة وعجب وتسأل نفسك: لماذا تكرهني... لكن معنى نظرة

مكتبة الفكر الجديد

الكراهية يقول: عليك أن تختفي وتزول لأنك لا تستحق الوجود.. أنت بهذا الشكل المسالم ومنظرك الوديع.. أنت نشاز مثل منظر طفل في حلقة نمور تتناهش للفوز به.. هذه الوجوه الضارية تراك جنسا منقرضا.. نسلا تلاشى.. فكيف تملصت وخرجت من الاندثار؟

ـ طيب.. يا صديقي عزرائيل.. لتتكلم بصراحة واستقامة مادام لا يسمعنا أحد من الأحياء والأموات.. وأنا شبه ميت.. أخو الميت.. وأنت حاضر غائب.. نحن الآن تقريبا على خط البرزخ العراقي.. بودي لو تزورني بشخصك الكريم العملي في قطف الأرواح.. وتقف هنا أمامي.. وننهي مهزلة موتي.. ونغلق ملف خطأ الولادة والموت.. لا أريدك أن تبقى تحوم حولي وأنت تحصد أرواح الناس عامي شامي.. لا تفرق بين طفل وكهل وبين رجال ونساء.. يوميا تأخذ منا بشر ما يساوي حصة العالم في شهر.. هل نحن وقود وجودك السرمدي فلا تتثاءب ولا تغفو.. ولا تعرف معنى البطالة.. خذ إجازة يا اخي.. قابيل قتل هابيل هنا عندنا.. طبعا أنت لا تتذكر الغراب عندما كان ريشه أبيض مثل أمنيتنا في حياة آمنة.. ولا تتذكر متى أطلق آدم موسيقى نواحه.. بينما أنا أتذكر ذاك المنظر وأراه يوميا يقع هنا والآن.. منظر قابيل منفوش الشعر كث اللحية يسفو على حاجبيه قمل الجهاد..قمل ينبع من ثقب أسود في الجبين.. أرى الزفير الجهنمي اللاهب يشوي منخريه.. يحمل بكفه الحجر الأسود وهو يقطر من دم هابيل.. حجر كإسفنجة يقطر دائما وأبدا من ذلك السائل النفيس... هابيل يشخر بما تبقى في صدره من هواء.. واليوم أراه ممدودا فوق العشب الأخضر.. محزوز الرأس.. رأس بعيون مفتوحة نحو السماء.. تعاتب الله: لماذا خلقتنا؟... لأول مرة يداهم عيني هذا السائل الأحمر العجيب... يفرّ

مكتبة الفكر الجديد

مذعورا لا يدري إلى أين يذهب.. يركض في تيه كتيه الغزلان يطاردها نمر مخضرم.. لأول مرة تشم الأرض أمنا رائحة الدم.. وكان الشاهد الوحيد غراب أبيض اسودّ ريشه فورا وصار مثل حياتنا الآن.

يا صديقي عزرائيل.. ذاكرتي منقوعة بذاك السائل الأحمر النفيس.. وكما قلت لك: ها هو يقطر فوق صلعتي المسكينة بلا انقطاع.. اليوم أرى الجميع مُشتركين في جريمة قتل بلادهم... أرجوك لا أريد البقاء حيا والمُشاركة بهذي الجريمة.. أرجوك صحح الخطأ فأنا يوميا أنجو وأفلت من عشرات الميتات.. وكلي رعب وفزع أن تكون أمامي ميتات أخرى.. وأيضا أفلت منها و.....

قاطعه عزرائيل متضايقا إذ انفجر برميل صبره المملوء بالـ (سي فور):

ـ غشيم.. وتبقى غشيم.. ولك.. أنت تعلمني فنون الموت.. تعلم القصاب كيف يسلخ..ول.. ول.. واياك أن تتصل بي وتخابرني.. وإلا أرسل لك رأسا مفخخا حالما يمس مقصك شعره ينفجر عليك..أو أدعبل عليك مجاهد.. يدخل الجنة على صهوة رصاصة.. أو أتهمك بالفسق ويصير قتلك عمل شعبي.

أغلق عزرائيل جهاز الموبايل وسمعنا ارتطام أجفلنا كأن السماء انطبقت على الأرض، عرفنا فيما بعد بأن مجاهدي جماعات الثقوب السود فجروا جسر الحديد. لذلك من المستحيل أن يتمخض من صلعتي عبقري خطير.

ذهبت أشتري علبة سمك التونه من دكان (وعد)، رأيت السماء مشتعلة بالنجوم الساطعة التي تمزق الظلام، لذلك استغنيت عن المصباح اليدوي في رؤية الطريق الذي تسده الزبالة الطاعنة في العفن. تذكرت الآن

مكتبة الفكر الجديد

نتن المراهقين الثلاثة لكن رائحة المزبلة قياسا برائحتهم أعتبرها قرنفل. آخ نسيت أن أسأل (هندي الحلاق) عن هؤلاء المراهقين الثلاثة فهو يعرف الكثير عن شباب مدينة (الحسينية). فاجأني (وعد) مستفسرا عن خلو بيتي هذه الأيام، هو أراد السؤال عن غياب زوجتي لكنه خجل واستحى فطرح السؤال بهذه الصيغة. قلت له بأن زوجتي مريضة عند أهلها، لا أحد يعتني بها هنا، وأن أخي (عناد) وزوجته لا يتركون بيتي من دون عناية.

عجيب كيف يفتح الناس عيونهم بفضول لا يرحم، يريدون التقاط ومعرفة كل شيء، ربما هم يتعذبون من الصمت والغموض، يتعذبون إذا فاتهم أمر وعبرهم خبر. يحبون الثرثار والساذج الذي يكت جميع أسراره وهو لا يدري. هنا قليل جدا من لديه عالم داخلي مشغول به، الناس هنا مندلقون للخارج بكل جوارحهم. العقول تجرها العيون، العيون المبحلقة على غيرها فقط.

ثم فاجأني بسؤال أعوص من الأول وهو يقول:

ـ هل تعرف كم ساعة كم يوم ويحل علينا يوم القيامة؟

أجبته بحملة أشد غموضا من سؤاله:

ـ علمها عند الله.

لكنه رد علي سريعا وهو يقول:

ـ الناس.. كل الناس يقولون.. القيامة بعد غد.

قلت له مازحا وأنا أبتسم:

ـ الله يسمع منك.. تصبح على قيامة.

مكتبة الفكر الجديد

أجابني:

ـ أجمعين.

انسحبت مع علبة سمك التونه التي تكفيني و(هندي الحلاق) فكلانا غير شره ولا نحب الشبع. وقبل أن أنسى سألته عن المراهقين الثلاثة. امتعض وكشر وهو يسد أنفه كأنه شم نتانة الجثث التي تفوح منهم، شم الرائحة من خلال اللغة عندما ذكرت اسمهم، وقال:

ـ انسدّت نفسي فلا أشتهي أي طعام الآن.

انطلق يحكي عنهم بتفاصيل وعمق كمن يعرفهم عن كثب، يلقبهم الناس بنغولة مكيه وهم (أسامة وحيدر ومروان)، لديهم استعداد فطري للجريمة وتطرف غريزي للشر، زايعتهم الكَاع، هم نتاج انحطاط الجنس البشري، يحملون جينات أول مجرم قذر نبت على سطح الأرض، وتطورت هذه الجينات في بيئة دموية عبر آلاف السنين. نغولة مكيه هؤلاء، تربوا في أحضان الحملة الإيمانية التي أطلقها السيد الريس في التسعينيات بعد هزيمته العظمى في الكويت. بسرعة جنونية أدار الريس مقود العقيدة القومية إلى العقيدة الدينية فأغلق البارات والمشارب والنوادي الليلية والملاهي حتى تصاعدت حمى لوثة الشرف عند ابن الريس المعوق(عدي) فقتل العشرات من النساء ذبحا بالسيوف، في منظر مروع أمام الناس، بتهمة البغاء. كانت الصحوة الدينية قد تصاعدت جيفتها إلى تخوم السماوات وأنجبت الكثير من أبطال العهر العقادي أحدهم (حنظل) زوج مكية أم النغولة، وهو شيخ جامع يرتزق من مهنة الدجل في علاج التابعة والمسّ وإخراج الجن وطرد الشياطين، وعلاج العقم عند النساء والرجال وأبطال السحر، وبث الرغبة والتهيج والمحبة والجلب،مع علاجات سرية لا يبوح بها إلا عند الحاجات القصوى.

مكتبة الفكر الجديد

شيخ (حنظل) تزوج على سنة الله ورسوله أربع نساء وما ملكت أيمانه سبع حتى راح الكثير من الناس يتهكمون عليه بقولهم: عنده فريق كرة قدم نسوي وواحدة احتياط.

ترعرع المراهقون الثلاثة (أسامة وحيدر ومروان) هنا في عش الحملة الإيمانية، يلتقطون حب التقوى في باحة الصحوة الدينية حتى نبت ريشهم الدموي من نقر العيون وإطفاء مصابيح القلوب، نبت لحمهم من فضلات الجرائم.

وحين سقط السيد الريس لم تسقط حملته الإيمانية بحيث اختفى شيخ (حنظل) أقل من سنة، ثم عاد بعمامة ناصعة البياض مع حاشية من جماعات الثقوب السود، واستقرّ في الجامع لكنه طلق فريق كرة القدم النسوي، وتشتت نساؤه وأبناؤه على خارطة الويل والثبور. لكن الشيخ (حنظل) سرعان ما جدد نشاطه الرياضي بتكوين فريق نسوي جديد لكرة القدم.

استقرت (مكية) والنغولة الثلاثة (أسامة وحيدر ومروان) في بيت قرب السوق (الزغير) في مدينة الحسينية، وراحوا يمارسون كافة المهن خاصة السطو الشرعي لنيل الغنائم والاغتصاب الحلال، وسرقة الدكاكين والمحال التي تحالفت مع الشيطان، ويبررون بأن الناس كلهم يسرقون بلادهم ودولتهم، وهذا يسرق من ذاك وكلهم سوف يدخلون الجنة لأن السرقة تعجل بيوم القيامة. النغولة الثلاثة (أسامة وحيدر ومروان) وجدوا أنفسهم وسط عالم من الاستهتار الواسع الكبير فانطلقوا لا يتوقفون عند حد ولا يمسكهم أي رادع. لقبهم الناس بالنغولة للمديح لا بصيغة الذم، هم يعملون مع الشرطي واللص والإرهابي، مع المؤمن المجاهد ومع الزنديق الحاقد، هم مع الله والشيطان في آن واحد. الحياة

مكتبة الفكر الجديد

عندهم لقمة مسروقة منهم فيجب انتزاعها من أفواه الآخرين والفوز بها لوحدهم. مفردة (الشرف) لا تسقط عن لسانهم فهم يقسمون بها ويلهجون بذكرها ليل نهار. كما أن منسوب الإيمان طفح عندهم وراح يخر من مرازيب أجسادهم، هم من صنع الشرف والإيمان والعفة والكرامة، ويبيعون كل الطفل بسعر دراجة بخارية، يساومون على رأس شخص مطلوب بسعر بنطلون كاوبوي. وهم الأشد مصداقية في ممارسة القوادة لجماعات الثقوب السود، يجلبون لهم بنات مخطوفات من المناطق الراقية. يقايضون أشرطة عتاد بأشرطة كبسول مخدر مع الجيش والشرطة.

ثم لمعت نجومهم في نزاهة المتاجرة بالأعضاء البشرية. يتلمسون أحياء ومناطق الفقر الرخوة ويبدأ المزاد. هكذا تلمس (مروان) الأصهب الطريق إلى حي (الحميدية) وراء (السدة)، بعدما عرف اسم المقهى الطيني الذي تنعقد فيه الصفقة. لبس دور شخص ساخط على الحكومة والناس والدنيا، لديه استعداد لبيع الأطفال وأعضاء جسده. في المقهى أشخاص يلقون سناراتهم يتصيدون مثل هذا الضحية، ولكن بعدما ينخلون عقله وقلبه والتيقن بأنه غير مدسوس يريد لهم الشر وبتجارتهم النظيفة النزيهة.

اقترب من (مروان) شخص وسيم في جبينه رصعة ثقب أسود، وتجاذب التعاطف والإشفاق بحديث ملتوي حتى اقتنع بأن (مروان) الأصهب يريد بيع كليته.

خرجا من المقهى وقال الوسيم ذو الثقب الأسود بفخر واعتزاز:

ـ كل سيارات الـ (سايبا) الصفراء هنا في الحميدية باع صاحبها كليته واشتراها.. لا تنفق فلوسك هنا وهناك إذا بعت كليتك.. اقبض فلوسك واشتري سيارة (سايبا) واشتغل على باب الله.

مكتبة الفكر الجديد

النغل (مروان) الأصهب يمثل دور الساخط المغلوب على أمره، ينصاع ويهز رأسه موافقا على كلام الوسيم ذي الثقب الأسود حتى دخلا إلى بيت شبه مهدم كان شعبة حزبية لنغولة العقيدة. ومن هنا استلمه أشخاص يتفحصونه مثل أطباء خبراء، ثم استنسخوا هوية الاحوال المدنية لمروان الاصهب، وركب جميعهم في سيارة جيب (واز) انطلقت إلى منطقة الكرادة. هم يعرفون الدرب عن ظهر قلب لكثرة الضحايا الذين باعوا كليتهم. توقفت سيارة (الواز) أمام مستشفى لم يقدر (مروان) الأصهب أن يعرف اسمه إلا فيما بعد. نزل اثنان في جبينهم رقعة ثقب أسود،دخلوا المستشفى لكي تتم الصفقة لكن انفجار عبوة ناسفة قرب كنيسة (مريم العذراء) نسفت الاتفاق ودمرت الصفقة، إذ استغل (مروان) الأصهب هذه الفوضى ونزل من سيارة (الواز) واستدار بخفة ذئب أمعط وصعد سيارة تكسي منطلقا إلى شارع سرقة الجثث في منطقة الفضل.

عرف نغولة مكية الطريق إلى بيع الكلى والأعضاء البشرية فتساقط أمامهم جميع المنافسين لهم. كنسوا تجار مقهى (الحميدية) وازدادت سيارات (السايبا) في مدن وأحياء بغداد حتى قال هندي الحلاق جملته المرعبة:

ـ كلما أصعد في سيارة (سايبا) كأني أصعد داخل كلية.

اكتسح (أسامة وحيدر ومروان) سوق الأعضاء البشرية ولمع نجمهم وكادوا يسيطرون على بورصة الدم لولا ثأر جماعات الثقوب السود وانتقامهم فقد راحوا يقتفون آثار نغولة مكية، وكشفوا بعض مواقعهم في مدينة (الحسينية) وفي (الغزالية) وفي منطقة (الجعيفر) حتى استطاعوا إلغاء صفقات بيع بضربات قاصمة. توقفوا هنا نغولة مكية، أدركوا سر الخطر.

مكتبة الفكر الجديد

لقد تورطوا مع الوحش الأسود وهم غافلون، وقعوا في شباك جماعات الثقوب السود التي لا يتحارش بها أحد ولا يقارعها إبليس ولا تنافسها أي قوة.

اختفى نغولة مكية عن الأنظار وأقفلت مكية باب البيت حتى هدأت عاصفة الأعضاء البشرية. بعدها اهتدوا إلى تجارة جديدة لا تقل ربحا عن بيع الأعضاء البشرية. بل تشبهها من جميع الوجوه ولا ينافسهم فيها أحد من الأقوياء، اهتدوا إلى سرقة جثث الانفجارات، ثم تطورت التجارة بعد تفكير أسود: تطورت بخداع أهل الضحايا الذين لم يجدوا لهم أثرا، اتفق نغولة مكية مع عصابة في الطب العدلي إلى بيع جثث ممزقة بلا معالم وبلا ملامح إلى أهل الضحايا على أنهم: أبناؤهم المقتولين بالانفجار. اهتدوا إلى تزوير الجثث.

و(مكية) أم النغولة الثلاثة تستلم كل أنواع الرواتب من الدولة: راتب الرعاية الاجتماعية، راتب المطلقات، راتب الأرامل، راتب المهجرين، راتب النازحين، وأخيرا زورت هوية وكالة استلام راتب تقاعدي، عندما جاء أولادها النغولة الثلاثة بمحصول مورد هذا اليوم، وجدوا هوية تقاعد وهوية الأحوال المدنية في جيب جثة رجل كهل اسمه (عبد الحسين فرج غاجي) بعد انفجار سيارة مفخخة قرب أكاديمية الفنون الجميلة في الوزيرية. هكذا أضافوا راتبا جديدا لمجموعة رواتب أمهم البرزخية.

مكتبة الفكر الجديد

أولمبياد الفتاوى

رنّ هاتفي الموبايل فقرأت اسم (راهي) الممثل في مسرحيتي (حليب أسود) والموظف في دائرة النشاط المدرسي، الذي هدر صوته بلا تحية ولا سلام:

ـ يمعود، تركت خلفك زوبعة من الضفادع في قاعة مسرح محكمة التفتيش في النشاط المدرسي.. انطلقت ضفادع الخطوط الحمر تتناطط بكل ممنوع ومحجوب وحرام بعدما انسحبت يا برعم. بعدما انسحبت من قاعة المسرح سحبت معك الهواء والكلام والأحكام إذ انعقدت الألسن وغرق الجميع بذهول مرح راقص، وفجأة اندلعت زوبعة الضفادع من كل لسان، تتقافز وتعالى النقيق لا أحد يسمع أحد حتى خرج الجميع ضد الجميع.. وقال لي مسؤول شعبة المسرح هامسا:

ـ سوي شهر إجازة لبرعم.. وخلي أشوف وين تصفى.

شكرته على الاتصال وتطميني وعلى الإجازة الطويلة التي أحتاجها فعلا. قلت لـ (هندي الحلاق) أنا الآن حر لمدة شهر من سخافة الدائرة وقد تركت أثرا طيبا عند موظفي دائرتي في قاعة محاكم التفتيش كما يقول

مكتبة الفكر الجديد

(راهي). لكني وجدت نفسي أنتقل بشكل مفاجيء إلى لصوص الجثث: آني أعرف مكان بيت نغولة مكية (أسامة وحيدر ومروان)، أعتقد أنه بيت ومخزن سرقات الجثث في منطقة (الفضل) لأني رأيت امراة تخفي زند امرأة مقطوع يخشخش ويلمع بالذهب.

أطلق (هندي الحلاق) حسرة طويلة بطول خطر نغولة مكية وبحرقة انفراط عقد أصدقائه (صعاليك القيامة)، ورأيت في عينيه وعدا غامضا يغلب عليه النعاس الذي غمر وجهه. بقيت علبة سمك التونه على حالها لم نفتحها فوضعتها في الثلاجة مع بقايا طماطة وخيار وبرتقال وسندي وتفاح وتمر، مع خبز القيامة الذي اشتريته من بيت (دخان).

فرشنا الدواشك على الأرض وتمددنا، هو قرب السرداب وأنا قرب الباب لكي أسمع ما يدور خارجا في ظلام الشارع، وهو قريب من السرداب لكي ينزل بسرعة إذا داهمنا خطر جماعات الثقوب السود.

هذه اول مرة ننام مبكرا بعد منتصف الليل وسرعان ما غرق(هندي الحلاق) على فراشه في كوابيس اليقظة ثم ركس عميقا إلى كوابيس النوم. وأنا الآخر توحدت بعزف منفرد على آلة الخيال، أغط وأنط بين أمواج الواقع متحاشيا الغرق في نوم ثقيل لا أفز منه إلا على صوت رصاصة في الصدر أو الرأس.

لا نعرف أي لعنة غاشمة حلت في سمائنا وأرضنا فحلق الرصاص بدل الفراشات والنحل واليعاسيب، من المسؤول عن هذا الدمار العام والشامل، وعن دمارنا الشخصي، من: الحكومات، دول الجوار، الشعب، القدر، الدين، الله، أنا، أنتم، من ياناس يا عالم من من من؟

صحوت على صوت أخي (عناد) وهو يناوشني صينية فيها بيضتين

مكتبة الفكر الجديد

مقليتين وقرص جبن أبيض وصمونتين مع قوري شاي وقدح كبير. ثم ناوشني كارت أسود وهو يقول:

ـ هذا بطاقة دعوة لعرس (كنش) ابن (وعد) صاحب الدكان مقابلنا.. يعرس الليلة الساعة الخامسة عصرا..

عجبت من لون الكارت الأسود، هذه أول مرة أستلم وأرى دعوة لحفل زفاف بكارت أسود بداخله كتابة بلون أصفر شاحب: يتشرف السيد وعد حسين قادر بدعوتكم لحضور حفل تأبين زفاف ولدنا كنش وبحضوركم يتم الحزن والعزاء.

أفرغنا الصينية من الطعام كأننا لم نأكل منذ شهر، ثم أفرغنا قوري الشاي إلى آخر قطرة وما بقي غير البثل في قعر القوري. و(هندي الحلاق) يقلب بكارت تأبين الزفاف الأسود، يهزّ رأسه بيأس معتق وتخرج من أعماق جوفه: جنون.. جنون القيامة. رأيت فمه يبكي مع كل هزة يأس من رأسه،وتتراجف شفتاه وهو يقول:تفشى جنون القيامة..دخلنا عصر جنون القيامة...انتظرنا قرون..لقد تأخرت علينا القيامة.. تأخرت في المجيء إلينا.. انتظرنا حتى جفت رؤوسنا من ماء العقل، نفد صبرنا فلا نحتمل المزيد من الانتظار لأن القيامة لن تأتي أبدا.. لذا نحن ذاهبون إليها.. مادامت القيامة لا تأتي نحن نذهب إليها.. وهذا ماحدث ويحدث.. لقد استدعينا يا برعم كل أحشاء القيامة...

توجهنا العصر بعد الساعة الخامسة أنا وأخي (عناد) صوب حفل الزفاف وانصدمت بوجود جادر مأتم. استفسرت من أخي عناد: هل مات أحد من بيت (وعد)؟ ضحك أخي ثم أخفى ضحكته بيده اليسرى وهو يقول:

مكتبة الفكر الجديد

ـ لا.. هذا حفل زفاف.. شنو هاي أول مرة تشوف جادر مأتم عرس؟

رأيت أمام جادر مأتم العرس بعض أشخاص بملابس سود ويشماغ بني منقط يخفون به وجوههم مثل أهل الميت، هذا سابقا قبل حلول جنون القيامة.

استقبلنا(وعد) أبو العريس منكس الرأس حزينا كمن فقد ولده توا. وحالما صافحه أخي (عناد) أجهش بالبكاء، وأخي يطبطب على كتفه ويقول:

ـ البقية بحياتك خوية أبو كنش.. كلنا على هذا الطريق.. إذا مو اليوم باجر..

أجابه (وعد) وهو يمسح دموعه باليشماغ:

ـ أشكرك خويه (عناد).. الله لا يريك مكروه فرح ويبعدك عن كل مظهر دنيوي.. الزواج عواج.. الزواج يبعدك شهر عن القيامة...الزواج انتحار روحي...

وانخرط يبكي ويمسح دموعه باليشماغ. أنا بقيت حائرا مُرتبكا ماذا أقول: هل أعزيه بزواج ولده، وكيف ينطق لساني بمثل هذا الكلام غير المعقول. لا وقت للتفكير فهو أمامي ينتظر مني العزاء، انسقت أقلد أخي (عناد) وقلت له: البقية بحياتك، اللهم أجعله آخر الأفراح. وأنا أصافحه وهو ينتحب.

بعدما صافحنا جميع الحاضرين في جادر مأتم العرس جلسنا وصاح أخي (عناد) بصوت مرتفع: رحم الله من يقرأ سورة الفاتحة.

انتصب أمامنا موزع القهوة المرة وصب لي فنجان ولأخي فنجان من الدلّة الساخنة، ثم تلاه بآخر ولولا تقليدي لأخي (عناد) وهو يهزّ الفنجان

مكتبة الفكر الجديد

بمعنى يكفي لبقي القهوجي صاحب الدلة يصب لي واحدا بعد الآخر حتى الصباح.

جفلت وكدت أقفز من مكاني حين اندلعت زخات رصاص، أنا المهدد الذي تفترسه وحوش هذه الأصوات، أعقبتها ضجة عويل ونحيب بدخول العريس (كنش) إلى جادر مأتم العرس، عانقه الحاضرون بالبكاء. كنش يلبس بدلة سوداء ممزقة قديمة سمل وعلى رأسه يشماغ بني منقط يخفي به وجهه ويستخدمه لمسح الدموع.

عندما يرفع الحاضرون طرف اليشماغ تظهر ثقوب سود وسط الجبين عند بعضهم في حين تخلو جباه البقية منها. وأسمع داخل بيت (وعد) أبي العريس هلاهل عويل وصراخ ودبكة لطم على الصدور والخدود، اكتشفت فيما بعد أنّ النساء يتحلقن بدائرة حول العروس، التي تلبس بدلة عرس سوداء وخمار أسود مع إكليل أسود، يدبكن ويلطمن الخدود معزيات العروس على تأجيل يوم القيامة بهكذا عرس دنيوي آثم.

الجميع يعزي الجميع وكل واحد يعزي نفسه على انتصار حيلة الحياة والسقوط بفخ الدنيا، أحابيل الدنيا كثيرة مرة بالولادة ومرة بالزواج وانتفاخ البطن بجنين جديد سوف يطرد ويبعد موعد القيامة، لكن رجال الدين والعقائديين ظلوا يتزوجون بأكثر من امرأة وهم يقولون: نريد إنجاب أطفال القيامة للشفاعة لنا عند الله سبحانه وتعالى لندخل الجنة، ربما تكون فتحة الفرج بوابة للجنة، ثم أن الأطفال يصيرون ملائكة تستقبلنا بعد الموت حيث شدة يوم القيامة، نحن على يقين كاسح بأننا سوف ننجب ملائكة. لكن الواقع يكسر شوكة طموحهم عندما ينجبون شياطين. بقي واحد يعزي الآخر على انتصار الدنيا الغدارة المكارة، لذلك

مكتبة الفكر الجديد

كانت النساء يطشن (واهليه) من الرصاص فوق رأس العروس حتى لا يخمطها إغواء الدنيا وتنسى القيامة. شعارهم: الموت حق والعيش باطل، أي حامل في بطنها لغم ينسف القيامة، أخطر شيء على يوم القيامة هو المرأة الحبلى، الناس تشمئزّ من منظرها وينفرون من رؤيتها.

طبعا، أنا أعرف سر الاحتقار للحبلى وكيف يعاملونها على أنها عار. أعرف أن جميع هذه الطقوس والممارسات والشعائر هي مجرد أقنعة تخفي بؤس المرأة، التي تعزي نفسها على الامتهان والاحتقار من قبل الذكر والمجتمع والعشيرة والعقيدة والعرف والشرع والتقاليد. الأنثى مغناطيس للضيم والكرب والحزن، دمعتها بطرف عينها منذ الطفولة إلى الموت، البكاء لسانها الوحيد المعبر عن تعاسة حياتها. منذ الطفولة معزولة مضطهدة لا تلعب مثل الصبيان، لا تخرج من باب البيت لأنها عورة، لا تكمل الدراسة لأنها كلها عورة، لا تختار ما تلبس ولا من تتزوج. لا تعرف دروب منطقتها ومدينتها، لذلك سرعان تتيه بمجرد الخروج من البيت وشارعهم. لا، لا، لا.. حياتها كلها لاءات، طفولتها صرة كبيرة من اللاءات، لا للمراهقة، لا لاختيار الزوج، لا تستطيع الطلاق، لا تستطيع الموت. لا كبيرة سوداء تخيم عليها منذ الصرخة الأولى إلى التابوت، وحتى عندما تموت يشعر أهلها بالعار، عار تغسيلها وعار إذا كتبوا اسمها بلافتة التعزية، يكتبون: بنت فلان، أخت فلان، عقيلة فلان، أم فلان، لا اسم لها في الحياة ولا في الموت. كيف لا تلطم إذن على صدرها وعلى وجهها، كيف لا تبكي بدموع كاوية، كيف لا ترتدي السواد: ملابس النساء عندنا كلها سوداء، إخفاء الشعر والوجه لطرد الدنيا بخرق سوداء. كما أن الليل أسود والجنس ممارسة الليل فهو أسود، هل النساء بملابسهن السوداء بنات

مكتبة الفكر الجديد

ليل؟ النكاح أسود والمُضاجعة سوداء والجماع أسود، كلها قطع وأشلاء من الليل. السواد لإخفاء الشهوة والمتعة واللذة، تلك الراقصات تحت ثيابهن يخرجن من رحم الدنيا،عورة كلها شرور يجب إخفاؤها، لكنها شرور لا بد منها. وهكذا يكثر بعض رجال الدين والعقائديين من الجماع وممارسة الجنس مع الزوجات للتقرب أكثر وأكثر من يوم القيامة لكي يكتسب خبرة ومهارة في المُضاجعة عندما يكرمه الله بحور العين في الجنة.

كيف إذن لا ترتدي النساء السواد، وكيف لا تنوح المرأة وتحزن وتجهش بالبكاء كونها أنثى وعلى قيد الحياة. هنا يكمن سرّ تخلف البلاد والمجتمع والرجال. المرأة المُضطهدة متخلفة فلا تنجب وتربي سوى المتخلفين، سر تقدم البشرية عند المرأة.

نهض سيد بعمامة سوداء يتبعه (وعد) يمشيان باتجاه العريس (كنش)، الذي قام بشكل غريزي حالما رأى العمامة السوداء، قال السيد للعريس:

ـ البقية بحياتك ابني كنش.. إن شاء الله لا ولد ولا تلد ولا هم يفرحون.

جفلت مرة أخرى لكن أقل من السابقة عندما دوى الرصاص وانطلق الجميع يزفون (كنش) العريس إلى غرفة العروس، هنا تصاعد النحيب وتعالى الصراخ للنساء اللاطمات. التهب الجو بالدموع والصخب والعويل، الذي علا وتصاعد إلى الذروة حالما دخل العريس على العروس. ثم بدأ يخفت وينطفيء شيئا فشيئا عندما بدأ الرجال يدسون النقود بجيب (وعد) والد العريس وهم يرددون لازمة الأحزان، تلك الجملة الشائعة: خاتمة الأفراح إن شاء الله. هنا أدركت الخطأ التقني الذي وقعت فيه حين دخلنا جادر العرس أنا وأخي (عناد) وسلمت على (وعد) وقلت له:

مكتبة الفكر الجديد

البقية بحياتك.. اللهم اجعله آخر الأفراح، هذه الجملة (خاتمة الأفراح) تُقال في النهاية أثناء الوداع لا في البداية عند التحية.

العتب على تلعثمي وارتباكي من إغواء يوم القيامة. استعر رأسي بنار تفكير لاهب تتراقص فيه ألسنة نيران تشب من عيوني وأذنيّ ومنخري وفمي، تصاعدت أعمدة الدخان من جميع طوابق رأسي، ويغمرني اليأس من مجيء سيارات إطفاء تخمد حريق الروح. لاتوجد قوة تطفيء نيران تفكيري وأنا راجع للبيت:أحسد أخي (عناد) الذي يمشي بجانبي في سكينة وهدوء مُطمئن لا ترفس روحه مذبوحة بالتفكير لا تتعذب نفسه بحمولة صخور الأسئلة. أسمعه يستغفر ويحمد ويحوقل ويستعيذ، يسلم قيادة نفسه إلى شخص آخر غير مرئي يتولى مسؤولية قيادة حياته وموته كأنه بقي طفل لم يكبر ولا يتحمل مسؤولية وجوده. لا يشعر بالرعب من الموت والنهاية، ولا يشغل باله بما سيترك خلفه، ولا يدوخ نفسه بسؤال: هل حياته لها سبب وغاية، وأي بصمة سوف يترك خلفه لكي يستفيد منها غيره بعده.

أسئلة كثيرة غاشمة انقضت علي بلا رحمة، وشبت في رأسي نيران، خاصة السؤال القاتل: من يوقف مسيرة هؤلاء الناس نحو الدمار؟

جماهير تسدّ عين الشمس تمشي مستسلمة لقوة غامضة تقودهم بمحض إرادتهم وبأقدامهم وعقولهم وبرغبتهم إلى يوم القيامة. مستحيل أن تتوقف هذه الجماهير لحظة لتفكر في صحة ما تفعل وأين الخطوة القادمة، مستحيل أن يتيه التائه ولا أن يموت الميت.

هل يعني هذا: أن كل الناس أموات، وأنت حضرتك يا برعم وحدك حي، من يؤكد لك أنك على صواب وتفكيرك صحيح.. من: الحياة؟

مكتبة الفكر الجديد

الحياة معك، تفيض بدمك غريزة الحياة، الطفل لا يخطأ ثدي أمه، ولا يتخلى عن طاقة الحياة إنه غصن جديد في شجرة الحياة. هذا كله خرط في خرط في خرط.

اني أسألك يا برعم: أي حياة هي.. حياتنا السخيفة المشوهة والمنحطة، حياة تتردى يوميا للحضيض، حياة خالية من أي نبض لا في الشعور ولا في الإحساس، فهل تسمي هذه حياة فعلا، وهل أنت حي؟

هنا أسأل وأنا أنزف: من يوقف انحطاط حياتنا هذا، من يوقف مسيرة كل هذه الجماهير إلى الهلاك، لا شعب واحد فقط بل شعوب تتقدم بخطا راسخة نحو الدمار، من يوقف الركض السريع صوب القيامة؟

فتحت باب البيت، وقبل أن يودعني أخي (عناد) دعاني للعشاء معه لكنني شكرته معتذرا لأني أتعشى في ساعة متأخرة من الليل، ورجوته أن لا يرسل صواني الطعام كوني خارج البيت في أكثر الأحيان، ثم تمنيت له أن يصبح على خير فالكثير من الناس غدا لا يصبحون على خير، وربما أنا واحد منهم، لا أعرف في أي فوهة مسدس يختبئ القدر. سابقا في زمن الخلفاء الراشدين والخلافة الأموية والعباسية وما بعدها، حين يغتالون شخصا، يقولون: قتله الجن. أما اليوم فحين يغتالون شخصا يقولون: مسدس القدر.

تلقاني (هندي الحلاق) مستقبلا يضحك:

ـ هل سمعت آخر فتوى؟

كأنه يقول آخر نكتة وقلت له: ما هي آخر نكتة أووو قصدي آخر فتوى؟

انطلق يسد خشمه ساخرا بأن الفتاوى فعلا صارت نكات يضحك لها

مكتبة الفكر الجديد

ناقل ويبكي منها المجنون. المفارقة البقعة: كلما أسمع كلمة فتوى أشم
ئحة فسوة، هي نفس التفعيلة والوزن والمقام.

قلت جادا:

ـ فتوى فتندي.. محد فتاها.. غير الأفندي.

غرق هندي الحلاق في الضحك وشرق، وأدمعت عيناه، وهو يقول:
البلية ما يضحك.. ملعون برعم قلتها بتمثيل جاد وصارم كأنك تنطق
كمة الأولين والآخرين. لقد شاهد الجميع أولمبياد الفتاوى، وتحمس
شخص إلى متابعة المباريات: من فتوى تكفير السخلة والتيس لأن
رتهما مكشوفة وفتوى تفسيق الحمار لأن ذكره ينتعظ أمام المارة والناس،
توى جهاد النكاح الذي تطوعت له آلاف النساء لمناكحة المجاهدين
ساحات الوغف والذود عن بيضة الخصيتين، وفتوى خلط الخيار مع
لباطة وفتوى تقديس القمل وحشرات اللحية إذ صدرت فتوى تحريم
ع القمل والصئبان الذي يتعبد في محراب لحية المجاهد،ولأن اللحية
دسة فكذلك يكون القمل والصئبان وبقية الحشرات مقدسة. ثم اندلعت
ى حيرت شعوب العالم، فتوى أباحت للمجاهد توسيع دبره بقدر ما
اء لكي يدس داخل الدبر عددا من المتفجرات لقتل الكفار والمرتدين
فاسقين وأعداء الدين، وفتوى الحيض على سطح القمر والنكاح داخل
كبة الفضائية والاستبراء في المريخ، وفتوى تحريم الأنترنيت والفيسبوك
وى التزنيد والتفخيذ والتظهير والتبطين. وفتوى إباحة المثلية واللواط
عزلة المجاهدين النائية كما في جبال تور بورا.

قلت لـ (هندي الحلاق) أستفسر:

ـ ما هي آخر نتائج أولمبياد الفتاوى؟

مكتبة الفكر الجديد

ـ صدرت فتوى بالأمس تحث على قتل الفراشات والنحل، وفتوى تحريم الورد وتجريف وقلع مشاتل الأزهار. كل من يقتل عشر فراشات تستقبله في الجنة عشر حوريات. ومن يقتل عشر نحلات له في الجنة عشر سواقي عسل. ومن يقطف عشر زهرات تتفتح له عشر أبواب من غرف الجنة، ومن يدمر ويقتلع حقل ورد له جنة لوحده.

قلت لهندي الحلاق بأن هذه الفتاوى تساهم في تلويث البيئة وتوسيع ثقب الأوزون وترفع من غليان درجة الحرارة، وتنشر فايروسات القبح. هزّ (هندي الحلاق) خصلات شعر المتبقية في فروة رأسه ويكومها في القذال، وهب يوضح بأن: هذه الفتاوى تتماهى منسجمة مع جنون القيامة، لأن الفراشات والنحل والورد والأزهار من أهم خلايا الحياة وأجمل ما في الطبيعة والخلق، إذن هي ضد يوم القيامة وتعرقل مجيئه وحلوله، كل وردة لغم تحت قدم يوم الحساب. ثم إن المشايخ وأهل الفتاوى يقولون: الورد يفوح بالشبهات وعطر الرذيلة والمنكرات.. وفي أجنحة الفراشات والنحل لون الفسق وأحابيل العشق، وهذه كلها تطرد رائحة يوم القيامه وتؤخر قدومه، كلما قل الجمال وكثر القبح اقتربت وحلت القيامة.

فجأة سمعت صوت غناء شجي لأغنية (أمل خضير) ولكن بكلمات جديدة: فتوى.. فتوى فتوى/ فتوى يا عدوّ الروح فتوى/ لو خان العقل/ ترقص الفتوى/ أيام السيوف/ أيام بلوى/ فتوى/ .. فتوى يا عدوّ الروح فتوى.

تذكرت أن هندي الحلاق يمتلك صوت آخر المنشدين السومريين وها هو يغني بقلبه وروحه وجسده، تذوب فوق لسانه آلاف السنين من الحضارة، تتكدس فوق شفتيه وتحترق، يرثي زوالها وانقراضها وبقيت

مكتبة الفكر الجديد

مجرد آثار قليلة تنخرها ريح سموم بدوية وتفتتها شمس الصحراء.

الآن تذكرت هذا الصوت الأخاذ عندما اقتربنا من بيت (دخان)، لقد سمعنا صوتا خارقا للعادة والمألوف، ينسف الأعراف المتيبسة وجوّ الرعب في مدينة (الحسينية). ارتعب (دخان) عندما رأى (هندي الحلاق) ينوح ويغني بصوت يحصد حقول الماضي والحاضر والمستقبل بنغمة واحدة تحمل وجهان من الشدو والشدن يفوح منها حزن عريق.

هندي الحلاق يعي ويدرك بأن أفضل سلاح لمحاربة جنون القيامة هو الغناء، لا يمكن قهر عملاق الموت الجاثم على البلاد إلا بالحب والغناء. حالما انتهى من النشيج، لا.. لا.. النشيد لأغنية (فتوى) لمعت دمعة في عينيه وهو يقول: اختنقت يا (برعم) اختنقت... أريد اشوف باب المعظم..

سمعنا دوي رصاصتين وكالعادة سكتنا، أكيد رصاصة في الرأس والأخرى في الصدر. الصوت قريب أتى من جهة ساحة (الطوبى)، أعقبه صلية رشاش بعيد خمنا أنه وراء جامع نبي أيوب....

قفزت قلوبنا حين سمعنا ركض خطوات في الشارع أمام باب البيت. صعدنا فوق السطح واختبأنا ننظر إلى ما يدور أمام البيوت، ربما وصلنا (السره) وحانت ساعة المنية على أيدي جماعات الثقوب السود. ولكن هيهات نسلم أرواحنا بدون قتال وبلا مقاومة شرسة، هيهات نموت مكتوفي الأيدي ومعصوبي العيون، هيهات الانصياع للجبناء، لقد جربناهم أكثر من مرة: فرادى جبناء خراتيت،ومجتمعين أبطال غيارى مثل زمر الذئاب وهي تستفرد بغزال أعمى.هم مسالمين فقراء مؤدبين لو كل واحد منهم لوحده، وسفلة أوغاد أنذال لو اجتمعوا في جماعات وعصابات وزمر وأحزاب. نزلنا من السطح الى داخل البيت ولم نعرف ما الذي حدث.

مكتبة الفكر الجديد

هل هناك من يسجل عدد وأسماء الضحايا ويدون الحوادث التي تقع، يصفها بالتفاصيل والدقة حتى لا يتبخر الدم من الذاكرة ولا تدفن الأرواح بتراب النسيان، هل تموت الضحية مرة أخرى بطي ذكرها والتعتيم عليها وتسويف الحادث لكي تلفها مقبرة النسيان، هل تموت الجريمة؟

سمعت قهقهة سخرية انبثقت من الأعماق وخرجت إلى سطح الواقع، قهقهة انفجرت مثل سيارة مفخخة فوق لساني: نحن أمة تحتضن وتربي الجرائم، وترعاها أعزّ من أولادها، نحن نتفاخر بالجريمة ونحتفي بالقاتل. الضحايا عندنا مجرد مخانيث جبناء والقتلة سباع زلم أبطال نشامى، لذلك تمتلىء شوارع الرؤوس وساحات القلوب بصور المجرمين، نقدسهم ونحتفل بجرائمهم. نحن وبكل كبرياء وزهو: عبيد القتلة. لا تموت عندنا الجريمة فحسب بل نحتفي بذكرى ارتكابها ونهتف بحياة القاتل لكي يكرر فعلته وندفعه إلى ارتكاب مجزرة جديدة. القيامة التهمت جميع الضحايا وابتلعت كل الجرائم ونحن ها نحن نهتف كل يوم: هل من مزيد؟

المفارقة الديالكتيكية: أن طبقة السياسيين والمثقفين إلا ما ندر، هما أسوء جميع طبقات المجتمع، لأنهما يزينان الجريمة للناس ويجعلونها مفخرة، ويدينان الضحية الساذجة المغفلة البريئة، ويصفونها بحجر عثرة في طريق قدوم القيامة.

مكتبة الفكر الجديد

طيور القيامة

قفلنا باب البيت بهدوء وحرص فأكثر الناس مازالوا نيام في هذا الصباح الأبلق عندما رأينا كلبين مغامرين بحياتهما ينبشان المزبلة التي أمام البيت. كلابنا المسكينة تجازف بحياتها من أجل زبالة العيش. كلب يشبه هذا الصباح أبيض متسخ لحد السواد، يبحث بيديه وعيناه تراقبنا بحذر وخشية، المسكين كله يشتغل بجميع حواسه معلنا الإنذار فأقل حركة مريبة تصدر منا سوف يهرب صوب المشروع ومنه إلى مقبرة (محمد سكران).

وهناك كلب بني اللون مسلوخ الجلد يعرج رافعا قدمه اليسرى للأعلى، أعتقد أنها مكسورة، يسترق النظرات إلينا متحسبا لأي نية شر يقرؤها في وجوهنا. كم احتقرت نفسي لأني بشر ترتعب مني الحيوانات والطيور. ماذا أفعل بشكلي البشري حتى لا تخاف مني هذه المخلوقات البريئة؟

كنت حريصا وكذلك (هندي الحلاق)، نتحرك ببطء وانسيابية لا نتحدث ولا يصدر منا أي صوت، لا نلتفت وننظر صوب الزبالة مطعم الكلاب والقطط والدجاج والحمير والبقر. منذ الغبشة تجازف جميع الحيوانات من شدة الجوع، تخرج صوب المزابل تدفعها الغريزة العظيمة

مكتبة الفكر الجديد

إلى النجاة من الموت، والتشبث بآخر عرق للحياة، بعكس البشر المندفعين بكل سرعتهم ركضا إلى القيامة إلى الارتماء بحضن الموت، برعونة سخروا حياتهم العزيزة في خدمة سدنة القيامة، ضحوا بالغالي والنفيس من أجل قشور السراب.

أبواب بيوت الجيران موصدة هامدة لم نسمع حركة استيقاظ داخل البيوت ولم يخرج حتى (ونوس) مجنون الصور. وهذا من حسن حظ الكلاب والقطط والحمير. لأنها تهرب مذعورة حتى من الطفل الصغير، عدوها يحمل شكل بشر.

اجتزنا بيت (فواز) صاحب الحصة التموينية وقد رأيت تطابق ورق السجل عندهم مع ورقة رسالة التهديد رغم تشابه ورق جميع السجلات، ولكن (نورية) زوجة فواز تكرهنا، أرى في عينيها دائما شرار الحقد ولغة التهديد، هي متورطة معي ومع غيري برسائل التهديد.

انعطفنا جنب بيت (أبو حسين) الركن أمام ساحة (الطوبى) ورأينا بقايا المجازفين من الكلاب والقطط مع حمير وبقرات سائبة، يبحثون عن مطاعم مزابل جديدة. جميع هذه الحيوانات لم تقترب من بقع الدم، بنفس المكان الذي وجدنا الكيس الأبيض وهندي الحلاق بداخله. دم يلصف يشع ينادي: لست مجهول الهوية، عندي اسم وكيان وجسد وعائلة ومهنة، دم لم يجف بعد، إنها رصاصات البارحة. لم يجف ويتخثر وتتكوم عليه الحشرات. دم بصراخ أحمر ولكن بلا مجيب. إنها رصاصات الأمس، من رفع الجثة لا ندري، ربما القتلة أنفسهم.

وصلنا شارع (الجريحي) المسروق بعدما زال عنه النبش وكوم الطين والتراب، تساوى الآن من كثرة دوس السيارات والعربات والناس حتى

مكتبة الفكر الجديد

صار مستويا قليل العكر والطسات، ونسي الجميع فضيحة سرقته لأن فضائع وسرقات كبرى غطت عليها.

قبل أن نصعد في سيارة الجيب شدّ انتباهنا تجمعات متناثرة للناس، ثلاث تجمعات أمام أفران صمون العروبة، وحلقة حول بائعة القيمر والجبن، تلقفت أذاننا نسمع كلمات وأنصاف جمل حول علامات القيامة بلسان الطيور، كما لاحظنا تجمعات مماثلة أمام جامع نبي أيوب.

صعدنا سيارة الجيب التي تقلنا إلى تقاطع مطعم الأمير، سمعنا ذات اللغط وذات النغمة من ركاب السيارة عن دجاج يقوقيء: قامت القيامة.. وعن صياح ديك: علامات القيامة، وزقزقة العصافير: ساعة الحساب.. ساعة الحساب.. ساعة الساعة.. وهديل فواخت: يا قيامتي.. ياقيامتي.. ياقيامتي.

وعندما وصلنا مطعم الأمير رأينا جماهير غفيرة قرب سيارات الجريخي، يكبرون ويرفعون أيديهم للسماء وهم يلهجون بذات موضوع الطيور والدجاج. سمعنا شخصا يقوقيء: قامت القيامة، والآخر يصيح: عيعو مثل الديك عيو عيو علامات القيامة. وهناك من يقلد زقزقة العصافير وسس وسس وصلت الساعة.. وصل الحساب وصلت الساعة. وهذا يقلد الفاختة: يا قيامتي.. يا قيامتي.

صعدنا سيارة (كيا) إلى باب المعظم فوجدنا ذات الموضوع وذات النغمة وتناوب الركاب يقلدون طيور القيامة حتى انبرى أحدهم يفلسف لمحذير ونذير طيور القيامة، ولماذا أطلقت هذه الطيور التحذيرات، وكيف انقلبت أصواتها التي لا نفهم منها شيئا وتغيرت إلى لغة واضحة تمام الوضوح كلها نذير وتحذير لقيام القيامة وانتهاء عمر الدنيا وانقراض العالم وفناء الكون.

مكتبة الفكر الجديد

مسح الشخص الفيلسوف أطراف شفتيه من بياض اللعاب وجص اللغو،رأيت السرعة المذهلة في تكاثف وتجمع حبيبات جص أبيض حول شفتيه لكثر الهذر والثرثرة. هناك حركة موحدة يمارسها جميع الأشخاص من أمثال هذا الشخص الفيلسوف، حركة مسح طرفي الفم بإصبع السبابة وإصبع الإبهام.

نحن الصامتون نطلق عليه (جص اللغوه) أو (رغوة الكلام).

توغل هذا الفيلسوف يفسر ويحلل ويستقريء أصوات طيور القايمة: الطيور بكل أنواعها تحدس الكارثة قبل وقوعها بفترة وجيزة.. بعض الطيور تحدس الكارثة قبل أربع وعشرين ساعة وبعضها اثنتين وعشرين ساعة وبعضها ست ساعات وبعضها ثلاث ساعات وبعضها ساعة.. وبقية الطيور أقل من ساعة.. لذلك يضع العلماء بعض الطيور في المناطق الزلزالية.. وقرب فوهات البراكين.. وعند ضفاف الأنهر ذات الفيضانات المُفاجئة.. وفي الغابات غامضة الحرائق.. وهناك بعض العلماء قد بالغ وتطرف في توجسه العقلي فوضع نوع طيور خاص في مناطق معينة داخل بلدان العالم الثالث تحذر من قيام الثورات والانتفاضات.. وهناك نوع من الطيور توضع في أعشاش فوق أبراج الحراسة للسجون تحذر من الهروب والتمرد والشغب والعصيان.. كما استغلت دول كبرى هذه الطيور في مهمات استخبارية.. وبعض الدول وضعت طيور نادرة في قاعات المحاضرات داخل الجامعات خوفا من التظاهرات والمسيرات... والطيور على أشكالها تقع.

انعطف الفيلسوف ينتف ويهلس ريش أصوات طيور القيامة وهو يقول:

مكتبة الفكر الجديد

أما طيور القيامة فهي تختلف عن باقي أنواع المخلوقات.. هذه الطيور تربطها صلات بعالم الغيب.. هي مرتبطة بطوابق السماء وما يجري فيها.. تتحرك مع مدار الكواكب والنجوم.. هذه الطيور بريد غامض بين السماوات والأرض.. لا أحد يعرف ماذا ترسل وماذا تستلم ومتى يتم إفراغ رسائل البريد ثم تحميل رسائل أخرى.. يا جماعة.. هل تعرفون أن داخل أجسامنا عمال بريد هم الأكثر غموضا وتعقيدا من جميع أنواع البريد المنتشرة برا وبحرا وجوا وبين المجرات وبين الكواكب والنجوم.. بريد أجسادنا يتكدس في الرأس ومنه يتم الاستلام والتسليم.. الاستلام من الخلايا.. ثم التسليم إلى كافة خلايا الجسد... إنه الأكثر سرعة ودقة من البريد الألكتروني والبريد الصوتي....

قاطعه أحد الركاب:

ـ شنو نسيت طيور القيامة وأخذك الواهس على البريد.. العفو حضرتك موزع بريد؟

أجابه الفيلسوف بنبرة عويصة الفهم ما بين الجد والتهكم:

ـ لا.. أخي.. لا.. آني أشتغل مترجم بسوق الغزل.. وحقك علي لأني رحت بعيد بهذا الاستطراد بعالم الطيور.. فعلا أخذني الواهس.. ولكن بالريش.. طيور القيامة في مدينة الحسينية.. ثم في بغداد حدست قبل غيرها نيشان وميعاد وقت يوم القيامة.. لأنها الأكثر خبرة في قراءة كيمياء الزمن.. وأنا أخالف أنشتاين في كون الزمن هو البعد الرابع للمكان.. أنا أرى أن روح المكان هو الزمن.. فهو يتداخل ويتماهى في البعد الأول والثاني والثالث.. فلا مكان للمكان بلا زمن...

نبّ راكب آخر يقاطعه ساخرا:

مكتبة الفكر الجديد

ـ يمعود.. يا أنشتاين.. يا مؤخرة لكَن.. خلينا.. خلينا عند طيور القيامة.

ـ العفو.. العفو يمكن رحت بعيد.. ايه.. مثل ما نوهنا بأن الطيور لديها قدرة على قراءة الميتافيزيقيا من خلال قراءة كيمياء الزمن.. وأنتم تعرفون أن الحيوانات عندها قدرات فوق الطاقة البشرية.. الحيوانات ترى الجن والملائكة وترى عزرائيل.. برغم أنه يتجول هذه الأيام في شوارع وأسواق بغداد كأنه يضع اللمسات الأخيرة للسيارات المفخخة والعبوات الناسفة..يضع ويعين مكان زمان الاغتيالات..وبيده اللمسة الأخيرة للانتحاري.. عنده إصبع اللحظة الحاسمة في الحزام الناسف.. عزرائيل لا يغادر بغداد فهي أجمل عاصمة للموت.....

قبل أن يقاطعني أحد الأخوة الركاب.. أرجع لطيور القيامة.. التي قرأت سطور السماء وأدركت ميقات القيامة.. وها هي تنذر وتحذر لا بلغتها ولسانها.. بل بلغتنا ولساننا حتى لا يبقى عند الناس عذر ومُبرر بأنهم لم يسمعوا ولم يروا علامات وطلائع القيامة.. ياجماعة.. تنفسوا هواء القيامة.. اشبعوا من خبز القيامة.. ضاجعوا نساءكم بمني القيامة... أفرغوا رؤوسكم من قش الدنيا وأحابيل الحياة.. املؤوا.. املؤوا الرؤوس بزاد القيامة.. القيامة أقرب إلينا من حبل الوريد.

انتحب يبكي بعض الركاب بصوت مسموع، وبقية الركاب حنوا رؤوسهم للأسفل كأنهم يتوسلون بأحذيتهم أن تقودهم للقيامة من دون خسائر بالأرواح والمعدات.

أنا و(هندي الحلاق) ننزف بصمت ساكتين، ننظر بعين الألم والحسرة على أهلنا، على الناس كيف فقدوا نعمة العقل من كثر حشوها بتخاريف

مكتبة الفكر الجديد

سدنة القيامة وكهنة العقيدة. كنا صامتين نمارس طقس التقية فإذا اعترضنا على فش عقولهم وتطرفهم الأسود للقيامة لانهالوا علينا بالضرب والعض والنهش والشتم والسب، لأنهم متعطشون للموت وأنت البطران تمنع عليهم ماء الفناء، الحياة عندهم فخ سقطوا فيه وها هو حبل النجاة يتدلى أمامهم للصعود إلى برّ القيامة.

ثم ماذا نقول لهم خلال هذه الدقائق المعدودة: إن الحياة متعطشة لكم، وهي تستحق الدفاع عنها ضد ثقافة الموت وضد استسهال الوقوع في حضن القيامة؟ ماذا نقول ورؤوسهم محشوة منذ الطفولة بقش الفناء حتى صارت مفردات العقيدة لغة يومية يتداولها الناس وكأنها خلقت لهم منذ الأزل وستبقى معهم إلى الأبد؟

النظافة تربية، ولا يمكن كنس العقل وتنظيفه إلا من خلال الأم ومن خلال المدرسة والبيئة والمجتمع، ولكن كيف إذا كانت جميع هذه المراحل تنتج مزابل روحية، كيف سينمو العقل وتتعافى الروح وسط هذه القذارة والأوساخ، كيف سيدافع مثل هذا العقل عن نفسه وعن بيئته من غزو العنف وكراهية الآخر، كيف يدافع عن أهله والمجتمع والبلاد ضد عقائد الحرب وغزو الشعوب المجاورة؟

ماذا نقول.. ماذا؟ ناكل خرا ونسكت أحسن.

تفاجأت وأنا أسمع (هندي الحلاق) يصيح: نازل عيني نازل، وفعلا نزلنا أمام دار الحرية للطباعة، المسلوبة والمنهوبة وظلت دار خراب. سألت (هندي الحلاق) عن سبب النزول فأشار بيده إلى جريان ماء وفيضان الأرصفة والشارع. كنت وراءه أمشي وهو يتجه بسرعة حتى رأيته ينحني على بوري مكسور، أمسك بيده أنبوب الماء المكسور الذي يتدفق منه الماء

مكتبة الفكر الجديد

بقوة، وطلب مني أن أبحث عن قطعة خشب أو غصن شجرة. وجدت غصن شجرة كبير مع فروعه فوق الأرض داخل سياج دار الحرية. كسره هندي الحلاق وحشره داخل أنبوب الماء المكسور ثم مزق طرف قميصه من الأسفل وربط الغصن مع البوري. وفعلا انقطع جريان الماء وسد الفتحة المكسورة. رفع رأسه نحوي وقال:

ـ هذا جرح صغير جدا عالجناه الآن وأوقفنا النزيف.

أكملنا طريقنا نمشي إلى باب المعظم حتى وصلنا جسر القيامة الذي سيفتح قريبا بالتزامن مع ساعة صفر القيامة. وقبل أن ندخل السوق رأينا حلقات جماهير أكبر وأوسع يتراطنون بلغة طيور القيامة، فلا نسمع غير القوقأة وصياح الديكة وزقزقة العصافير وهديل الفواخت.

هنا طلب مني (هندي الحلاق) أن أدله على بيت نغولة مكية في منطقة الفضل.. سرنا بمحاذاة محال بيع الجص والبورك والإسمنت والمواد الإنشائية الأخرى، كلما نقترب تتكثف رائحة الجثث ونحن ندخل الزقاق الضيق في منطقة الفضل، كان خاليا من المارة ومن الأصوات. ندست هندي الحلاق وأشرت له ناحية البيت، بيت سرقة الجثث.

عندما رجعنا أخذنا الطريق إلى كراج باب المعظم. وهناك جلسنا بذات المقهى التي لا تحمل اسما مع صفّ المقاهي المطلة على كراج السيارات. وقبل مجيء ابو الشاي نفخ (هندي الحلاق) متحسرا نادما:

ـ لو ما طالع اليوم هواي أحسن لي.. أهلي.. الناس يعيشون انتظار قيامة لم تزل في جعبة القدر.. بينما أعيش أنا القيامة يوميا.. أعيش عذاب إيمان أهلي وناسي.. هم مصدر شقائي وبلائي.. من أتهم يا برعم، من.. من أتهم غير الله ربي.. أنا غير موجود أصلا... حدث خطأ في الولادة ولحقه

مكتبة الفكر الجديد

خطأ في الموت.. ثم قمت من بين الأموات.. وها أنا معلق بخيط رفيع من سلسلة أخطاء.. فمن أتهم وأحمله كامل المسؤولية غير الله.. خاصة الله لأني حين أتهمه لا يغتالني ولايعلسني ولا يصكني.. هو وحده أتهمه وأنا مطمئن على حياتي من الخطف والاختفاء عن الوجود.. لماذا يا إلهي تتربص بي الأخطاء وحدي دون غيري.. ولماذا أتحمل وزر تلك الأخطاء التي ارتكبها غيري.. لذلك أتهمك ياربي يا ألله فأنت وحدك من يتحملني ويشفق علي ولا يؤلب الناس عليّ ويشيرون نحوي بأصابع اتهامات مسلفنة: مرتد.. فاسق.. كافر.. عميل.. خائن.. جاسوس.. زنديق.....

وفورا تقام محكمة شرعية ويقيمون عليّ الحد ويقطعون رأسي أمام كاميرات التقوى وعدسات الورع داخل استديو الجهاد... يا إلهي.. عندك موظفين أغبياء كسالى في دائرة النفوس السماوية وإلا كيف يغفلون وتعبر عليهم سلسلة أخطاء متتالية وشنيعة: خطأ في تاريخ الميلاد وخطأ في الأب وفي الأم.. وخطأ في العائلة والعشيرة والبلد.. وخطأ في المدينة بغداد.. أكبر خطأ هو: أنا موجود هنا والان.

رأيت (هندي الحلاق) معلقا بين السماوات والأرض وكأنه يحاور شخصا غير موجود لا في الكرة الأرضية ولا في بقية الكواكب.. رأيته يتكلم بحرقة وعذاب مع لا أحد:

ـ ما هو عذر الموظفين الكسالى.. هل يقولون: إنه مجرد خطأ مطبعي في كتاب الخلق وسوف يصححون هذا السهو والاشتباه فيكون ميلادك سنة ٢٠٥٤ في مدينة (روما).. عجيب، هل كنت بديل شخص آخر أعيش حياته وأتوفى بموته.. أرجوك يا إلهي.. يمعود، لن أشتكي غيرك.. فلا يوجد مدبر أعلى منك ولا إله فوقك.. أنت الأول والأخير.. أرجوك..

مكتبة الفكر الجديد

صحح الخطأ الغاشم وهبني حياتي وموتي بعيدا عن الأخطاء المطبعية... عندي حياة شاغرة تنتظرني في (روما) سنة ٢٠٥٤ ويستحيل أن يأخذ مكاني هذا شخص آخر.. كما أرجوك يا إلهي أن تؤنب وترزل (عزرائيل) فهو يستخف كثيرا بمصائبنا ويتعامل مع حياتنا وموتنا على أنها مجرد أرقام وأسماء فقط.. أرجوك الفت نظره وأن لا يتمادى بطيش في دمنا وأرواحنا وأجسادنا لأنك أنت خلقتنا.. ونحن بعهدتك.. كيف تسمح لغيرك أن يستهين بمخلوقاتك التي نفخت فيها من روحك؟... أرجوك يا إلهي أن لا تعتبر هذه وشاية بعزرائيل فأنا أحترمه وأحترم بما يقوم به من معضلات قطف الأرواح... وأعجب وأندهش لقوة تحمله وصلابة قلبه وأعصابه في سرقة روح طفل أمام أنظار أمه.. وفي إزهاق روح عاشق في حضن حبيبته.. أو كما رأت تلك الأم في سوق باب المعظم رأس ابنها في علبة الكارتون.. إنه عمل شاق لا يتحمله أي مخلوق غير عزرائيل.. أرجوك يا أبي.. أنا لا أشي بعزرائيل ولا بغيره.. إنما أرجوك أن تجعله يحترم موتنا لا أكثر ولا أقل.. احترام الميت احترام للحياة مهما كانت هوية الميت.. الله يا حبيبي.. تنتظرني حياة.. أريد أن أعطيها قيمتها.. أن أقدرها حقّ القدر.. ساعدني يا إلهي.. ساعدني على سدّ فراغ نفسي.

بالكاد أمسكت نفسي ولم أجهش بالبكاء، ثم قلت له:

ـ أنت حزين وتبكي.. تبكي لا على موت أمك ولا أبيك ولا أخوتك ولا أصدقائك.. أنت حزين على موتك أنت.. حزين على موت بلادك فيك.. وعلى موتك في بلادك بدون جدوى وبلا أثر ولا قبر ولا هم يحزنون.

تناثر كل شيء وتبعثر في الهواء وعلى الرؤوس حين سمعنا صوت

مكتبة الفكر الجديد

بائع منتوجات القيامة، المنادي الذي يبيع الأعشاب بأنواعها: من عشب الصبر على عذاب القبر، وكريم دهن العصعص، ومسحوق سهاد القيامة، وحبوب وهم الثوب الذي يجعل الجميع مستورين لا الرجل يرى عورة المرأة ولا المرأة ترى عورة الرجل بفضل حبوب وهم الثوب،وكبسول الشمس الذي ينقذ الغرقى من طوفان العرق،وحبوب تمنع رؤية أهوال القيامة اسمها الطبي (فاليوم القيامة)، و(عوينات الجسر) تلك النظارة الطبية المصنوعة خصيصا ليوم القيامة فهي توسع مجال رؤية الجسر بحيث يستطيع عبوره من يلبس هذه النظارة ولا يسقط في جهنم، وعقار (تحلية الزقوم) وهي سائل في زجاجة قطارة إذ تكفي قطرة واحدة فوق ثمرة الزقوم لتجعلها حلوة مُستساغة عند الأكل، وآخرها تحاميل ذبح الموت.

حالما رآني بائع أعشاب القيامة تعرف علي وتذكر تلك الجلسة الطويلة هنا بهذا المقهى الذي أجلس فيه الآن مع هندي الحلاق. رفع يده بحيينا وهو يقول:

ـ ها... ما تحتاج عشبة من أعشاب القيامة.

رفعت له يدي أردّ التحية وأشكره بعدم حاجتي لأيّ عشبة لا في الدنيا ولا في الآخرى. وعندما اختفى البائع وتلاشى صوته خطف على بالي ظل (دخان) فهو يمر إلى هنا دائما، يجلس يشرب الشاي. قلت لهندي الحلاق:

ـ ينقصنا بهذه الساعة (دخان)....

لم أكمل الجملة وأقبل (دخان) يبتسم وهو يمشي باتجاهنا فصاح عليه هندي الحلاق: ابن الحلال بذكره.

أقبل (دخان) منتشيا تتفايض منه طاقة الحياة، وجهه مصبوغ بلون الحب، ينضح سعادة ويمشي جذلا من شعره إلى أخمص قدميه إلى خطواته.

مكتبة الفكر الجديد

مهما حاول العاشق إخفاء الحب الطافح في قلبه يفضح نفسه أكثر ويبين عليه الانخطاف والهيام. العاشق دائما ليس هنا. العاشق منفي هناك عند هالة الحبيب يتمرّغ بعطر المُناغاة.

حين صافحني (دخان) وجدت يده ساخنة. العاشق محموم مريض بالحب، يهذي فراشات ولا علاج للحب غير الحب.

لاحظته يخوط استكان الشاي برقة وبطء وانسيابية ليس كما في السابق يخوط بسرعة وإلحاح وهو يتلفت حذرا مثل حركات رأس العصفور الخائف من البشر دوما ومذعور.

الآن يخوط الشاي وهو منعتق من دبق اللحظة وصمغ المكان، يبدو مسافرا إلى نفسه التي تركها سنين طويلة وأهملها، وها هو يعود إليها يحتضن ذاته ويعتذر عن الهجر والجفاء والفراق. العاشق يتصالح مع ذاته فيكبر ليتصالح مع العالم ويكبر ليتصالح مع الكون ويكبر ليتصالح مع الحياة.. هنا تتدفق في دمه ولحمه وعظمه غريزة الحياة.. وها هو جسد يسيل لا يمشي ولا يركض، يسيل فوق موج الواقع الآسن، يرفع شراع الحب. أجمل أنواع الورد والزهور تتفتح في قلب مزبلة.

ها هو (دخان) يرتشف الشاي بمتعة ونشوة كمن يقبل العالم ويشرب المطر. يرتشف ويغيب يذهب إلى حبيبته (قبلة) الجالسة على دكة من بقايا سيارة مُفخخة انفجرت قبل أربعين يوما، جالسة وسط خرائب عملاقة، تحت قدميها شظايا زجاج وحديد ومرايا وأحذية محروقة مائعة كل فردة من شكل: نسائي ورجالي وولادي، غادر أصحابها بلا عودة. جالسة حيث السخام يغطي الأفق، كما أن السماء زرقاء مشطبة مجرحة بأسلاك

مكتبة الفكر الجديد

كهرباء مولدات السحب، المولدات التي تجعر ليل نهار فلا يستطيع أحد أن يسمع أحدا، والطفل يفطس من البكاء والصراخ لا يسمعه أحد.

ماذا يفعل (دخان) ليغير ديكور الكارثة هذا بحديقة بغابة بمصطبة تحت جسر غير مفخخ ولا تنفجر فوقه سيارة أو عبوة ناسفة. مصطبة تحت خيمة زرقاء غير مثقوبة بالرصاص وشظايا حزام ناسف. هل هذه الثقوب نجوم أم هي الثقوب السود التي سوف تشفط الأخضر واليابس، هذا إذا بقي شيء أخضر، ماذا يفعل (دخان) وهو ليس بساحر، حب وسط الركام، والغزل إنهيار ناطحات أحلام، هنا وسط جنون القيامة نزيف بلد لا يتوقف عن الحريق. اختفى الحب نهائيا وانقرض العشاق، وبقي وحده (دخان) يجلس لصق حبيبته (قبلة) تحيط بهم أشباح من قتلوا هنا، أشباح يكتبون ذكرياتهم فوق لحاء جذوع الأشجار المتفحمة، وهناك هياكل عظيمة تمد وتشرئب جماجمها من بين أطلال البنايات، تبرز وتختفي لا تريد أن يشعر العاشقان بوجودهم العظمي.

نهض (دخان) وسجد على ركبته أمام (قبلة) لايعرف ما يقول في غزل هذا الزمان، أي كلمات حب يقول لحبيبته وهو في قلب الدمار، أي كلمات تليق لوصف هذا الحريق، بأي لغة خارقة يتغزل ويقول:

ـ ربما لاتعرفين يا قبلة يا حبيبتي.. أن الحب صار أخطر تهمة في العالم.. وأشنع جريمة..

تجيب (قبلة) بصوت كظيم باكي يقطر الضيم المتوارث أما عن جدة:

ـ أعرف.. أعرف يا حبيبي (دخان).. وكيف تفوتني أهوال تهمة الحب... الحب أخطر من تهمة التجسس.. وتهمة المرتد والزنديق وتهمة العميل والكافر.. أخطر من تهمة الخيانة.

مكتبة الفكر الجديد

يهزّ (دخان) رأسه ألما وحسرة وانكسارا وراح يبوح شرر آهات:

ـ آخ يا (قبلة).. نعيش داخل قنبلة بعدما ابتلعتنا الثقوب السود... اليوم حياتنا خسوف في كسوف أبدي.. حبيبتي (قبلة) حتى القمر صار أعور.. المجاهدون اقتلعوا عينه بقنبلة يدوية.. وها أنا أحمل إليك باقة من العتاد بدل الورد.. لأن الورد صار محرما بفتوى الشيوخ النشامى.. صار الورد حرام مثل الحب.. تعالي.. تعالي مدي يديك وتحسسي قلبي.. هنا.. هنا.. قلبي ينبض مثل قنبلة لا أعرف متى ينفجر من الأشواق؟

ترفع (قبلة) رأسها للأعلى كأنها تشكو للسماء جريمة الأرض، ثم تنظر إلى (دخان) بحرقة وعصف تعاسة:

ـ آه.. آه يا (دخان) حبيبي.. كم أخشى أن يبتر يدي سيف مجاهد باشط قبل لمس القنبلة.. أقصد قلبك.. وأنضم لقافلة المعوقين والنساء الثكالى.. وقافلة الأرامل والمُطلقات والعوانس والخوانس.

استعدل (دخان) في جلسته أمام (قبلة) وراح يحدق بعينيها ويقول:

ـ عيناك تصليني رشقات رصاص.. نظرتك رشقات رصاص تطرز وجهي بدانتيل الدم.. وتحفر على جذع قلبي اليابس رسم قلب الحب المطعون بسهم القدر.. وها أنا آخر شهيد للعشق في زمن الوشق.. أنفاسك.. آهاتك.. شهقاتك تحوم حولي مثل علاس على وشك الإفلاس.. وشعرك يتطاير مثل اسمي دخان.. دخان أسود يغمرني.. يغطي ملامحي حتى لا يعرفني الذباح.

ينهض (دخان) ثم يرجع جالسا لصق (قبلة) فخذا على فخذ، ويمسك يدها لكنها تنهض مذعورة وهي ترتجف وترتعش وتقول:

مكتبة الفكر الجديد

ـ لا.. لا أرجوك يا حبيبي.. أرجوك لا تقترب أكثر لئلا يحدث تماس كهربائي ويحترق البنك المركزي لقلبي.

لكن (دخان) يلح ويقترب مرة أخرى وهو يصيح:

ـ إلى أين.. إلى أين يا قرة العين.. ضميني في قلبك ضميني.. أشتغل عمالة في حجرة صدرك فالشباب كلهم حديقة.. من جيوبهم تصدح موسيقى.. ضميني يا قبلة العين ضميني.. ضميني من قناص يتربص.. ضميني من رصاص إلى قلبي يحوص.. فنحن أمة للقتل عندنا قاموس.

عادت (قبلة) وجلست بمكانها قرب (دخان)، تتطلع إليه بوجه يشكو وتقول:

ـ أنا غبية حمقاء.. أنا يا حبيبي قلبي أرعن.. دائما ينسى أزيز الرصاص ويتخيل زقزقة عصافير.

يحتضنها (دخان) بقوة وهي تتملص منه، لكنه يحكم طوق يديه ويقول:

ـ آخ.. يا (قبلة) حبيبتي.. أنت آخر أسلحتي.. يا مشجب حبي الوحيد.. أنا مرتعب وأخاف.. أخشى أن يمسكنا المجاهدون ويسلخون جلودنا ويصنعون منها طبول غزو وطبول بيع السبايا... تعالي نتزوج قبل دوام الظلام.. قبل ما نتحول لخبر عاجل بتهمة عبادة الأصنام.

نهضت (قبلة) تنفض نفنوفها من قش الخرائب وشظايا اليباب، تعدل نفسها وتسوي شعرها وهي تقول:

ـ هيا.. ياحبيبي أسرع لنتزوج.. هيا استعجل لنتزوج قبل القيامة.. قبل أن تنوح علينا حمامة.

مكتبة الفكر الجديد

يقوم (دخان) بخفة وهمة ويأخذ يدها، ثم يخرج من جيبه ورقة معقشة مطعجة سوداء، راح يقرأ ويقول بعدما ترك يدها:

ـ حبيبتي.. كتبت لك قصيدة.. ظلت تحوص منذ أن داهم بلادنا القتلة واللصوص.. قصيدتي تحوص بين أضلعي.. إذا لم تسمعيها وتصغي إليها تتحول إلى غدة خبيثة.. اسمعي:

عيناك سيارتان مفخختان ساعة الصفر
أو عبوتان ناسفتان راح ينأى عنهما القدر
عيناك حين تبسمان ينفجر السوق
وترقص الأجساد المذبوحة في نهر
أتعلمين أي بعث يشفط المطر
وكيف تنشج عيون المدينة دم البشر
وكيف يشعر المقتول مجهول الهوية بالضياع
بلا رجاء بلا أمل كدم عمال المساطر
كالغصة في الحناجر كالأيتام كالنواح هو المطر
خطر خطر خطر
عيناك سيارتنان مفخختان ساعة الصفر
أو عبوتان ناسفتان راح ينأى عنهما القدر

تعانق (دخان) و(قبلة) وهما يجهشان بنحيب بكاء يفت قلب إله الصخر. جفلا مذعورين من زخة رصاص قريب، تبعه صراخ نسوة وخطوات ثقيلة تتراكض. حلق بها (دخان) بين الأزقة والدرابين الخالية وشبه المجهورة، دخل شارع (الجمهورية) إلى الشورجة حيث رأى جميع

مكتبة الفكر الجديد

الناس يمشون بركض إلى بيوتهم وكأن السماء ستمطر قنادر. اقتربا من بيت (قبلة) بعدما تجاوزا سوق (حنون) بمسافة، ثم ودعها بنظرة غسلت آثار الخطر وشجعتها على مواجهة وحوش الكراهية في البيت.

وها هو (دخان) يجلس معنا أمام كراج سيارات باب المعظم في المقهى الذي بلا اسم، وهو يخوط استكان الشاي الثالث على إيقاعات جنون القيامة.

مكتبة الفكر الجديد

زفة الميت

متى يتوقف هذا الجنون، هل يدلني أحد على علاج، هل ينورني أحد بموعد انتهاء هذا الجنون، رأسي على وشك الانفجار من جنون الآخرين. هل لهذا الجنون (أكسباير)، هل هناك تاريخ معين ينتهي فيه مفعول الجنون، معقولة نحن وحدنا العقلاء في هذا الجنون الجماعي؟

هكذا اشتغل لسان (هندي الحلاق) بعدما أصابه الذبول ساهما وهو يشرب الشاي الثالث مع (دخان) الذي تلفت حائرا، يبدو قد فاته ما كان يقصد (هندي الحلاق) وراح يسأل:

ـ يا جنون تقصد؟

اندلع اللهب في عيني (هندي الحلاق) وراح جمر ناعم يتساقط من لسانه:

ـ جنون القيامة.. ليش أكو غير هذا الجنون ما نعرفه بعد؟

تلفت حولي مرتابا لئلا يسمعنا أحد من مجانين القيامة فالتقية هنا ضرورية للبقاء حيا، وكذلك ضرورية لتحاشي أي كلام جارح أو إهانات تصدر منهم.

مكتبة الفكر الجديد

عادت الدماء بوجه (هندي الحلاق) وزال عنه الانكماش فقلت له:

ـ هناك نوبات جنون داخل جنون القيامة.. وعند هيجان هذه النوبات التي لها ميعاد ووقت محدد.. يفضل لنا أن لا نخرج من البيوت.. وأن نتزود بالطعام والوقود حتى تنتهي نوبات الجنون.. تصور يا (هندي) إن هذا الجنون الذي نراه ونعيشه هو أقل أذى ودموية من نوبات الجنون.. هناك تطرف بهذا الجنون مثل الذباحة والانتحاريين.. وهناك مرضى جهاديين داخل هذا الجنون مثل جماعات الثقوب السود.. ولكن أشدهم خطرا هو شذوذ الجنون عند الزعماء والقادة وكهنة طالبان وتنظيم القاعدة وبقية المافيا العقائدية.

تناوش (هندي الحلاق) فكرتي ودخل في تفاصيل درجات الجنون وقال:

ـ هناك ألوان لجنون القيامة تبدأ باللون الأبيض وهو جنون مسالم.. وتنتهي بأخطر لون هو الأسود.. هو جنون القيامة المسلح.

بعدما تأكدت مطمئنا بعدم وجود أشخاص يتنصتون علينا أو انتبهوا لنا، المقهى غير مزدحم فهناك مقابلنا أربع شباب صغار يلعبون دومينه، ورجل كبير أشيب الشعر يقرأ جريدة يعطينا ظهره جالسا أمام كراج باب المعظم. وهنا طالبان بملابس جامعية يجلسان قريبين من باب المقهى يتهامسان بموضوع خاص بهم، قلت:

ـ الشرق الأوسط كله يعاني من جنون القيامة بدرجات متفاوتة من الألوان ولكن عندنا هنا وفي سوريا وأفغانستان وبعض المناطق قد وصل إلى اللون الأسود.. لون جنون القيامة المسلح.. العدوى مستشرية والوباء ينتشر.. والرعب من دمار الكون إذا تفشى جنون القيامة بين شعوب العالم.

مكتبة الفكر الجديد

اشترك (دخان) معنا على الخط الجنوني لأول مرة وهو يكره أمريكا بالفطرة:

ـ لذلك عمدت أمريكا إلى كنس مجانين القيامة من كل دول العالم وألقوا الزبالة هنا عندنا وفي سوريا.. الغرب يسعى إلى تطويق وباء جنون القيامة وحصره في بعض بلدان الشرق الأوسط.

سمعنا صليت رصاص بعيدة لم نأبه لها فنحن فعلا نعيش داخل قنبلة لا نعرف متى تنفجر. لكن رشقات الرصاص أخذت تقترب بسرعة،اقتربت،وصلت السوق فتراكض الناس يحتمون بالسيارات الواقفة داخل كراج باب المعظم، وركضوا داخل أزقة بيع البالات والمكاتب. سمعنا وشيش طلقات وأزيز رصاص في الهواء فوق رؤوسنا، هنا حل الخطر فلا مجال للبقاء جالسين في العراء تحت سماء الرصاص. نهض (دخان) وتبعته ثم لحق بنا (هندي الحلاق) بعدما سمعنا صاحب المقهى ينادي علينا ويؤشر بيده أن ندخل في المقهى، التي باتت مزدحمة مكتضة لا مجال لوضع قدم. بقينا واقفين في واجهة المقهى نسمع لغط الناس المذعورين وهم يتهاترون:

ـ هذولة بعثيه سفلة من الفضل.. بين فترة وفترة يرمون رصاص ويعزلون السوق والمنطقة وينسحبون...

ـ يمعود يا بعثيه.. هذوله القاعدة..

ـ لا..لا..لا بعثيه ولا قاعدة.. هذوله المجاهدين السفلة...

ضحك (هندي الحلاق) وهو يسمع هذه المهاترات فقال:

ـ هؤلاء المساكين يتكلمون عن شيء واحد.. وهم لا يعلمون (التفت نحوي) شفت شلون عندي حظ قوي.. إردت الخروج إلى حشر مع الناس

مكتبة الفكر الجديد

د.. وإذا بي أطمس بمأساة وأطلع بمأساة.. رغم أن جميع مآسينا هزلية..
عان ما تتحول النكبة إلى نكتة مثل هذا ابو الكاميرا الخفية: في إحدى
بارات (الكوستر) في مدينة الشعب.. نهض من بين الركاب الجالسين
اب مراهق بلحية طويلة لفت انتباه جميع الركاب والسائق.. وبسرعة
اطفة فتح قميصه وصاح (الله أكبر).. يعني انفجار هائل يهزّ مدينة الشعب
سيارة الكوستر وحدها.. اختبأ بعض الركاب بشكل غريزي تحت المقاعد
شدة الفزع.. وبعضهم غطى رأسه بيديه.. فالجميع سوف يتناثر لحمهم
نظمهم بانفجار هذا الشاب الانتحاري.. واعتقد أن بعضهم سواها على
سه وتبول.. انتظر الجميع الانفجار الآن.. بعد قليل.. مضت دقائق ولم
ـث الانفجار المؤكد.. خرج الركاب الخائفين تحت المقاعد ورفع بعضهم
به من فوق رأسه.. السائق كان منحنيا فوق المقود ينتظر منيته السودة..
ذا بالشاب المراهق يضحك وهو يقول: الكاميرا الخفية.

هجم عليه الركاب والسائق وانهالوا عليه لكمات وكلات ورفس حتى
د أن يموت لولا تدخل السائق الذي رأى الشاب سابحا بدمائه. ركلوه
نزلوه من السيارة ملقى على الرصيف بآخر نفس.

انسحبت رشقات الرصاص تخفت وتبتعد تدريجيا مثلما جاءت،
سحب المسلحون بعدما فرغ السوق من الناس وهرب الكثير وتبعثروا
كل مكان. قلت لدخان وهندي الحلاق:

ـ ياجماعة.. نرجع للبيت أسلم وأحسن.

قاطعني (هندي الحلاق) بشدة:

ـ لا.. لن أرجع للبيت الآن.. هذا هو بالضبط ما يريدونه الشاذين من
نين القيامة.. يريدون إطفاء الحياة نهائيا.

مكتبة الفكر الجديد

وصاح على صاحب المقهى بصوت مرتفع لكي يسمعه الجميع:

ـ عيني اتلث استكانات شاي.. احنا كَاعدين بره.

وبفضل مجازفة (هندي الحلاق) تشجع بقية رواد المقهى وجلسوا بالداخل والخارج. رنّ هاتفي الموبايل بموسيقى أغنية (وحدن) لفيروز. إنه رقم غريب أجبته بلا حذر ولا ارتياب أنا المبلل بكل خطر مرئي ولا مرئي. سمعت صوت شاب يخبرني بأن (هندي الحلاق) صديقه أعطاه هذا الرقم يتصل به عند الحاجة. أخبرني بصوت دامع مفجوع عن حرق بيت (هندي الحلاق) من قبل جماعة الثقب الأسود. إنه فارغ من الأثاث والفراش وجميع الأشياء المهمة فقد نقلها أصدقاء (هندي الحلاق) إلى أماكن آمنة، لذلك سرعان ما انطفأت النار، جماعة الثقب الأسود أشعلوا النار في البيت وانسحبوا، والمفاجأة حين مطرت الدنيا. قلت له: إنها لم تمطر هنا في باب المعظم.. هنا غيوم سوداء فقط. لكن الصوت أكد لي بأن المطر شديد في مدينة (الحسينية). خمدت النار وانطفأت بمساعدة الجيران، لم يتضرر البيت سوى أن جميع الحيطان والسقوف اسودت، والبيت بحاجة إلى تصليح وصبغ لكي نستطيع بيعه بسعر مناسب. تحدث الصوت بكلام يشوبه الشك والريبة عن السبب في حرق البيت ولماذا، أكيد هناك حلقة مفقودة. كنت أزوغ من شكوكه وأترك أسئلته من دون جواب وأنا أردد بأن الحقد لا يتوقف عند حد، اختطفوه وبسببهم ماتت أمه ولم يكتفوا بدمار عائلة كاملة فحرقوا البيت، هذا هو ديدنهم وأخلاقهم. شكرا أخي سوف نتفاهم مع (هندي الحلاق). مع السلامة مع السلامة.

سمع (دخان) و(هندي الحلاق) كل مادار من حديث وقد فاتني الذهاب بعيدا وإجراء المكالمة لكن (هندي الحلاق) لم يهتم لكل ما سمع

مكتبة الفكر الجديد

وما حدث، لا انصدم ولا حزن ولم يسأل عن تفاصيل الحريق، وربما كان سيغني لولا هذا المكان العام. يبدو أنه أدرك كل شيء بمجرد سماعه حرق البيت. جماعة الثقب الأسود قلبوا عليه مدينة (الحسينية) شارعا شارعا، وداهموا الكثير من البيوت التي شكوا بوجود هندي الحلاق فيها. لكنه اختفى تماما وطمس ذكره وأخباره حتى راودتهم الشكوك بان الكلاب مزقته ومات أو أن الجيش الأمريكي أخذه وهو الآن في سجن (بوكا). لما تعبوا من البحث والاستقصاء وأنهكهم الشك والقهر والهوان بعدم قتله أحرقوا البيت.

دعانا (دخان) إلى بيته والمبيت عنده لكننا اعتذرنا، تمنى لو نتعشى ونتبادل النكات السود عن طيور القيامة وخبز القيامة حتى أنه سرح شعره الأسود البني وهو يقول: غسلته بشامبو القيامة. فعلا رأينا في التلفزيون إعلانان القيامة تحتها كتابة بخط تراثي: إعلان مدفوع الكفن: مسواك الفردوس..أقتني وأشتري مسواك الفردوس..الذي يطيب ويعطر رائحة الفم عند تقبيل حور العين في الجنة.. احجز من الان قبور بخمس نجوم.. لا تفوتك الفرصة لقبور مؤثثة ومكيفة وباسعار مناسبة..لا مشاكل بعد اليوم في حضرة الشيخ عزت عبد القادر..الاستاذ في عالم الجن المجربات.. إخراج الجن وعلاج التابعة والمس..علاج السحر والحسد وعلاج كثرة الانجاب لحد العقم عند الرجال والنساء..تعطيل الزواج وزرع العثرات.. تعاويذ للصلح والخراب بين الزوجين..وحرز انتزاع المحبة وزرع البغض والكراهية..تعطيل التهيج والشبق مع أختام الاحجار الكريمة وكافة القضايا القيامية..عزيزي المشاهد المتحفز والمشدود لإستقبال يوم القيامة: ماذا تأكل..ماذا تشرب ماذا تلبس وكيف تستحم وتغسل شعرك: انه

مكتبة الفكر الجديد

شامبو القيامة..المستحضر من ورق السدر والتين وبذور شجرة الطوبى.. ولكن أروع وأعظم مكونات شامبو القيامة: بول البعير..بول البعير الذي يجعل الشعر يتماوج مع سواقي اللبن والخمر..يجعل الشعر أرق من ريش النعام وبملمس احراش الجنة..عزيزي المشاهد القيامجي..لا تخرج من بيتك إلا بعدما تعطر فمك بمسواك القيامة..وتنشر ثيابك فوق بخور القيامة وتغسل شعرك بشامبو القيامة فالموت اقرب من حبل الوريد.. تزودوا بمنتوجاتنا قبل ما يخطفكم عزرائيل..الاعلان مدفوع الكفن.

استيقظنا من غبشه على صوت رصاص وهلاهل وطبول فرح وأبواق موسيقى أعراس. نظرت من فوق باب البيت، رأيت تجمعا لشباب ورجال ونساء وأطفال وكهول بكامل زينتهم. الكثير من الجيران لابسين أبهى ثيابهم وطيف ابتسامة فرح تعلو الوجوه. كلما تأتي امرأة تطش حامض حلو وجكليت فوق الرؤوس وهي تهلهل بأعلى صوتها، الأطفال والشباب ينحنون للأرض يلملمون ما تنوشه أيديهم من (الواهليه).

كل هذا الحشد أمام بيت (وعد) ابو الدكان، والناس يتوافدون عليه من كل مكان. سمعت صوت باب بيت أخي (عناد) ينفتح، وقبل أن يصبح علي أو يذهب إلى الحشد فتحت الباب بسرعة وقلت له صباح الخير فأجاب: السلام عليكم. سألته عما حدث في بيت (وعد) فأشرق وجهه بفرح وابتسامة عريضة وهو يقول:

ـ (كنش) مات.. هل سمعت بانفجار المقهى مقابل السوق (الزغير). دخل عليهم انتحاري بحزام ناسف وهم يتفرجون على لعبة كرة القدم بين فريق ريال مدريد وبرشلونه.. المقهى مزدحم والجميع يتابع بحماس بحيث لم ينتبه أحد مطلقا لدخول الانتحاري.. الذي وقف أمام الشاشة

مكتبة الفكر الجديد

يسدّ الرؤية وصاح (الله أكبر) وفجر نفسه.. قتل شباب صغار وكثير من الجرحى.. وجدوا (كنش) ممزق الصدر والبطن ومبتور اليدين.

ثم راح أخي (عناد) يتمتم مع نفسه وأكمل مستبشرا يملأ الفرح وجهه:

ـ الحمد لله والشكر.. رزقه الله الموت السريع وخلصه من شرّ الدنيا.. (رفع يديه للسماء) اللهم ارزقنا معه هذا الموت السعيد.. ونجينا من بلاء الدنيا وأهلها.

كتمت صرخة وكبحت نفسي ولجمت لساني من القول:

ـ هل يوجد شذوذ جنون مثل جنونا هذا؟

كنت الحزين الوحيد بين المحتفلين بموت (كنش)، الذي تزوج قبل فترة قصيرة بجادر مأتم العرس. رأيت أباه (وعد) طائرا من الفرح لا يستوعبه مكان ولا تتسع له الأرض، يتنقل بين المهنئين والمباركين، يردّ عليهم طافحا بالسعادة خاصة بعدما جاءت سيارة زفة الميت، سيارة حمراء مزركشة بشرائط بيضاء وخضراء وصفراء وزرقاء، تتطاير مع الهواء وهناك رسم برذاذ أبيض لجمجمة مكشرة الأسنان فوق الزجاجة الأمامية والخلفية للسيارة. تتبعها سيارات كثيرة توقفت حال توقف سيارة زفة الميت. وفجأة تعالت الهلاهل ودوت الطبول وصدحت الموسيقى ولمعلع الرصاص فوق الرؤوس وإذا بتابوت يخرج من باب بيت (وعد)، تابوت مزين بأبهى الشرائط الملونة ومطرز بورود سوداء تحيط بجمجمة بيضاء تضحك، مع نشرة ضوئية بمصابيح صغيرة ملونة تحيط بحافات التابوت من الطول إلى الطول، ومن فوق إلى تحت، تشتعل وتنطفيء بكل ألوان الطيف الشمسي. يحمل التابوت أربعة شباب ذائبين في دوامة رقص

مكتبة الفكر الجديد

ماجن وهم يهزون التابوت يمينا وشمالا، وسط حلقة من الراقصين في وطيس نشوة المرح يتمايلون مع إيقاعات الطبول ونغمات الأبواق، وهناك النساء في أبهى الأزياء وبكامل طاقم الزينة والمكياج يردحن أمام باب بيت (وعد) وداخل البيت، ونساء متبرجات فوق السطوح يتمايلن مع الموسيقى والطبول ويطلقن مدافع الهلاهل بين فترة وأخرى. نظرت إلى أعلى فشاهدت السطوح غاصة بالنساء والبنات الصغيرات والأطفال وهم يتقافزون من سطح لسطح لا أحد يخاف عليهم من السقوط إلى الأرض.

رفع (وعد) ابو الميت يديه إلى فوق بإشارة أن يسكت الجميع، وفعلا خفت الطبول والأبواق والهلاهل ثم سكتت بعدما رفع بعض الواقفين أيديهم مقلدين إشارة (وعد) بالسكوت. سمعت التهاني وهي تنهال على أبي الميت وارتفعت الأصوات المباركة له بموت ولده بينما يضع (وعد) يده على صدره علامة شكر للجميع وهو يبتسم من فيض الفرح وقال:

ـ رحم الله والديكم على هذه الوقفة الأخوية معي.. وأقدم شكري للجميع.. أشكر الجميع على المشاركة في فرحتي بموت ابني العزيز (كنش).. أشكر الجميع على تقاسمهم سعادتي.. وأدعو الله أن يوفقكم ويفتح عليكم باب الموت والراحة الأبدية بجلالة الحي القيوم.

تقدم (فواز) وكيل الحصة التموينية واحتضن (وعد) يبارك له ويقول:

ـ اليوم يوم الفرح.. يوم السعادة.. مبروك وعلى الخير موت ابنك الغالي الحبيب (كنش).. وإن شاء الله يوم زفتك بالتابوت قريبة بحق العلي العظيم.

رد عليه (وعد) بالبشر والغبطة:

ـ اللهم يسعد أيامك بموت قريب.. أشكرك وإن شاء الله يوم زفتنا للموت سويا.. تابوتين على سيارة زفة واحدة.. وأدعو الله أن يموت ابنك

مكتبة الفكر الجديد

البكر (صافي) وأخوته بيوم واحد وأنت وإياهم وجميع عائلتك ولا يبقى منكم نفر لشقاء الدنيا وعذابها.

ثم تقدم (أبو حسين) منفرج الأسارير باش الوجه، صاح وهو يحتضن (وعد):

ـ الله الله بهذا اليوم السعيد العظيم.. مبارك ألف مرة بموت حبيب قلبك وقرة عينك (كنش).. وأتمنى لك الموت القريب بحق العزيز الرحيم.

رد عليه (وعد) ممتنا شاكرا:

ـ الله يسمع منك.. من لسانك لباب السماء.. وأتضرع لله القوي المكين أن يرزقك الموت العاجل مع أهلك بأقرب وقت.. وتخلص من عناء الدنيا وشرها.. تنجو من ذل العيش وهوان طول العمر.

هنا جاء (زناد) يهزّ الكتفين من شدة الفرح واحتضن (وعد) يبارك له موت ابنه ويقول:

ـ لا سعادة غير الموت ولا شقاء غير العيش.. تهانينا ومليون مبروك.. ثق بالله فرحنا وطرنا من الفرح بموت فلذة كبدك ابنك (كنش).. أتمنى لك سعادة موت قريب يارب يا أرحم الراحمين.

أجابه (وعد) وهو يقبله من الخد الأيمن والخد الأيسر:

ـ لنا ولكم إن شاء الله.. نتوسل وندعو الله أن تحل عليك نعمة الموت.. سعادة موتك وموت أهلك كلهم.. وأن لا يبقى أحد منكم ذليل وغريب وتائه.. مهموم مغموم بشرور الدنيا وقذارة الحياة.

ثم رفع (وعد) يديه مرة أخرى يحيي الجميع ويتمنى لهم أقرب موت عاجل وشيك.. وأن تبقى بيوتهم فارغة تصوصي.. تلعب فيها الأشباح لعبة الغميضة.

مكتبة الفكر الجديد

تقدم (وعد) نحو التابوت لكن الشباب الأربعة حملوه راقصين وهم يؤرجحونه يمنة ويسرة، وساعدهم بعض الرجال ليضعوا التابوت فوق السيارة المزينة بأنواع الشرائط اللاصقة. لفوه بحبل أحمر يثبتوه بإحكام فوق السيارة حتى لا يتزحزح ويهرب من الموت.

امتلأت بقية السيارات بالشباب والأطفال والكهول والنساء والبنات من جميع الأعمار، كما صعدت جماعة الطبول والأبواق في سيارة (كيا) لوحدهم، وانطلقت زفة الميت يصاحبها أزيز رصاص حال تحرك سيارة التابوت، أخرج بعض الشباب نصف أجسادهم من نوافذ أبواب السيارات، نصف بالداخل ونصف بالخارج يرقصون بجنون مع إيقاع الطبول والأبواق. شاهدت وجوه النساء تتبارق مشعة من خلف زجاج النوافذ، يصفقن ويهلهلن. الأطفال يتدافعون فوق ساحة الرقص الضيقة داخل ممر سيارة (الكوستر) و(الكيا) والتكسي.

انطلق موكب زفاف جثة (كنش) بسرعة إلى عش مثواه الأخير. وانقض عليّ سؤال غاشم: هل استيقظ الناس فوجدوا أنفسهم مجانين القيامة. هل نصدق رؤيا صاحب مقهى (قبو البصل) الخرافية عندما جاء من أقصى الصحراء ساحر يحمل قارورة جنون القيامة، وانطلق يرش فوق أنهار وجداول وسواقي وبحيرات بلدان الشرق الأوسط، يرش في خزانات وأحواض تصفية الماء حتى شرب الجميع وانتشر جنون القيامة. ولكن هناك أشخاص نجوا من الإصابة، كيف انتبهوا وتحملوا العطش، هل أجروا تجارب كثيرة في تنقية الماء من جنون القيامة، كيف نجحت التجربة، هل وضعوا سبع حبات من نوى التمر في قدر ماء يغلي بمصدر حراري، وتتزامن مع عملية الغليان صداح موسيقى القدر لبتهوفن لمدة

مكتبة الفكر الجديد

ساعة، بعدها صار الماء صالحا للشرب وخاليا من فايروس جنون القيامة. من يصدق هكذا هراء؟

طبعا، هذه مجرد أسطورة خرافية تسخر وتتهكم من الناس، لا وجود لساحر ولا قارورة جنون القيامة ولا نوى التمر ولا قدر موسيقى القدر لبتهوفن، هو مجرد خيال شب، وانطفأ وبقيت آثار رماد وظلال.

أكيد لم يستيقظ الناس ويجدوا أنفسهم مجانين القيامة، بل هناك سبب يفصم العقل، تقف وراء أسباب: من الجذر القومي والديني نبت وأزهر وأثمر جنون القيامة، وكان سهاده فشل الأنظمة الوطنية والعلمانية وانتكاسة مشروع النهضة. كنا على وشك فانسحب بساط الوطن من تحت أقدامنا وسقطنا، سقطنا في الماضي الدموي. وبدأ ضرب الناس على الرأس، ضرب بعصي العقائد ودمغات وكفخات، عشرات السنين والضرب متواصل على رأس الناس: ضرب الملوك، ثم تصاعد ضرب الجمهورية، بعدها تصاعدت وتيرة ضرب الحرس القومي والعارفية، وجاء الآن ضرب البعث حين وصل ضربهم إلى اليافوخ إلى الدماغ حتى تصاعد مضاعفا ضرب القاعدة وجماعات الثقوب السود.

هنا تخدّر العقل والجسد والروح من شدة الضرب المتواصل، بحدة وقوة يتصاعد الضرب المتواصل حتى وصلنا إلى درجة من التوجس: لو توقف الضرب نشعر بوقوع كارثة نوعية، كارثة جديدة لا تشبه جميع كوارثنا التي عاشت معنا وتدجنت حتى صارت مثل حيواناتنا الداجنة كالبقر والحمير والدجاج، والضرب على الجرار ونار تلدغ نار. مع كل يوم جديد تتصاعد حدة ونوع وموديل الضرب، مختبرات جهنمية لإنتاج أنواع جديدة من الضرب، صار عندنا أكبر مهرجان لموديلات الضرب....

بروح أمك أهديني نورني: بعد كل هذا الضرب ماذا بقي في رأس الشعب؟

مكتبة الفكر الجديد

هربت من زفة الموت ومن أخي (عناد) ومن أبناء منطقتي ومن العالم، هربت وفتحت باب البيت لأدخل هاربا من الضرب. عصف بي الجزع والتهب جلدي وما تحته من قسوة الضرب، ما من خلية نجت من حريق جنون القيامة، كادت النار تنط خارج جلدي فتلقاني (هندي الحلاق)، استقبلني يغني، تلبس زي الإطفائي، لكنه إطفائي نادر، من سلالة نادرة، هو إطفائي يحاول بكل معداته العقلية وطاقته الروحية إطفاء جهنم. تدفق صوته علي شلال حب، وقفت لإخماد النار تحت شلال صوته العذب. يغني مثل (مسعود العمارتلي) وأنا أغط وأنط مغمورا بموجات هور صوته. واقف يغني مثل قصب مملوء بجينات السومريين، قصب لايموت ولا ينقرض مهما تصحر عقل الناس وتلبسهم جنون القيامة.

غناء (هندي الحلاق) عكس تيار زفة موت (كنش)، وضد انحطاط فرحهم وحزنهم وحياتهم وموتهم، هؤلاء المساكين أهلي. يدمرني جنون الناس فلا أطيقهم، لكني أعود وأبكي وأنتحب: يا يابه يا بويه. أصرخ على ناسي أحبتي أهلي، أنا بالضبط مثل بلاع الموس. أبكي عليهم وأبكي منهم، أهرب منهم وأهرب إليهم، هذا أنا وغناء (هندي الحلاق). إنه يرثي الحياة والموت بنبرة واحدة.

قادني (هندي الحلاق) إلى داخل البيت لاخوفا من كلامنا لو سمعه أحد الجيران، البيوت فارغة حتى من الأطفال لأن الجميع ذهب في زفة موت (كنش)، أو هم يرقصون في بيت (وعد)، يبقون ذائبين في حمى الرقص حتى تعود سيارات الدفانة من المقبرة.

مكتبة الفكر الجديد

كهنة اللغة

ما بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة صحراء مقفرة من الرطانة. نحن بحاجة إلى مترجم فذ ينقل لنا اللغة المكتوبة إلى محكية بدون خسائر كبيرة. تكاد تموت اللغة المكتوبة ويحاول الكهنة والنحويين زرقها بالمنشطات والمقويات والفيتامينات، لكنها تنحدر سريعا للموت، حتى صارت حروف اللغة توابيت مصفوفة من الألف إلى الياء. هكذا لاحت لي غيوم تفكير تمتزج مع بخار قوري الشاي الذي ينفث ويدعوننا أن نصب ونشرب لكنني طعنت (هندي الحلاق) بسؤالي الغاشم:

ـ هل استيقظ الناس فوجدوا أنفسهم مجانين القيامة؟

استعدل في جلسته وصار قبالتي بالضبط، أخذ يصب الشاي في استكانين داخل الصينية، وانهمر عليّ بمطر مداري لا ينقطع، العجيب أن مطره ناشف إذ لا يتطاير عليّ رذاذ فمه وهو يتحدث ولا تتجمع رغوة الكلام بأطراف فمه.

انسقت معه في مشوار نقاش جعلني أنسى ابتلاع الموس من خلال انعطافة لا على البال ولا على الخاطر عندما قال:

مكتبة الفكر الجديد

ـ إضافة إلى الأسباب التي عددتها أنت عن جنون القيامة، والاسباب التي ذكرتها أنا سابقا،لكني أعتقد بأن أكبر أسباب جنون القيامة هو: اللغة، هي سر تخلفنا الذي لا يبوح به أحد، اللغة سر أمراضنا الروحية، اللغة بيت الداء. مع الأسف والألم، لقد استند الجميع واتكأ على حائط اللغة.. لا يعرفون أنه منخور أكله العث..وها هو اليوم آيل للسقوط.. كهنة اللغة هم الوحيدون من يعرف أن جدار اللغة تعيث به آفات العث،.. لكنهم يخفون العلة عن المريض إلى أن يفضحهم الموت.. كهنة اللغة يطمطمون تآكل حائط اللغة وتصدعه منذ فترة طويلة.. لذلك راحوا يتفننون بعمليات إصلاح وترميم التآكل والصدوع والشروخ مستخدمين طين وحناء التقديس... لكن اليوم انكشفت العورة واللغة ماتت سريريا.. وبدأ الدود ينهش.. تعفنت الكثير من المفردات والكلمات إلى درجة صارت الحروف هي الدود.. ينهش بجثة اللغة، إذ ما عاد ينفع دجل كهنة اللغة في التحنيط والترقيع وإشعال أطنان من البخور.. لا ينفع اليوم شد بشرة اللغة.. لها دورة حياة مثل أي كائن حي: ولادة.. طفولة.. شباب وكهولة وموت.. بعدها تنبعث ولادة جديدة من موت الأم.. تولد بحلة جديدة وأدوات ومعاني وألفاظ وموسيقى وفقه ونحو وقواعد.. كلها جديدة.. الكهنة ألدّ أعداء اللغة عندما يخفون موتها ويبالغون في تقديسها.

يا أخي.. لماذا تعوج حلقك لتنطق لغة غريبة عليك.. لغة عصر قديم مات وانقرض.. يا أخي انطق لغة عصرك، واكتب بها فالحياة لن ترجع للوراء لخاطر عين اللغة.. الحياة أعظم وأقدس من اللغة.. لكن الكهنة يريدون تفصيل الحياة على مقاس اللغة فضيعوا الاثنين معا.. لكنهم

مكتبة الفكر الجديد

مصرون بأن اللغة أقدس من الحياة.. والسبب واضح وبسيط: إنهم يعتاشون على بقاء اللغة ويقدسونها مهما انحطت وتردت وعطّت نتانة جثتها.. هم يستميتون في الدفاع عن بقاء اللغة حتى وإن كانت جثة محنطة.. اللغة عندهم لا يمسها بشر.. ويقطعون لسان من يتحدث عن تطويرها.. كذابون ودجالون في دفاعهم فإذا تطورت اللغة تنقطع لقمة العيش عن كروشهم.. تلك اللقمة المغمسة بالدم والنفاق والرياء والطيش.. سوف ينقرضون إذا تطورت اللغة وصارت بنت عصرها.

سكت (هندي الحلاق) بدون سابق إنذار، توقف عن الكلام بشكل مُفاجيء كأن شبح ثقب أسود أغلق فمه وصمت. رأيته انزوى بداخل جلده لايريد لأن يراه أحد، انكمش وجوده تحت ملابسه، وتلونت سحنة وجهه من أصفر شاحب إلى أحمر مدبوغ إلى أخضر حشيش إلى أبيض كالقطن هكذا تلون وفجأة قال:

ـ جوعان.. يلا خلي نسوي غداء.

لأول مرة أراه يخفي عني شيئا بحيث بذل كل طاقته ليبعدني عن الشك بأنه يخفي أمرا لا يريدني معرفته. وأنا بدوري تغاضيت وتركته يفعل مايشاء وكأني لا أدري ولا أعرف أي شيء.

استأذن مني وهو يعتذر بأنه سوف ينزل إلى السرداب ليقضي عملا مهما نسيه منذ زمن بعيد، والآن تذكره فلا بد من إنجازه، واعتذر عن عدم مشاركته في إعداد طعام الغداء وهو يقول:

ـ البركة فيك.. أنت تطعم عشيرة لوحدك.

ضحك ونزل إلى السرداب وانشغلت في إعداد كبة الموصل مع زلاطة وخضار وتسخين رغيفين ليس من خبز القيامة. حيرني (هندي الحلاق)

مكتبة الفكر الجديد

بسلوكه معي الآن، ليس من طبعه أبدا أن يضم شيئا عني، ويحاول إبعادي عن اكتشافه، منذ عرفته في لقائنا الدراماتيكي، عندما أخرجناه من الكيس الأبيض في ساحة الطوبى، وهو لم يخفي عني شيئا واحدا لحد قبل هذه اللحظة. كشف لي سجل حياته لقطة لقطة من طفولته والمراهقة وكيف سقط شعره بالطشت عندما غسله بعد خلطة كيمياوية لتسريح الشعر، كشف لي كيف قتلوا أخويه في الحرب العراقية - الإيرانية وحفر السرداب في البيت وكيف صارت أمه بريد كتب، ثم مهرجانات حلاقة شعر الإصدقاء والأعداء، ومعرفته للعالم من خلال وكالات أخبار الزبائن حتى سقوط نغولة العقيدة وقائدهم الجرذ، واشتغاله في الصحافة وصدمته في الزيف وخيانة الضحية والمتاجرة بنزيف الدم العراقي حيث بقي يقول دائما: كلما أبتعد عن الوسط الفني والثقافي أتطهر من أمراض الضمير وينظف عقلي من الأوساخ وتخف روحي وتشف حتى أشعر أني أطير بعيدا عن حرائق الضمائر، أطير من صحراء القلوب ومستنقعات الشهرة وعفونة الأنا السرطانية، لكن الإغواء بالعودة للوسط الفني والثقافي يجرني بين فترة وأخرى، يبقى يجرني مثل مغناطيس النار للفراشة.

لم يخفي عني علاقته بـ (صعاليك القيامة) وحكايات مقبرة (محمد سكران)، ولم يضم عني خلافه ومعارضته للأولين والآخرين، وكيف مات ونبش قبره من الداخل وخرج لأن ميقات موته خطأ، وأكتشف أن حتى يوم ميلاده هو الآخر خطأ، جميع مراحل حياته سلسلة أخطاء تقع عليه من غيره ويتحملها هو بقلب ذهبي صاف لا يعرف معدنه إلا من عاشره عن قرب، وشاهد هالة روحه. ماذا يخفي عني (هندي الحلاق) وقد حفظت سنين حياته عن ظهر قلب، هل هو أمر خطير أم تافه، ولكن

مكتبة الفكر الجديد

لماذا يخفيه؟ هل أزعل وأغضب لأن ثقته بي تزعزعت، ثم ما هو العمل المهم كما يدعي ونسيه بلا إنجاز، تضحك علي يا (سميغل)، هل تخبيء الخاتم السحري الملعون في السرداب وأنت حائر بين أن يدمرك أو تدمره؟

دوخني اللعين (هندي الحلاق) شبيه (سميغل) بنزوله الغامض للسرداب، لماذا أوجع رأسي بأسئلة ساذجة ولكن لامفر منها، يمعود اهدأ بعد قليل يتضح كل شيء وتنهار جبال الشكوك هذه برمشة عين. لقد أحصيت الأشياء التي من الممكن أن يخفيها واحدة واحدة، وقلبتها من جميع الجهات والوجوه فتبين أنها لا تستحق الإخفاء. إذن ماهو الشيء العظيم والخطير الذي غفلت عنه وتم إخفاؤه عني ونجح؟

كم يحزّ بنفسي: هندي الحلاق الذي فتحت له قلبي وبيتي يخفي عني أمرا ربما يدمر بيتي وبيت أخي (عناد) ويسيء إلى سمعتنا.

أي سر لعين لايبوح به إلي، لن أسامحه ولا أعذره، كيف يخونني بكتم سر وهو هنا في بيتي؟ لا.. لا أفوتها له أبدا، ثم هو شايف نفسه حكيم السماوات والأرض ويستهين بي لا يحترمني مثلما أحترمه، لا، لا أفوتها أبدا، هذه إهانة وبصقة بوجهي، وسوف لن أسمح له يعاملني باستصغار واحتقار ويخفي علي هذا السر القذر. يجب أن يدفع الثمن، مستحيل أن يبقى هنا في بيتي بعد اليوم، ولا أدعه يخرج بدون الاعتذار ورد الاعتبار والأخذ بالثأر.

صعد الدم إلى يافوخي من القهر والغليان وإذا بي أصيح عليه:

ـ هندي.. أخرج من السرداب.. عندي معك حساب.. هيا أخرج بسرعة...

مكتبة الفكر الجديد

لم أسمع رد، فقط صوتي يطنطن داخل تجاويف السرداب. صحت بصوت أعلى وبحدة وسخط لأنه فوق هذه الإهانة يتجاهلني ولا يرد علي:

ـ هندي.. أنت أطرش ما تسمع لو ساد أذانك. أطلع ترى طلعت روحي....

لا جواب وصوتي وحده يلعلع في البيت ويدوي في السرداب، فكرت: ربما هو نائم لكني أعرف أن نومه خفيف ويفز من رفة جنح فراشة، عجيب كل هذا الصياح والعياط ولا يفزّ، معقولة أم إنه إمعان في الإهانة، هندي الحلاق لبسني مرة واحدة وإلى الأبد، لا يكف عن التمادي في الاحتقار والإهانة، لم أتمالك نفسي، نزلت إلى السرداب فرأيته فعلا ينام بعمق ولا يسمع أي صوت. رحت أندهه وأفززه وأنا أنادي:

ـ هندي استيقظ فات الغداء، يمعود قلت لي جوعان انهض استيقظ، يمعود اكَعد شنو صار لك قرن ما نايم.. أصحى.. أصحى هندي....

لم يتحرك ولم يحوص لا رف له جفن ولا ندت منه حركة. أخذت أهز كتفه وأنادي هندي هندي، انفعلت ورحت أهزه بقوة لم يستيقظ. هنا لعب فأر القدر في عبي. وخشيت من الأمر الوحيد الذي ما خطر على بالي أبدا، هل هو ما أخفاه عني؟

هززته بمنة ويسرة فلا حركة ولا ند عنه شيء، قربت وجهي من أنفه وفمه: لا هواء. أمسكت معصمه أجس النبض، ثم وضعت أذني فوق قلبه. رفعت يديه اليمنى للأعلى وتركتها فسقطت. لمست بشرة وجهه كانت باردة...

أجهشت وأنا ألومه وأقرعه أعاتبه:

ـ اشتعل جدك ياحقير.. لماذا أخفيت عني موتك يا حقير.. خرب

مكتبة الفكر الجديد

جدك ليش تموت وتخليني عدل.. أتنفس وآكل وأشرب كأي نذل.. ليش؟

اشتعل جدك ليش.. ماذا فعلت لكي تهجرني.. ماذا جنيت حتى تتركني.. أي جريمة ارتكبت بحقك فتهرب مني بلا وداع.. آخ.. آخ يا كلب يا ابن الكلب.

أين الصداقة.. أين الأخوة.. أين شقيق روحي التي ثبرتني بها.. أين الزاد والملح.. أين ذهبت فلا أستطيع اللحاق بك.. أنت يا هندي كلما تبقى لي في هذه الدنيا وراح.. راح..

يجوز ناصب علي.. تقشمرني.. وبعد شويه تفز وتضحك تضحك حتى الصباح.. لا..لا.. لا تسويها وتروح وهاي هي.. الى أين أدير وجهي ولمن.. لمن أعطي وجهي وتنظر عيناي.. يمعود.. بس انت بقيت إلي لا تعوفني.. أينما وليت وجهي كارثة.. أنت صبري.. أنت طاقة احتمالي للواقع.. بدونك أحترق.. أحترق بأول شرارة عذاب... لا أحد مثلك لديه كل هذه الطاقة في إخفاء موته.. ليش.. أقلها لمح لي ولو من بعيد.. أعطني فكرة حتى لا أنصدم حتى لا أتلعثم.. ما أعرف شسوي.. هل جاءك عزرائيل أخيرا..هل صحح الخطأ المطبعي السماوي..أم لا تزال رهينة أخطاء لا حمار لك فيها ولا بغل.. كيف لم أرى عزرائيل وهو يدخل السرداب.. أعتقد أنك رأيته يدخل السرداب فلحقته.. ذهبت وراءه وتوسلت به ليصحح الخطأ.. تذكرت الآن.. رأيت ألوان وجهك القزحية كيف تتغير بسرعة مذهلة وهي تتفايض على بشرتك بكل الألوان.. هل رأيت عزرائيل أم أومأ لك أو ناداك وسمعت صوته وحدك فقط.. تركتني في أسوأ توقيت.. تركتني في المكان الخطأ والزمان الخطأ.. لماذا كل هذا الصمت ياهندي؟

مكتبة الفكر الجديد

لولا جنون القيامة وملحقاتها لأقمنا مراسيم عزاء غنائي لجنازة (هندي الحلاق) لا مثيل لها فمن النادر حدوث الموت الطبيعي، مات لا مقتولا بسيارة مفخخة ولا بعبوة ناسفة، ما مات بكاتم صوت ولا باغتيال في ساحة الطوبى. لم أرى ولم أسمع منذ فترة طويلة بموت عراقي بشكل طبيعي نسميه هنا عندنا: موت الله، هندي الحلاق مات موت الله.

لاحظت قبضته مضمومة بقوة على ورقة مجعدة. فتحت أصابعه واحدا تلو الآخر برقة وسحبت الورقة المطوية المعقشة، كنت أحاول طرد دموعي من وجهي، أزجر عيوني بحدة أن تكف عن المطر، والآن تكدست غيوم سود حبلى تحت سقف رأسي وأنا أفتح طيات الورقة، أقرأ ورقة (هندي الحلاق) من بين ضباب عيوني:

كم حاولت الغناء وأنا أموت.. كلما أطلق صوتي وأصيح في براري بغداد يسقط صوتي في هوة مظلمة.. تشبه الثقوب السود في جبين القتلة... أردت الغناء لتسمعني آخر مرة.. هو غناء طاقة الحياة المهدورة في مزابل عمرنا.. وليس غناء الموت في مهرجان جنون القيامة.. كم حاولت الغناء يا (برعم) لكن صوتي يسقط في الهوة ولا يخرج.. كل شهيق يسقط بلا زفير.. أنا صديق جحود صلف خائن لأموت الآن وأتركك مهجورا.. تبكي بين أطلال البلاد.. غلبني الموت ولوى يد حياتي فصرخت عليك.. ناديت وناديت لكن صوتي يسقط بلا ترجيع وبلا صدى.. كيف تسمعني إذن وأنفاسي تسقط واحدة تلو الأخرى في الهوة.. شقيقي (برعم).. أبقى على عنادك راوغ رصاص الكواتم.. تملص من الاختطاف.. لا تدع سيارة مفخخة تتقيأ جسدك.. لا تنسى تشغيل كاشف العبوات الناسفة.. شغل قلبك واحترس من رصاص القناص.. أبقى كما عهدتك متهورا تتحدى

مكتبة الفكر الجديد

القتلة كي لا تموت أبدا.. لا تحتقر الناس فهم مساكين.. وقعوا في جنون القيامة.. فخ حول الراعي عندنا إلى ذئب.. ذئب يبني خراب الضمير.. الضمير الذي تحول إلى قاتل أجير.. مساكين هم الناس لا يعرفون أنهم مجانين القيامة.. لا يعرفون كيف تقودهم الذئاب إلى برّ الخراب.. لم تمتد إليهم يد نظيفة لحد الآن تنقذهم من بئر الماضي.. لحد الآن لم تستنشق عقولهم الهواء الطلق.. مساكين هم الناس مساجين داخل معبد الموت.. لا احد منهم لمح بريق الحياة..عمرهم مجرد حلقات سود من الموت.. لا تحتقرهم وتتنصل عن جذرك.. كم حاولت أغني كل هذا الضيم.. غناء بلا كلمات ذابلة لاكتها ملايين الألسن.. غناء لا يباع ولا يشترى بل هو غناء للحب فقط.. كم حاولت أغني لكن الهواء غدرني..وها أنا أغدرك بموتي..(برعم) لا تغمض عيوني دعها مفتوحة لأننا الوحيدون في العالم لا نستطيع إغماض عيون موتانا.. لا نستطيع فليس هنالك عيون أو رأس أو حتى جسد.. جميع موتانا مبعثرة أجسادهم في السماوات السبع والأرضين السبع.. كيف إذن نغمض عيون موتانا.. تلك العيون المفتوحة على مصراعيها في ظلام أيامنا السود... لا تدفنوني بعيدا عن مدينتي الحبيبة (الحسينية).. مقبرة السلام في النجف بعيدة.. وهناك مشاكل في السيطرات وأنا ميت هارب.. أدفنوني هنا في (الحسينية) في مقبرة (محمد سكران) جنب قبر الطفل (وحيد طه حسين) الذي يعرفه صديقي (حديد).. وهاك رقم هاتفه الموبايل (٠٧٩٠٢٩٧٨٧٨٠) لكي يتم الدفن في الليل بلا نعش وبلا مودعين ومعزين...

أنا آسف وأعتذر لأني ميت.

هندي الحلاق.

مكتبة الفكر الجديد

بعد الساعة العاشرة ليلا توقفت أمام باب بيتي سيارة جيب، عرفت فورا أنه (حديد) وحين فتحت الباب رأيت ثلاث شباب يتقدمهم هو كما وصفه بالضبط (هندي الحلاق). نزل اثنان إلى السرداب معهم شرشف أبيض، وعندما أخرجاه تناوشه (حديد) مع الشاب الآخر.

حملته مع حديد من الرأس وحمله البقية من القدمين. وضعناه في أحضاننا ونحن جالسين في السيارة خلف السائق، الذي انطلق كأنه يعرف الطريق عن ظهر قلب. لأول مرة أكتشف الدروب السرية إلى مقبرة (محمد سكران) بعيدا عن الطرق السالكة المعروفة.

وجدت القبر محفورا وجاهزا لاستقبال جسد الضيف الجديد جنب الطفل (وحيد طه حسين). تلقف (حديد) جسد (هندي الحلاق) ونزل إلى القبر على ضوء المصابيح اليدوية. سجاه في اللحد وخرق الصمت الترابي صوت (هندي الحلاق) يغني، يغني بعمق لغز الموت، صوت بدد الظلام والسكون، وشعرت أن المقبرة استيقظت، ونهض الموتى يسمعون بخشوع أنين صوت المغني وهو يرثي الحياة التي انزلقت من أيدينا وضاعت في التراب، يغني بطاقة الحياة التي تتسرب من أعمارنا، من أجسادنا، من مدننا من بلادنا من العالم، تتسرب وتحترق فورا بنار الحماقة البشرية.

انتبهت توا إلى مصدر صوت المغني، التفت ورأيته يجلس خلفي على الأرض، يقلد صوت (هندي الحلاق) ويستخدم شحناته ونبرته وكلماته وحشرجاته، هذا المغني نسخة أصلية من صوت (هندي الحلاق). رأيته جالسا يغني والتراب ينهال فوق الجسد كأنه لحن سر التراب، أسمع صوت فقاعات الهواء المتصاعدة من الجسد وهي تتفجر في صوت المغني،

مكتبة الفكر الجديد

تتفجر في فضاء المقبرة وينثال الرذاذ فوق رؤوسنا، إنه رذاذ صوت المغني الذي يذوي ويذوب ويتلاشى مع آخر حبات التراب المُنهالة.

جفلت من قطرات دمع ساخنة فوق رؤوسنا وأجسادنا، إنها تمطر بهدوء وكآبة، مطر كأنه دموع الليل المحتفي بنا، بقينا حول القبر إلى أن كفّ الليل عن البكاء وفاحت رائحة التراب وعطر الأرض وضوع أسرار الوجود.

فجأة أطفأ الجميع المصابيح اليدوية وجاء (حديد) يودعني هامسا: الآن عرفتني وعندك رقم جهازي الموبايل.. أنت منا ولا تقصر بزيارتنا.. وسوف تجدنا بقربك حالما تحتاجنا. ثم عانقني وبكى يواصل الهمس: هندي الحلاق توأم الحب وشقيقنا الذي لا يموت أبدا.

أرجعني سائق سيارة الجيب إلى بيتي وحالما بقيت وحدي أجهشت وصرخت بصوت مدمى داخل البيت الموحش اليتيم، أصرخ وأسأل: كيف أواجه وحوش الموت بدونك.. كيف أستطيع وحدي رفع راية الحياة وسط حقل ألغام الجماجم. البيت موحش بدونك مثل بغداد.. بغداد تثغب منثورة الشعر فوق مياه دجلة.. تبكي دما وهي تودع قوافل الجثث الطافية.

مكتبة الفكر الجديد

مسيرة القيامة

تمددت على الدوشك ودمعي يدخل أذني ويبلل المخدة حتى فزز
على جلجلة أقدام تهزّ الأرض وصياح جماهير يشق طبقات السماء، فتح
عيوني على صباح مدوي هادر لا يشبه أي صباح مضى أو صباح سيأتي.

استقيظت أتضور جوعا، البارحة نمت متدثرا بدموعي جوعان
غداء ولا عشاء. أعتقد أن الجوع أيقظني لا زلزال البشر. سويت شاي ء
السريع وبيضتين مقليتين كعين الديك، وسخنت رغيف خبز على الطبا
التهمت الوجبة وفمي يتلامض، بعدها شربت ثلاثة استكانات شاي و
أسمع هدير أصوات البشر.

خرجت على عجل أقفل باب البيت بالسلسلة، وعيني تمتلىء بأفوا
الناس وهي تتلاحم وتتكدس، يمشون بسرعة وأنا أمشي بمحاذاتهم
عبرنا دكان (محمي) ثم اجتزنا مدرسة الزعيم فوصلتني أصوات تشبه طنـ
النحل من بعيد، ثم راحت تعلو عندما اقتربت من جامع نبي أيوب، تعـ
إلى صخب أمواج بحر هائج. لم تتوضح لي تلك الأصوات من بعيد، والآ
ها أنا أسمع هتاف الحناجر المدوي:

ـ الشعب يريد القيامة الآن... الشعب يريد القيامة الآن..

مكتبة
الفكر
الجديد

شاهدت جامع نبي أيوب يغص بالناس، الساحة ممتلئة وفوق السياج وعلى السطح قرب القبة الخضراء الكبيرة وأمام الأبواب الخلفية والجانبية والأمامية. الجامع مغمور بالناس، يهتفون ويطالبون رجال الدين بالقيامة الفورية. كذلك الحال في جامع سيد حسين وبقية المساجد والجوامع والحسينيات، احتلها الناس يصرخون وأيديهم تلوح في الهواء مهددة ناقمة تطالب بالقيامة العاجلة الفورية. لقد دمرهم الانتظار وفتك الصبر على مرور سنين متراكمة بدون بشارة ليوم القيامة، ها هم قد وصلوا لحالة الجزع الأكبر بعدما طفرت روحهم وزهقوا من دواء الصبر المُرّ، انتهى اليوم أكسباير الصبر وحل الغضب والتهور والهياج. الجميع يقول:

ـ ما دامت القيامة لم تأتي.. نحن نذهب إليها.

لاوجود للسيارات هنا في شوارع (الجريخي) حتى وصلت إلى تقاطع مطعم الأمير ورأيت جميع الشوارع تسفو بالبشر، رجال ونساء وأطفال من جميع الأعمار، يمشون بأمواج متلاطمة وصياح يشق طبلة الفضاء:

ـ الشعب يريد القيامة الآن... الشعب يريد القيامة الآن..

ولكن بعدما خرجت من مدينة (الحسينية) قرب الجسر رأيت بعض السيارات القليلة تسير على الأرض الترابية لأن الشوارع المبلطة مغمورة بالبشر، ذاهبون إلى باب المعظم ومنه إلى ساحة التحرير مشيا على الأقدام. حاولت ركوب سيارة (كيا) أسمع السائق يقول: نطلع على (كَميره) والكروة خمسة آلاف لحد جسر صليخ... لكن موجة بشرية دفعتني بعيدا عن السيارة. ثم أقبلت سيارة جيب والسائق يصيح:

ـ جسر صليخ على كَميره..

تعلقت بها وصعدت خلف السائق وبرمشة عين امتلأت بثمانية ركاب ودفعنا خمسة آلاف دينار وأنا أسمع جميع الركاب بأنهم لا يطيقون زمن فترة

مكتبة الفكر الجديد

المشي إلى ساحة التحرير، يريدون الوصول فورا إلى قلب المظاهرة، حيث يرفعون المطاليب من هناك، وربما تتحقق ويكونوا هم من أول رواد القيامة.

طبعا، أنا هدفي يختلف عنهم لأني أريد قياس حجم واتساع وقوة هذه المظاهرات والمسيرات، وهل الجميع يرفعون الشعار نفسه؟

في كل الطرق والمسالك الترابية التي مررنا وجدنا الحشود تزحف صوب باب المعظم ومنه لباب الشرقي حيث ساحة التحرير. ضحكت مع نفسي: كيف تستوعب ساحة التحرير الشعب كله؟

ثلاث ساعات من اللف والدوران والرجوع لتجربة طريق آخر حتى وصلنا جسر (صليخ). وهنا انقطع أي أمل لمن يقود سيارة. من آخر شارع في مدينة (الحسينية) إلى هنا تتدفق السيول البشرية ذاهبين إلى يوم القيامة بعدما تأخر في المجيء وضاعت بوصلة الزمن.

من كثرة الاحتشاد والزحمة والصخب والضجيج فضلت الدخول في الشوارع الفرعية والأزقة والدرابين فهي أقل زحما وحشكة، وها أنا قرب جسر القيامة في باب المعظم، هنا ضاق التنفس فالهواء قليل لا يكفي لكل هذه الصدور اللاهثة إلى يوم القيامة، لذلك تسللت إلى الشارع المؤدي إلى وزارة الصحة ومحلات بيع المستلزمات الطبية وعيادات الأسنان. وجدت الحشر هنا أقل وهدير الهتافات أخف. تنفست بعمق وراحة وأيقنت جازما بأن امتداد المسيرات يصل إلى باب الشرجي وساحة التحرير، ومن هناك لشارع السعدون والنضال. أيقنت أن سكان بغداد خرجوا كلهم إلى يوم القيامة وخلت البيوت من أهلها فصحت عاليا:

ـ ما أصعب الوصول للبيت.

سمعت خلفي من بين الضجيج صوت أعرفه ينادي باسمي. التفت أتطلع بمئات الوجوه فلم أعثر على المنادي إلى أن طبطب على كتفي إنه

مكتبة الفكر الجديد

(راهي) بوجهه الخدوم المسلكي وسحنته اللعوبة نفسها، رأيته يموع بشمع يوم القيامة ويذوب مع بحر الناس بحيث لم يبق منه شيئا، رأيته يلبس قناع المؤمن يخرخر بالتقوى والورع. (راهي) يستبدل يوما عشرات الأقنعة، كلها تقف وتنحاز مع القوي وتحتقر الضعيف والمسكين، يردد المثل الجائر:

ـ كل من يتزوج أمي يصير عمي.

حاولت الإفلات منه لكنه تشبث بي وأخذني إلى بيت قرب المشرحة، يقول إنهم أهل زوجته. كنت بأمس الحاجة للجلوس والراحة، خائر القوى منهك على وشك السقوط من شدة التعب والإجهاد. هذا ما جعلني أذعن لـ (راهي) وأتركه يقودني لا أعرف إلى أين.

لسان (راهي) لم ينقطع عن الثرثرة حول مشقة الوصول من مدينة (الحسينية) إلى بيت أهل زوجته، وكيف أنه قاد مسيرة ضخمة من السوق (الزغير) لغاية (بوب الشام) لكنه هرب منهم بعدما راحوا يطالبونه أن يهدد رجال الدين بإقامة يوم القيامة. ومن هناك صعد بسيارة (كيا) دخلت في الحقول والمزارع حتى وصلت إلى جسر المثنى وسارت بطريق قناة الجيش لغاية جسر (صليخ).

دخلنا بيت أهل زوجته وجلسنا بغرفة الاستقبال المطلة على شارع صغير. عجيب: الكهرباء موجودة والتلفزيون يشتغل، تلقف (راهي) مبدل القنوات(ريموند كونتورل) لونه اسود وراح يتصفح قنوات الاغاني والافلام لكننا لم نرى فيها غير خبر عاجل في جميع قنوات التلفزيون: كنا نحن الحشود المتراصة على جميع الشاشات.. نحتل الجوامع والمساجد والحسينيات..نهدد رجال الدين بجلب يوم القيامة الآن.. الشاشة تغصّ بمسيرات عارمة على طول الشوارع من الشمال إلى الجنوب.. اليوم خرج

مكتبة الفكر الجديد

الشعب كله إلى المعابد والساحات والشوارع يهدر بشعار: الشعب يريد القيامة الآن...

جميع الأخبار والتحليلات والتعليقات تتخوف من امتداد العدوى إلى الدول المجاورة وإلى الشرق الأوسط برمته لأن جنون القيامة لا يعترف بالحدود ولا (فيزا) تأشيرة الدخول، لا يعترف بالجنسيات والأقوام.

رأيت (راهي) ينهض ليعود بصينية فافون تحوي ماعون ثمن وماعون مرق مع رغيفين من خبز القيامة. اندمجنا نأكل ونرى ما يحدث هنا عندنا، وهدير أصوات الجماهير يغمس معنا في المرق والثمن ويطوف في غرفة الاستقبال. وفجأة وقفت يد (راهي) على قناة تصور حشد صغير لمسيرة تختلف بكل شيء عن باقي المسيرات الكبيرة. رفع (راهي) الصوت إلى أقصاه ليسمع جيدا شعار هذه المسيرة الصغيرة وهذا الحشد الصغير، الذي يلبس ثياب زاهية عكس الثياب القاتمة لجماهير المسيرات الكبرى والحشود الضخمة. هذه المسيرة الصغيرة فيها نساء سافرات وأطفال متأنقون يلتمعون تحت نور الشمس بثيابهم البهيجة. سمعت شعارهم يدوي بثلاث كلمات والرابعة تختفي:

ـ الشعب يريد إسقاط....

يخف الصوت ويصير مبهما بحيث لا يمكن فهم وتمييز تكملة باقي الشعار، هل يتقصدون ابتلاع الكلمة الرابعة؟

وضع (راهي) أذنه لصق التلفزيون ولم يتبين معنى الكلمة الرابعة، التي تأتي بعد إسقاط... هل يخافون نطقها بصراحة، هل تحمل لغزا بين طياتها، أين الخطر والمغزى بعدم نطقها صحيحة كاملة؟

بقينا حائرين لا نعرف ماذا تقول هذه المسيرة الصغيرة زاهية الثياب فكل تخمين لا يفصح عن المراد.

مكتبة الفكر الجديد

هذا اليوم الوحيد الذي لم تنفجر فيه سيارة مفخخة لحد الآن، ولا عبوة ناسفة ولم نسمع أي خبر قتل برصاص قناص ولا اغتيال ولا اختطاف. انقطع نزيف الدم هذا اليوم، وعندما وصلت بالتفكير لهذا الحد اشتهيت الطعام أكثر فالتهمت ماعون التمن ورغيف القيامة.

(راهي) يحوص وهو يقول بأنه لا يحتمل البقاء هنا والشوارع تغلي بالناس والحناجر، وأنهى رغبته الجامحة في الخروج بجملة: حشر مع الناس عيد. قلت له لنشرب الشاي ونلحق العيد فهو لا يطير وهذا اليوم لاينتهي.

افترقنا أمام وزارة الصحة، (راهي) يريد عيد الحشر مع الناس، وأنا أريد التطلع والمراقبة من بعيد وأنا أقول لنفسي: أحذر من شرر الاحتكاك فأي جمهور عنده استعداد وهياج لفعل أي شيء وكل ما لا يخطر على البال.. الجماهير أخطر من الزلازل.

وصلت إلى حافة جسر باب المعظم من جهة مدينة الطب، رأيت في ذيل المسيرة الكبرى مجموعة من الناس لا تتعدى الألف، يمشون بأناقة وهم في أوج زينتهم كأنهم مدعوون إلى حفلة رقص، رجال بشعر لامع وصلعات حمراء وسمراء، نساء سافرات مشرقات الوجوه بابتسامة عابرة للقارات، مع أطفال يتضاحكون ويلعبون بكلمات الشعار، فقد سمعتهم يهتفون:

ـ الشعب يريد إسقاط.....

يلوكون الكلمة الرابعة ويبلعون حروفها فلا يستطيع أحد اكتشاف ما يقولون. اقتربت من شاب يرتدي قميص قطن أبيض وبنطلون كاوبوي أزرق، شعره أسود لامع فسألته بمرح وحب عن الكلمة الرابعة:

الشعب يريد إسقاط.. ماذا؟

نظر الشاب إلى وجهي بتمعن وفتش في هيئتي وملامحي فلم يجد أي ثقب أسود. اطمأن لي وقال هامسا:

مكتبة الفكر الجديد

ـ الشعب يريد إسقاط الإله.. اسمع.. لو عرفت هذه الحشود العارمة ماذا نقول لافترسونا وأكلونا بملابسنا نحن ونساؤنا وأطفالنا.

ضحكت وهززت رأسي بغموض، أنا نفسي لم أعرف معنى هزة رأسي هذه، لماذا فعلت هذا وأي قصد تعني.. لا أدري.

قفلت راجعا أمشي عكس تيار الجماهير لعل معجزة توصلني إلى مدينة (الحسينية). ربما إذا وصلت جسر (صليخ) أجد سيارة تعود بي إلى البيت، إلى حيث رائحة (هندي الحلاق) وصدى غنائه فأنا أعيش الغربة والوحشة وسط هدير الجماهير الزاحفة إلى يوم القيامة. أخوض عكس تيار الحشود والبشر، بعضهم ينظر إلي بغضب وشزر وبعضهم يتطاير من عيونهم شرر يلسعني، وآخرين يرمقونني باستهجان وامتعاض.

لاحظت أن معظم قادة المسيرات هم من جماعات الثقوب السود، يمشون بتبجح مهناجين منفعلين يسوطون الناس بشعارات القيامة. ورأيت وجوها أعرفها تظهر وتختفي، وعندما أتابعها تتلاشى وتذوب في أتون الحشود.

رأيت وجه زوجتي (حوراء) وسط أهلها، وحين حدقت بهم اختفوا مثل فص ملح في بحر. ربما عيوني راحت تتوهم وتسورب، ربما عقلي يخرج تلك الوجوه من الذاكرة العينية ويضعها أمام وجهي تلتمع بلحظة ثم تختفي، وهنا غابت عني الذاكرة السمعية والذاكرة الشمية وبقية أنواع الذاكرة، وحدها تشتغل بحماس هي الذاكرة العينية، وها أنا أرى (فواز) مع ابنه (صافي) وزوجته (نورية)، رأيت ابو حسين جاري مع زوجته وأولاده، ورأيت (وعد) صاحب الدكان مقابلنا مع زوجته وبقية أولاده، رأيت مئات الوجوه تتوهج بلحظة ثم تنطفيء وتذوب فلا أراها ثانية.

مررت بحي (القاهرة) أترصد أمكنة مجازر الحيوانات فلم أشاهد

مكتبة الفكر الجديد

الرؤوس المقطوعة والمعروضة للبيع، لم أرى جثث الحيوانات المسلوخة والمعلقة بكلاليب تسر الناظرين كما يقول أبناء القيامة.

اليوم توقف نزيف دم الحيوانات لأول مرة في التاريخ، المجازر مغلقة مع محال القصابين والذباحين والنفاخين، هؤلاء الذين ينفخون جسد الخروف المذبوح بواسطة المنفاخ الآلي (بمب) ليتم سلخه.اليوم عيد الحيوان إذ لم ترى السماء قطرة دم واحدة.

ولما وصلت جسر (صليخ) التفت بلا وعي صوب منارة قناص جامع الفرقان وسألت بصوت مسموع:

هل نزل قناص الفرقان يشارك بمسيرات القيامة، اليوم عطلة الدم. هل ما يزال شبح شرطي المرور فوق جسر صليخ ينظم حركة مسيرات القيامة ورصاصة قناص الفرقان تمشي في أزقة رأسه، تبحث عن مخرج لها ليل نهار حتى غرقت بالدم وماتت.

أفوج عكس التيار وعيون الحشود تتجادح بسؤال غاشم: إلى أين يتجه هذا الأرعن لوحده عكس البشرية؟ وفجأة انتشلتني يد قوية من الغرق بالسباحة ضد التيار، وبسرعة خاطفة نظرت لصاحب اليد: (دخان). وبلا تحية ولا كلام جرني وهو يصيح: تعال. تعال. وأخذني بعيدا عن ساحل تيار الجماهير، وهو يقول: يمعود زين بقيت حي لحد الآن، تعال،لا تدعهم يلاحظون أنك لست معهم،لا نعرف مزاج الحشود المتقلب ففي لحظة إعصار أعمى لا يفرق الشرق من الغرب، تعال، ذيك سيارة جيب، يمكن إلى مدينة (الحسينية). قال سائق السيارة إنه لا يتحرك حتى يكتمل عدد الركاب:

ـ ما أحرك إذا ما أقبط.

زهقت وطلعت روحي إلى أن قبطت سيارة الجيب واكتمل عدد

مكتبة الفكر الجديد

الركاب نزولا عند مزاج السائق المُراهق. حالما انطلقت بنا السيارة أخبرت (دخان) بموت (هندي الحلاق) فانخرط يبكي طول الطريق لا يعبأ بالركاب كيف يسترقون النظر إلينا، وراح يلومني لعدم إخباره. شرحت له وصيته وكيف استعجل في الليل لاحتضان أمه الأرض.

وجدنا بيوت مدينة (الحسينية) خاوية تصوصي إلا من الكهول العجزة، الذين لا يقدرون على المشي. وكذلك المعوقين الذين لا يستطيعون المشي على العكاكيز ولا بالعربة المدولبة. رأيت لافتة عزاء نعمة الموت بيضاء اللون في تقاطع مطعم الأمير، لافتة بيضاء كبيرة بحروف وردية تنعي بسعادة نيل الموت ثلاث شباب (أسامة وحيدر ومروان) انفجرت عليهم عبوة ناسفة. إنهم المراهقون الثلاثة نغولة مكية. تبين فيما بعد كما يقول (دخان) الذي يعرفهم كأشهر لصوص جثث، إنهم هبوا راكضين إلى مكان الانفجار في سوق الغزل ليسرقوا الجثث وينزعوا خواتم الذهب والأساور والساعات من الأشلاء. انهمكوا في صيد جثث سوق الغزل الثمين فجمعوا النقود والذهب حتى دوى انفجار آخر بنفس المكان فتناثرت أجساد نغولة مكية الثلاثة، وربما جاء لصوص جثث آخرين من ذات الفصيلة ليسرقوا جثث وأشلاء المراهقين الثلاثة نغولة مكية. واختتم (دخان): مصيرهم مكتوب على جبينهم.

كما وجدنا المجانين يسرحون ويمرحون لوحدهم في الشوارع والساحات، وجدنا الكلاب والقطط لأول مرة تخرج بلا خوف ومن دون رعب القتل، رأيناها تتقافز بفرح بهيمي عجيب أمام البيوت والمحال المُقفلة. رأيت الكلاب وهي تعرج تمرح وتشعر بالنشوة، وهي مسلوخة الجلد والشعر تتمازح مع بعضها البعض، تنطرح على الأرض تحك جلدها بالتراب ويصدر صوت هرير مسرور كأن الكلاب وجدت الآن معنى الحياة وسر الحرية حتى وهي مثخنة الجراح، وبحالة مزرية.

مكتبة الفكر الجديد

كذلك رأيت القطط من سياج لسياج تتناطط وتموء بسعادة، تحاول اقتناص كل السعادة دفعة واحدة قبل أن تهرب منها وتتلاشى حال مجيء البشر. رأيت الحمير تحتفل بصمت وهدوء كعادتها مع العذاب والشقاء، عندما تحزن تبكي بصمت وهدوء بعيدا عن عيون البشر، رأيتها تنساب كل ثلاثة وأربعة وخمسة في الشوارع تركض وتتمازح بساحة الطوبى، ولم أسمع الحمير ترثي حالها ومعاناتها على شكل نهيق، لم أعد أسمع شكواها: لماذا وجدنا أنفسنا حميرا يحتقرنا البشر، كل واحد يعاتب أمه ويبكي: لماذا حمار أنا يا أمي لماذا؟ من حكم علي أن أكون حمارا، من أرغمني من غصبني من أجبرني أن ألبس جسد الحمار، لماذا حمار أنا يا أمي لماذا؟

لم أسمع اليوم نبرة هذه الشكوى في نهيق الحمير وهي تتمازح في ساحة الطوبى. حالما دخلت البيت لطمتني رائحة (هندي الحلاق) الأخاذة والسحرية، عطر يضوع بالأسرار، أخذ يتكاثف كلما اقتربت من السرداب حتى جذبني العطر من خشمي ودخلت بخشوع وقداسة إلى مكان (هندي الحلاق)، غمرني عطره من رأسي إلى قدمي، أشعر بنفسي مسحورا منتشيا يسحبني العطر إلى كيس أزرق من الجنفاص لم ألاحظ من قبل وما وقعت عليه عيناي. الآن فقط لمحته واستقرت عليه نظراتي، أغراني الكيس الأزرق فهو منتفخ.

مددت يدي داخل أحشائه فأخرجت نضدة أوراق مسطرة بالحبر الأزرق لقلم جاف، ورأيت العنوان يتلامض على صفحة الورقة الأولى: أبناء القيامة.

سمعت صوت المطر فوق السطح وفوق الجينكو سقف المطبخ، لم أخرج من السرداب، بقيت مشدود العين والحواس للأزرق على الورق، أغراني ما فيه وما يخفي، كتاب حبر أزرق يسحبني إليه بقوة فلا أجد مفرا من القراءة.

مكتبة الفكر الجديد

فوق تمطر وأنا تحت أقرأ، ستة أيام أقرأ من الصباح إلى منتصف الليل، لا أرفع عيني من الأوراق إلا حين أجوع أو أذهب للمرحاض.

في اليوم السابع شربت استكان شاي مع بقايا رغيف يابس، ثم أقفلت باب البيت بسلسلة بعدما لبست حذاء جلد مقاوم للطين، ومشيت في الدرب السري لمقبرة (محمد سكران) بحيث لم أفطن إلى أي شيء رأيته أو سمعته، كنت أعيش داخل أوراق (هندي الحلاق)، غائب عما حولي، طامس في الحبر الأزرق، أخوض بين السطور العالقة بذهني ولا أشعر بأني أخوض في طين لا تخرج منه دبابة.

وصلت إلى سرداب قبر الطفل (وحيد طه حسين) تجمدت مصعوقا وانسلّ جسدي مني وكدت أسقط لولا أني اتكأت على حائط السرداب غير مصدق عيني وما أرى:

قبر (هندي الحلاق) فارغ، كوم تراب حول فتحة القبر، وعطر ينبع من جوف القبر الخالي، عطر يضوع بالأسرار.

بغداد

2015 /1 /15

مكتبة الفكر الجديد

المؤلف في سطور

- ولد في بغداد/ كرادة مريم سنة/ 1954 في آذار اثناء فيضان نهر دجلة.
- بدأت انطلاقته الادبية سنة 1972 بكتابة أول قصة قصيدة.
- حصل على شهادة بكالوريوس في الاخراج والتمثيل من اكاديمية الفنون الجميدة سنة 1979
- سنة 1983 حكم عليه بالسجن المؤبد بعد رجوعه لبلاده.

الكتب التي صدرت له:

- النهر الهارب (مجموعة شعرية) سنة 2000.
- لحية اللقلق (مجموعة قصصية) سنة 2003.
- صدرت له رواية (خضر قد والعصر الزيتوني) عن سلسلة دار الصباح سنة 2007. كما تبعتها طبعة ثانية عن دار الجمل سنة 2008.
- صدرت له مختارات شعرية بعنوان (وداعا محنة الكركدن) سنة 2008.

مكتبة الفكر الجديد

- صدرت عن دار الجمل رواية(عين الدود) سنة 2010.

المخطوطات التي لم تنشد بعد:

- اخطبوط الذات (مجموعة شعرية) سنة 1986 في طهران.
- نهيقي يحرق البرسيم(مجموعة شعرية) 1989 بغداد/ في سجن رقم 1 التابع للاستخبارات العسكرية(الشعبة الخامسة).
- مخطوطة (ملحمة الندماء) 1991 بغداد/ في سجن أبي غريب/ قسم الاحكام الخاصة.
- مخطوطة (ملحمة آما راجي) 1991 بغداد/ سجن أبي غريب/ قسم الاحكام الخاصة.

مكتبة الفكر الجديد

الفهرس

شاشة مسدّس 7
نغولة العقيدة 15
سوق القيامة 42
قناص الفرقان 40
هندي الحلاق 50
تقشير بصل الواقع 65
منتوجات القيامة 80
صعاليك القيامة 93
خيانة الضحية 109
سرداب الدنيا والآخرة 128
عزرائيل الثوري 145
في الميدان يبيعون أحشاء التاريخ 158
سرقة الزمن 171
حلاق عقول 184

مكتبة الفكر الجديد

نغولة مكية 201
أولمبياد الفتاوى..... 212
طيور القيامة 225
زفة الميت..... 242
كهنة اللغة 255
مسيرة القيامة 266

مكتبة الفكر الجديد

أني ميت ميت، لا يتفقدني أحد ولا يسأل عني ماحود، ومستحيل ان يركض ورائي صديق حافي القلب يثغب وينتحب، أزف خبر وفاتي الى بنات نعش في السماء المتلاطمة، واستبعد من بغداد المنكوبة ان تسمع رثاء جوقة درب التبانة وهي تشيع جنازتي المهيبة التي لا يمشي وراءها أحد ولا تحملها سوى أكف الظلام، كذلك استبعد ان تتلمس قلبها فلا تجد ذاك العاشق الجاثي الوحيد امام شباك صدرها المسدود. أموت بعيدا عن الناس والصخب والضجيج، أتوارى وأنزف أخر أنفاسي مثل الطيور الجريحة، لا يرى موتي بشر. أعض لساني حنقا وافضح الجميع واكشف عورة الاولين والاخرين، أفضح كل من لعق بلسانه المشطور،لسانه العربي الفصيح قطرة دم مجهول الهوية، ومن قبض ثمن رأس تدحرج من فوق تلال ظلمات البلاد العالية، أين اهرب وآلاف الرؤوس تتدحرج ورائي، وانا اركض اركض.....

ـ قامت القيامة..انقلبت الدنيا...حل يوم الحشر...

QYAMOUT NOVEL رواية

دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790ـ 07905219996
e.mail: bal_alame@yahoo.com

Designed by CMYK Studio
مكتبة الفكر الجديد